

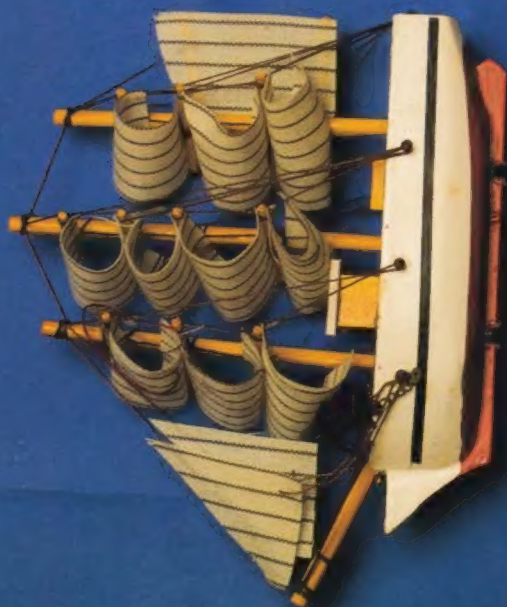
مكتبة

# الساحرة العثمانية

خيال علمي من اسطنبول

باريش مستجابلي أوغلو رواية

أدب تركي حديث ترجمة: د. سهير عباس زهران



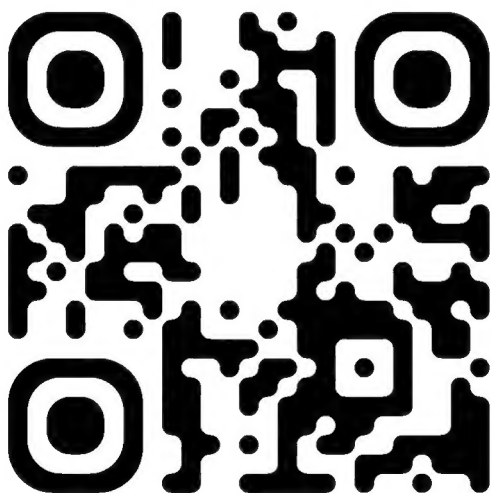
المكرسة

# الساحرة العثمانية

خيال علمي من اسطنبول

انضم لـ مكتبة .. اصنع الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط



telegram @soramnqraa

عنوان الكتاب: الساحة العثمانية  
المؤلف: باريش مستجابلي أوغلو  
OSMANLI CADISI  
Bir İstanbul Bilimkurgusu

ترجمة: د. سمير عباس زهران  
مراجعة لغوية: محمود شرف  
إخراج داخلي: رشا عبدالله

مكتبة  
t.me/soramnqraa

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة  
ت، ف:- 002 02 28432157

.....

 mahrousaeg  
 almahrosacenter  
 almahrosacenter  
 www.mahrousaeg.com  
 info@mahrousaeg.com  
 mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران  
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠٢٢ / ١٦٠٥٢  
الترقيم الدولي: 978-977-313-913-1

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية  
محفوظة لمركز المحروسة

2022

Yayın hakları: © Doğan Egmont Yayıncılık ve Yapımcılık Tic. A.Ş. Bu eserin bütün hakları saklıdır. Yayınevinden yazılı izin alınmadan kısmen veya tamamen alıntı yapılamaz, hiçbir şekilde kopya edilemez, çoğaltılamaz ve yayımlanamaz

© Barış Müstecaplioğlu - Kalem Agency

رواية

مكتبة

t.me/soramnqraa

# الساحرة العثمانية

خيال علمي من اسطنبول

باريش مستجابلي أوغلو

ترجمة

د. سمير عباس زهران

مركز  
المحرسة

للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

الطبعة الأولى 2022



مكتبة  
t.me/soramnqraa



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أوغلو، باريش مستجابلي

الساحرة العثمانية: خيال علمي من اسطنبول: رواية/

باريش مستجابلي أوغلو؛ ترجمة/ سمير عباس زاهر.- ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2022

319 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 978-977-313-914-8

1 - القصص التركية

أ- زاهر، سمير عباس (مترجم)

ب- العنوان

894.353

رقم الإيداع 2022/16052

إلى عزيزي طوبا ودينيز  
اللّتين جعلتاني أحبُّ هذا الكوكب...



# 1

تصدّت السفينة شاهميران بشجاعةٍ لموجةٍ عملاقةٍ قادمة من الجانب، ولكن كل مَنْ كان على ظهر السفينة قد وقع على الأرض، وحتى البحّارة الذين كانوا قد قضوا معظم حياتهم في البحر سقطوا على الأرض في جميع الاتجاهات مع المساعدين، كان الشراع الرئيسي ممزّقًا بالفعل منذ فترة، وجزء كبير منه قد طار بعيدًا، ويتحرّك في مهبّ الريح مثل العَلَم الأبيض، كما لو كان يحاول أن يقول لنا إن السفينة الشراعية قد استسلمت للعاصفة، وكانت تطلب الرحمة، لقد كان هذا مجهودًا عديم الجدوى؛ فالإعصار الهائج ليس لديه رحمة، حيث كان قد قرّر أن يقضي عليها مرة واحدة، مثل السفن المجيدة الأخرى التي دفنها في قاع البحر في نفس اليوم، كانت البراميل المليئة بالقطران، والمسامير، والقار، والسلاسل، والمؤن- تتدحرج من مكان إلى آخر، بعضها يتطاير على الدرابزين المكسور، والباقي يأخذ كل ما جاء في طريقه، ومن وقت لآخر، كانت تنضمُّ إليهم قطع الصاري التي

انفصلت عن الأعمدة، والأعمدة، والفوانيس المقلوبة، وقذائف المدفع التي هربت من أماكنها، وأولئك الذين تحطمت أقدامهم سقطوا على الأرض وهم يصرخون.

جاءت موجة جديدة مُستَعِرَّة وهاجَمَت مقدِّمة السفينة الشراعية مثل كلب جائع، ونزعت تمثال الأسد الضخم الذي أُرهب البحار لسنوات، وأثناء تفكيك التمثال من مكانه، فتح شقًّا كبيرًا في مقدمة السفينة، وبسبب الضوضاء، لم يكن بالإمكان سماع صرخات البحَّارة الأربعة المساكين، الذين سقطوا في البحر من خلال الألواح الخشبية المكسورة.

وطوبجي باشي مرتضى أفندي، الذي كانت إحدى عينيه ضحيةً لحجر طائش عندما كان طفلًا، والذي اعتقد أنه تعرَّض لجميع أنواع المشاكل، التي يمكن التعرض لها في البحار بعين واحدة، في السنوات الثلاث والستين التي تركها وراءه، قد عَضَّ شفته السفلى من الدهشة، وكأنه يقطعها، وهو ينظر إلى عظمة الأمواج الجديدة المتصاعدة من بعيد، لقد قتل الدَّهْرَ خبرةً في حياته، التي استمرَّت فترة طويلة بالنسبة لجندي بحري مخمور، لكنه لم يسمع من قبل بمثل هذه العاصفة التي يتعرض لها الآن، في معظم أحاديث البحَّارة المبالغ فيها، ولم يشهد أبدًا ما كان يمر به حتى في أكثر كوابيسه وحشية، غضب الريح الصارخة، التي تهاجم السفينة الشراعية من جميع الاتجاهات، لا يمكن تصوُّره، كان الله تعالى يعاقبهم، حسب قوله، لا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر لما حدث لهم، لكنه لم يكن يعرف ما هو الإثم الكبير الذي اقترفوه.

وكان يصرخ في وجه جنود الانكشارية<sup>(1)</sup> ذوي الأجسام الضخمة، والذين كانوا يركضون دون وعي قائلاً: "أيها القوَّادون... عليكم تأمين

(1) الإنكشارية: هي قوات مشاة و فرسان من النخبة بالجيش العثماني. (المترجم)

الصواري! عليكم تأمين الصواري!، ولأنهم كانوا ينقلون جنودًا إلى أحد الحصون كان من المتوقع مهاجمته قريبًا، فقد كانت السفينة شاهميران مليئة تمامًا بهؤلاء الرجال الذين لا يعرفون البحر، وعندما هبَّت العاصفة بسرعة فجأة، هرعوا جميعًا من كبائنهم يائسين، وجاء بعضهم بأسلحتهم، وكأنهم يستطيعون قَطْع الأمواج المتدفقة بسيوفهم، وضربها ببنادقهم، ومع ذلك، لم يكونوا ذوي فائدة، بل على العكس من ذلك، فقد كانوا عائقًا أمام الطاقم الرئيسي للسفينة الشراعية الذي كان يحاول تصريف المياه وسدَّ الثقوب، مع سنوات من الخبرة، رأى مرتضى أفندي أن الركلة الأساسية كانت في حالة انهيار، لكنه لم يَسْتَطِع أن يجعل صوته مسموعًا من قبل أي شخص في هذه الضوضاء، كانت موجة قوية قد جعلته يطير منذ قليل -مع البراميل- على بُعد أربعة أمتار على الأقل، ولم يكن قادرًا على النهوض مرَّةً أخرى، كان يحاول الوصول إلى العمود زاحفًا، من بين الحشد، بسبب ساقه المكسورة، ولكن حتى لو تمكَّن من الوصول إلى هناك، لم يكن يعرف ماذا سيفعل، ومع ذلك، كان يصرخ قدر استطاعته، قائلاً إن الأمل لم يَضَعْ في الحياة، وكان يحاول لفت انتباه الأشخاص الشجعان، الذين ينشغلون بأشياء عبثية، إلى الخطر القاتل الحقيقي.

"السارية تخرج عن نطاق السيطرة، يا عديمي الشرف! السارية الرئيسية سوف تهبط على رؤوسنا! اركضوا، وساعدوا البحَّارة! استمعوا إليَّ أيُّها الكافرون! بالله عليكم، توقَّفوا واستمعوا!"

كان سطح السفينة مليئًا بالجثث والجرحى، وكاد أن يتحوَّل الموقف إلى النجاة بالنفس، لم يكن هيمانالي سليمان باشا مع رجاله عندما كانوا في مثل هذه المشاكل، وهذه هي المرة الأولى منذ اليوم الذي أصبح فيه قائدًا لشاهميران، كان يجلس القرقصاء في مقصورته، يتلو القرآن من المصحف الموجود في يده، ويصيح بصوت عالٍ قدر استطاعته، قد تعتقد أنهم إذا تمكَّنوا من إسكات صوت العاصفة في

الخارج، فسيصبح البحر هادئًا، وسوف ينتهي هذا الكابوس اللا نهائي فجأة، وسيعودون إلى منازلهم بأمان، وكلّما كانت شاهميران تقذفها الأمواج من مكان إلى آخر، كان يتأرجح ذهابًا وإيابًا، كما لو كان في حلقة ذُكر في هذه السفينة التي قضى فيها معظم أيام حياته، ولكنه بدلا من تلاوة الآيات بالترتيب، كما يفعل عادةً، كان يُردّد الآية 119 من سورة النحل بلا كلّيلٍ ودون ملل، كما لو أن القرآن يتكوّن من هاتين الجملتين فقط:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>.

بدأ حبّه للبحر عندما كان خادماً في سفينة صغيرة، وعندما جرّهم قائدهم الجريء إلى مياه أكبر من ارتفاعهم، قبض عليه القراصنة مع جميع البحّارة الموجودين على متن السفينة، ولمدة عامين تمّ بيعه من سفينة إلى أخرى في أسواق العبيد، وحُكِم عليه بالتجديف، وهو كابوس البحّارة، كان معتاداً على النوم جالساً، ويتمّ جلّده صباحاً ومساءً، واعتاد على الرائحة الكريهة الموجودة في جوف المركب، لكن روحه لم تكن تقبل أن تكون مُقيّدة بالسلاسل إطلاقاً، وأخيراً، عندما سقطت سفينة شراعية تابعة لجنوة -كان محتجزاً بها- في فخّ اثنين من القوادس العثمانية، حدث تمرّدٌ بين الأسرى المحكوم عليهم بالتجديف، وفاز بحريته وبقوّته، التعذيب الذي تعرّض له خلال فترة التجديف، والوحشية التي شهداها لم تقتل شغفه بالبحر، ولكنها أيقظت المحارب بداخله، وجعلت قلبه قاسياً كالبحر.

قام بكل عمل يمكن تخيُّله، لسنوات، في هذه السفينة التي التحق للعمل بها بصفته بحّاراً مبتدئاً، وأخيراً، في أحد الأيام، عندما قُتل

قائدهم بفعل قذيفة مدفعية سقطت عليه، تولى القيادة بصفته أكبر مساعديه ولم يتركها أبدًا لأي شخص مرة أخرى، في تلك الأيام، كانت القرصنة مهنة سيئة السمعة، ولفترة طويلة اجتاح البحار مع طاقمه، كالرياح، وكان قد أجبر التجار الأثرياء على دفع إتاوة، كانت التحف غير المتناسقة، والتي تُعدُّ كلُّ منها ثروة، والتمائيل النصفية المصنوعة من الذهب، وتماميل النساء شبه العارية، والشمعدانات المُرصعة بالماس، والسيوف المزينة بالزُمرّد، التي تُزيّن قمرته الآن، تُعدُّ كلُّ منها ذكرى لتلك الأيام، لدرجة أن السلطان، الذي سئم التعامل مع هذا الذئب العجوز، في النهاية، عرض عليه ضعف ما جناه من الغنيمة، وجذبه لصفِّه، وقام بترقيته إلى منصب رفيع في أسطوله، وقام لسنوات عديدة، بواسطة السفن التي كانت تحت قيادته، بالتضييق على أهل جنوة والبندقية والشبان اللصوص الذين شوَّهوا اسم القرصنة، وكان معروفًا في قصور الكُفَّار باسم القرش البري للعثمانيين، لكن امتلاك مثل هذا الماضي العظيم لم يكن كافيًا بالنسبة له للتغلب على الخوف في قلبه، والارتباك في ذهنه الآن، وبينما كان يقرأ القرآن الذي كان يمسكه بإحكام ويتلوه باكيًا، وقال صوتٌ بداخله إن ما فعله لن يُصلح شيئًا، كان الظلام الدامس في قلبه ينمو، كان قد اقتترف إثمًا، وكانت هذه خطيئة لا يمكن أن تُغفر أو تُنسى، وقد نزل عليهم غضب الله القدير بحق، وعلاوة على ذلك، شعر بكل ذرَّة في جسده أن ما حدث كان مجرد بداية.

أخذ نفَسًا عميقًا، وصمت، ووقف ساكنًا لبعض الوقت، وهو منحني الرأس، ثم حدَّق في الباب الحديدي الذي يؤدي إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لقمرته، والتي بدَّت له الآن كأنها مدخل الجحيم، وذهبت يده إلى السيف العريض والقصير الموجود في حزامه، مُمسكًا بالمقبض بشدَّة، لدرجة أن أظافره تغلغلت في جسده، إذا كان الشيطان، سبب كل هذا، فهو وراء ذلك الباب الحديدي، وإذا سكب دمه الأحمر



على الأرض، وقطع رقبتَه كضحية، فرمى يهدأ غضب الخالق قليلاً، ربما كان الأوان قد فات بالنسبة لهم، لكن على الأقل يمكن أن يمنع ذلك المسيح الدجال من إطفاء الأفران الأخرى في المستقبل، وقف ووضع الكتاب الموجود في حجره، بعناية، على المكتب الخشبي المنحوت، والذي كان قد اعتبره تذكّاراً من إحدى سفن جنوة، واقترَب ببطء من الباب وهو يمشي بصعوبة بسبب اهتزاز السفينة التي بدأت تنهار، ومع كل خطوة كان غضبه يزداد قليلاً، ويزداد اللعنان القاتل في عينيه أكثر فأكثر بالتدريج، وكان صوت الرياح والأمواج وهي تضرب السفينة يأتي من الخارج، فيما سُمِعَت صرخات الخوف واليأس من البحّارة بين وقت وآخر، ترى كم عدد الرجال الذين فقدهم بالفعل، كم عدد الرجال الشُّجعان الذين عمل معهم لسنوات وانطلقوا في نفس الطريق، وكانوا ضحيّةً لخطاياهم؟ وإذا ذهبت كم ذراعاً ستغرق سفينته، التي خاض من أجلها حروباً لا تُحصى، وسفك الدماء، هكذا؟ كان عليه أن يضع حدّاً لهذا الآن، وكان من واجبه إنقاذ مَنْ بقي.

وضع راحتيه الضخمتين القاسيتين على سطح الحديد الأملس، وانحنى لأسفل، وجعل رأسه أقرب إلى ثقب المفتاح، بدا الأمر كما لو أن صوت العاصفة، التي ضربت السفينة مثل كرات القطن، توقّف في لحظة، كل ما كان يسمعه الآن هو أنفاسه، ومع مرور الثواني، انكمش غضبه مثل البالون، وتحوّلت كراهيته واستيائه إلى شغف لرؤية الجمال الموجود في الداخل مرّةً أخيرة، قبل أن يستردّه البحر، كان الشعور الوحيد الذي سيطر على قلبه هو الرغبة الشديدة التي كان يشعر بها، في إمكانية لمس بشرتها الأحلى من العسل مرة أخرى، وعناق خصرها النحيل بشدّة، واستنشاق رائحة شعرها مرة أخرى، التفكير في الأمر منحه هدوءاً لا يوصف، بينما كان يصيبه بالقشعريرة من ناحية أخرى.

هَزَّ الْجَمَالَ الَّذِي لَا يُضَاهَى -الذي كان يشاهده من الثقب- هيمانلي سليمان باشا تمامًا، كما أثار مشاعره في المرة الأولى التي رآها فيها، أغلب الظن أن هذه الدرجة من الكمال كانت معجزةً من الله، كانت أمانةً مُقدَّسة، ولا يمكن أن تكون هذه النعمة الإلهية هي مصدر الكوارث التي حلَّت بهم، على الرغم من أنه كان ينظر بمتعة إلى النصف العلوي من الفتاة الصغيرة التي ترقد عارية تمامًا على الأريكة، إلا أن هذا المنظر السحري كان كافيًا لجلب الدموع إلى عينيه، وتلاشي النوايا الشريرة من عقله، كان الله تعالى قادرًا على خلق كل شيء، وكانت لديه قوة مطلقة، ولا بُدَّ أنه خلق مثل هذا الجمال الذي لا يوصف، وأرسله إلى عبيده الجاحدين، الذين نسوا هذه الحقيقة السامية وانغمسوا في العالم الفاني؛ من أجل أن يجعلهم يعيدون حساباتهم، وعندما فكَّر في أنه كان ينوي فقط تدمير معجزة إلهية بيديه، تملَّكه خوف شديد، وقطَّب حاجبيه الكثيفين.

صرخ بغضب في الفضاء أمامه "لا! لن أقع في فخِّك، أيُّها الشيطان الرجيم!"، في الضوء الخافت للمصابيح، كان يمكنه أن يشعر بوجود الشيطان في الغرفة، وكأنه بإمكانه رؤية الظلام المتراكم في تلك الزاوية، والذي من شأنه أن يلفَّ كل الجوانب إذا استطاع. كان يسمع أصواتًا لا تخصُّه في ذهنه، وكانت هناك صور مخيفة تظهر وتختفي في مُخيِّلته، كان لديه كابوس النهار هذا أيضًا، في اليوم الذي أخذوا فيه الفتاة إلى السفينة، والأصوات والصور التي تهاجم عقله كانت تثير رغباته، وأدَّت إلى الانقضاض على المسكينة مثل الأشقياء، وبعد ذلك هبَّت مباشرة هذه العاصفة المنقطعة النظير، والتي لا يمكن تفسيرها بشيء سوى أنه غضب الله، لن يدع الشيطان يخدعه مرة أخرى، وقال في نفسه:

"أغلب الظن أن هذا اختبار! لقد أرسل الله تعالى هذا الجمال الرائع الذي خلقه، كأمانة إلهية! إنها ملكٌ لي وأنا لها! خُصَّةٌ من شَعْرها أغلى من حياتي، اخرج من عقلي، أيُّها الشيطان! لا تُربِّكني!".

سيحمي تلك الفتاة من كل شيء وكل شخص على حساب حياته، هذا ما كان عليه أن يفعله، كل دَرَّة من كيانه كانت تصرخ بذلك.

في تلك اللحظة، انفتح باب المقصورة الخشبي ذو الدرفتين، وأحدث ضوضاء، وتمّ دفعه بقوة لدرجة أن مفصلاته كانت قد خرجت من مكانها، كان ساري إسماعيل من شباب البحّارة الذين هرعوا إلى الداخل، هذا الشاب القوي الذي خدم الباشا لسنواتٍ كحارس له، وبعد تَوَلّيه الحارس الشخصي لعددٍ لا يُحصى من رجال البلاط، تمّ نفيه إلى شاهميران بسبب افتراء ابنة الباشا، التي لم يبادلها الحبّ، كان يضحك كثيراً، ويجلب البهجة لكل مكان يدخله، وفي وقت قصير اكتسب صداقة الطاقم بأكمله، وأصبح قُرَّة عين جميع الرؤساء، من الواضح أنه كان يركض على الدَرَج، لاهئاً، مبتلّاً من الرأس إلى أخمص القدمين بسبب الأمواج التي كان يستهدفها، في إحدى يديه، كان يحمل فأساً ضخمة تُستخدَم في أعمال سطح السفينة، بينما جعل اليد الأخرى على هيئة قبضة، وكانت هناك ندبة جديدة على وجهه بدأت من صدغه، ونزلت إلى منتصف خدّه، وكان جانبه الأيسر مُغطّى بالدماء حتى ذقنه، ونصف شاربه قد اصطبغ باللون الأحمر.

والشاب الذي اشتهر بسبب قوّته المؤلمة، والذي طرح كل مَنْ صارعه على متن السفينة أرضاً، نظر في جميع أنحاء الغرفة، وعيناه اللتان في زُرقة السماء تلمعان بغضب، وعندما رأى هيمانلي يقف بينه وبين الباب الحديدي، تقدّم بضع خطوات في هذا الاتجاه.

وزأر مثل أسدٍ جائع، قائلاً: "أعطني إيّاها أيها الرئيس!"، "هذا الشيطان هو سبب كل هذا! لقد لوّث كل مكان بِشَرّه! نحن نموت واحداً تلو الآخر أعلاه، والسفينة على وشك الانهيار! دعونا نُلقِ المسيح الدَّجَال في البحر وننجّ!".

كانت الكراهية والرغبة تتحوّل باستمرار في نظرات المحارب الشاب، ولم يكن من الواضح أيهما ستنتصر، هل كان يريد حقًا أن يرمي الفتاة من السفينة، أو ما إذا كان يريد أن يتنفس أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها، لم يكن استطع الإجابة إذا سأله أحدهم.

صرخ سليمان باشا وهو يُحكِم قبضته، قائلاً: "لا تقترب، أيُّها الدُّيُوثُ!"، "أمّا تعلم أن هذه هي أمانة الرب القدير! ألا تعلم أنها شرف البَحَّار الذي أنقذها من البحر! أنت تأخذ حياتي، ولا يمكنك أن تأخذها مني! عُدْ وإلَّا ألقيتك في البحر!".

امتلات عيون الشاب بالدموع، ومسح الدم الذي بدأ يتدفَّق من شفثيه ويدخل إلى فمه، بكفّه، وحرك يده في الهواء، وكانت قطرات حمراء تتطاير حوله، لقد فهم أن أيًّا منهما لن ينجو من هذه القمرة؛ سيكون إمّا القاتِل أو ضحيّة الرئيس الذي كان يحسبه أباه لسنوات، لكنه لن يعود إلى سطح السفينة خالي الوفاض، ولن يفعل ذلك بأي ثمن.

وقال: "اللعة على اليوم الذي وجدناها فيه في البحر..."، قال وهو يصرُّ بأسنانه، وهو ينفث الكراهية. "اللعة على أعيننا التي ترى وجهك... ملعونة أيدينا التي تمسُّ بَشَرَتِكَ... ملعون أنت لأنك احتفظت بها لنفسك".

اندلع حريق في عيون سليمان باشا، وانطفأ، كان إسماعيل أطول منه، وكانت عضلاته بطول الخصر، وكان سيطرته أرضًا بسهولة في أي وقت آخر، ولكن في مثل هذه اللحظة التي كانت تلزم فيه وجود معجزة إلهية لحمايته، فإنه لن يتراجع حتى إذا ظهر أمامه الشيطان نفسه، وبينما كان يستقيم ويسحب سيفه العريض والقصير، اختفى الخوف واليأس من وجهه، وحلَّ محلُّهما تعبيرٌ لا يتزعزع، يُذكره بأيام القرصنة المجيدة، عندما كان مشهورًا في البحار، وحتى السلطان

لم يستطع مواجهته، ونظرت عيناه إلى القرآن الموجود على المائدة الخشبية، وإذا كانت لديه فرصة واحدة للتكفير عن خطيئته الكبرى، فقد سنحت له تلك الفرصة.

أطلق صاري إسماعيل صرخة، ورفع فأسه، واندفع إلى الأمام لقتل قبطانه، الذي كان سيضحي بحياته من أجله دون تردد قبل أيام قليلة.

هايمانالي سليمان باشا، ممسكاً بسيفه بإحكام، ثنى ركبتيه، واستعد لمواجهة هذه الضربة القاسية، واستقرت ابتسامة هادئة على وجهه، كأنه يقف على أبواب الجنة.

الصّاعقة التي سقطت على سطح السفينة، نزعّت الصاري الرئيسي، الذي كان متهاكاً بالفعل، من مكانه، وقام طوبجي باشي مرتضى أفندي، بالسباب، وهو يشاهد بلا حول ولا قوة، ما يحدث، وبينما كان الصاري ينهار مع ضجيج عالٍ، تحطّم كُلُّ ما أمامه، وفتح حفرة كبيرة في مؤخرة السفينة، إحدى قطع الخشب التي أُلقيت في جميع الاتجاهات، قد انغرزت في بطن طوبجي باشي العجوز؛ ممّا أدّى إلى تحريره من مشاهدة ما سيحدث، وعذاب الموت غرقاً، الرجل الذي كرّس حياته للبحر، حدّق في السماء المظلمة للمرة الأخيرة بعين واحدة، وظنّ أن الأبدية تبدو جميلة جداً، ثم استغرق في نوم هادئ، بدّد كلّ مخاوفه، بدأ البحر يملأ شاهميران بكل ما فيها من مقاومة، ويغطي كل شيء، استلقت السفينة الشراعية الكبيرة ببطء على جانبها، وكانت البراميل تتطاير في الهواء، وتُسقط كل البضائع التي كانت تحملها، والبحّارة اليائسون كانوا يسقطون في الماء واحداً تلو الآخر، واختلطت اللعنات والصراخ والصلوات مع بعضها البعض.

وبينما كانت القيامة تقوم في الخارج، استدارت الفتاة الصغيرة المستلقية في الغرفة الصغيرة ببطء على ظهرها، وحدّقت في السقف

الخشبي الموجود فوقها، كان هناك في عينيها التي تجعل الإنسان يطير  
من الفرحة آثار ألم لا مثيل له، وبضع قطرات من الدموع، وتحركت  
شفاتها التي لها لون الكرز الناضج، وامتدت، بلغة لم يعرفها أحد  
على متن السفينة، قائلة: "سامحني يا إيفا".

سامحوني كلكم...

مكتبة  
t.me/soramnqraa



## 2

قال إليه آر43 بصوت هادئ، وساكن، وودود: «البروتوكول 173 ساري المفعول، يتم إجراء فحصٍ أمنيٍّ في المنطقة المجاورة، كاميرات المراقبة الخاصة بي تعمل بشكل جيد، مستشعرات الصوت وأجهزة استشعار الحركة قَيِّد التشغيل، وبدأ نقل الصور ثلاثية الأبعاد».

كانت طريقته الهادئة في التحدُّث مُناسِبةً لروبوت منزلي مُبرِّمج لرعاية طفل، أكثرَ من آلة قَتَلٍ مضادَّةٍ للرصاص، وأثناء الاستماع إليه يمكن للمرء الاسترخاء والتخلُّص من كل متاعبه، والاستمتاع بنوم مريح، يمكن أن يقال حتى إن صوته لَحْنِيٌّ إلى حَدٍّ ما، وبحسب الضابط الكبير بالشرطة أحمد دمير، المتمركز أسفل المصاعد، والذي يقوم بالحراسة في حالة هروب شخص ما، فإن هذا الوضع كان مثيراً للأعصاب بشكل كبير؛ ممَّا يعني أن الأشخاص الذين صمَّموا الروبوت الآلي الأمني، يعانون من مشاكل نفسية خطيرة.



قضى أحمد حياته كلها في قوات الأمن، وكان قد اعتاد على كل مشاق، وقذارة هذه المهنة، وحقيقة أن حياته كانت في خطر في أي لحظة، لكنه لم يستطع أن يأنس إطلاقًا لهذه الأكوام الحديدية، التي كان مضطرًا للعمل معها في السنوات الأخيرة، لقد جعلوه يشعر بأنه غير ملائم، ولا لزوم له...

تمتم، وقطب جبينه، قائلاً: «سوف يضعوننا جميعًا عند الباب قريبًا، ها أنا أكتب هنا! هذه الروبوتات اللعينة سوف تأخذ وظائفنا، احذروا، ولا تقولوا إننا لن نرى تلك الأيام! في الشهر الماضي، وضعوا هذه الرؤوس المعدنية في الاستقبال في الفندق، حيث يعمل عمّي، وفصلوا اثنين من الموظفين المساكين، إنهم لا يأخذون استراحات الغداء، ولا يطلبون إجازة سنوية، وبالطبع فإن الرؤساء يحبون ذلك، وسرعان ما يمسح هؤلاء الرجال المقرفون حتى مؤخرتنا...».

وبَصَقَ في حَقْدٍ، ونظر إلى صديقه الموجود بجانبه، وكأنه يسعى للحصول على تأكيد.

ضحك مصطفى، وهو يسوّي شاربه بأصابعه، وقال: «لا تبالغ، أيّها الصَّبِيُّ المجنون»، لم يلاحظ أنه فعل ذلك للمرة الثالثة في الدقائق العشر الماضية، ونظر بشكلٍ أبويٍّ إلى أحمد، الذي كان أصغر منه بكثير، وفحص مُسدّس الطاقة المعلق في كتفه.

وقال: «هل ترغب في أن تكون أول من يدخل الأماكن المزعجة؟ مَنْ يدري ما هي القذارة الموجودة بالداخل، والله أنا سعيد بوضعي، هناك بالفعل سنتان حتى تقاعدي! لا أستطيع التعامل مع السفلة والوضعاء».

لقد كان فاتِرَ الهِمّة، وهو يُحدِّق في نهاية الممر الخالي والمُحصّن، كما لو أن عقله قد سافر مؤقتًا بعيدًا، أو إلى أوقات بعيدة.

وقال بصوتٍ حزين: «هل تتذكّر ميرت، لقد مات دون مبرّر، يا حبيبي»، «كان صبيّاً صغيراً، لقد أحببنا جميعاً هذا الولد الشقي، لقد أدرك أنني سأكون أوّل مَنْ يدخل هذا المستودع الغامض، لقد تصرّف بشكل غير مناسب، فأطلقوا النار على جبهته مباشرة، ومن هنا كان وحيداً لدى أمّه في الدنيا، وبقيت المسكينة وحيدة تماماً».

قال الشرطي الأشقر المتمركز على الجدار المقابل للممرّ: «حسنًا، والله، لقد كانت امرأة مبارّكة. عندما جاءت لزيارة ميرت، كانت توزّع الفطائر الرائعة على القسم بأكمله، قالوا إنها فقدت عقلها، عندما فقدت ابنها، ليُعْنها الله».

حدّق أحمد بصمت في الرجل الصغير، الذي كان يضغط بإصبعه بقوة بين حاجبيه، ربما كانت لديه نقاط صحيحة، لكن بينما كان ينتظرهم في الخارج، أصيب ذلك الروبوت، ذو الرأس المعدني، والذي لا روح له بشكل مأساوي، في الداخل، وتساءل بشغف شديد عمّا كان يحدث خلف هذه الجدران، في الأيام الخوالي كانوا هم مَنْ حلّوا مثل هذه الألغاز، لقد كان يشعر أنه كان يقوم بعمل جيد، وأن وجوده له معنى.

رگّز على شاشة بحجم كفّ اليد، موجودة على ذراعه من درعه؛ حتى يتمكّن على الأقل من رؤية ما كان يحدث من خلال عيون الروبوت، وقام بلمس الشاشة بإصبع واحد، وكبّر الصورة ثلاثيّة الأبعاد مرّتين.

استمرّ الإنسان في إبلاغ رجال الشرطة عندما اقترب إليه 43 من باب الشقة دون اندفاع، كانت الفراشات تطير في صوتها، كما لو كان نصفها يتحدث، ونصفها الآخر يغني تهويده، وقال:

”لا يبدو أن هناك أي مدنيين حولنا، لم يتمّ الكشف عن أي تهديدات، البيئة هادئة وساكنة، لا دماء أو آثار رصاص على الجدران، واحتمال

حدوث اشتباك أقل من ثمانية في المائة، سادخل المكان المستهدف قريباً، البروتوكول 81 نَشِط، يتم الاستعداد للاتصال الساخن».

كان روبوت الشرطة -الذي كان يحتوي على أحدث وحدة ذكاء اصطناعي، والذي تمّ تحديثه العام الماضي- يشبه الإنسان عند النظر إليه من بعيد، وكان من الممكن أن يكون هذا التشابه أكبر، لو لم يكن لديه كاميرا ضخمة على وجهه بدلاً من عينيه، وجسمه المعدني لم يتوهج عندما يصيبه الضوء، ولكن حتى لو تمّ تصميمه بشكل بشري بما يكفي لعدم تخويف الجمهور، فمن المهم أيضاً ألا يبدو مثل الإنسان تماماً؛ وبالتالي، لن يحاول أحد قبله إنقاذ مواطن قد يتضرر فعلاً في وقت الخطر، تمّ نقش الأحرف الأولى لقوات شرطة جمهورية اسطنبول على صدره الأيمن، وكُتِب «قوّات الأمن لمدينة اسطنبول» بأحرفٍ صغيرة منقوشة على معصميه وكاحليه، كان من المرغوب فيه أنه إذا تمّ تقطيعه، فيمكن فهم أنه كان إنساناً آلياً خاصاً بالشرطة، وذلك من أجزائه المختلفة.

وضع إيه آر43 راحتيه على باب الشقة الحديدي، لقد كان باباً صلباً مصنوعاً حسب الطلب، ولن ينكسر إذا تمّ ربطه بسيارة، وسحبه، على الأكثر سوف يخرج من مكانه، دارت الكاميرا ذات الزاوية العريضة على وجهه، على قاعدتها الكروية، مُسجَلةً بعناية كل نقطة، ومقارنتها بمسارح الجريمة السابقة في قاعدة البيانات، وقارن التقارير الخاصة بالمنازل التي تمّ الإبلاغ عنها، والإحصاءات الخاصة بالجرائم التي ثبت وقوعها في هذه المنازل، بملاحظاته الحالية، وعلى الرغم من كل ملامحه المتفوّقة، فقد كانت قوته التحليلية منخفضة مقارنةً بالإنسان، وكانت الشرطة الحقيقية سوف تأتي وتفحص الأدلة بالتفصيل، بعد أن يتأكّد من الأمن، ومع ذلك، لاحظ غرابة أنه يجب عليه الإبلاغ هنا، وفقاً للبيانات المتاحة.

لم يكن الباب مفتوحًا عنوةً، واحتمال العبث بالقفل أقل من ستة بالمائة، يفترض أن الضحايا فتحوا الباب للمهاجمين بأنفسهم، أو أن الأشخاص الذين جاؤوا يعرفون كلمة المرور، مقارنة بالأحداث المماثلة السابقة، فإن احتمال اختيار الغرفة عشوائيًا، هو أربعة فاصل اثنان بالمائة.

نقر على الشاشة التي تعمل باللمس بجوار الأجنحة الفولاذية ثماني مرّات بأصابعه الطويلة النحيلة، وانزلت لوحات الباب ببطء على الجانبين، عندما أدخل رمز الشرطة الذي قام بتنزيله للتوّ من قاعدة البيانات الحكومية، والتي فتحت جميع الأبواب في البرج العملاق، ونظرًا لما حدث له عدّة مرّات من قبل، فقد كان مستعدًا للرصاص الذي يمكن أن ينهال عليه، ولن تُشكّل الأسلحة البسيطة أي خطر، ولكن في هذه الأيام يمكن للمسلّحين أيضًا العثور على بنادق خارقة للدروع، أو قاذفات صواريخ، ظهر طرف البندقية الآلية من خلال الفتحة الموجودة في راحة يده، ومدّ ذراعه للأمام، وأصبح في وضع القتال، ودخل بخطوات حذرة.

صاح بصوت عالٍ يمكن سماعه في جميع أنحاء المنزل، قائلاً: «روبوت الشرطة إيه آر43 موجود في الغرفة! ارفعوا أيديكم وابقوا في مكانكم، أي هجوم سيواجهه بردٌ قاتل، بموجب القانون، الشرطة صديقكم! تعاونوا مع قوات أمن مدينة اسطنبول، من أجل سلامتك!».

ألقي نظرة على كل ركن من أركان الشقة، بسرعة أكبر بأربع مرات من قدرة الإنسان. لم يكن هناك خطر في الأفق. كان قد خضع لصيانة إلزامية، مثل جميع أقرانه؛ لأن روبوت مُعطّلًا من طراز إيه آر، كان قد طلق الرصاص على طفل كان يرمي كوبًا عليه، في مسرح جريمة آخر الشهر الماضي، وقد تمّ تقليل حساسية إعدادات الأمان الخاصة به بشكل طفيف، ومع ذلك، كان طرف البندقية الآلية مثبّتًا على

الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة، وكانت حواسه تولي اهتمامًا وثيقًا للتهديدات التي قد تأتي من هناك. وفقًا للإحصاءات التي حسبها في ثانيتين، بناءً على مساح الجريمة القديمة المحفوظة في ذاكرته، كان احتمال وجود شخص يحمل مسدسًا يختبئ في الغرفة أكثر من سبعين بالمائة.

لم تستطع مقاييس الحرارة اكتشاف أي علامات تدلُّ على وجود حياة خلف الجدران، لكنه كان يعلم أن المسلَّحين يمكنهم ارتداء ملابس مقاومة للحرارة لتجنُّب مثل هذا الفحص؛ لهذا اقترب من الباب ببطء، وأخذ حذره، ومن ناحية أخرى، فإن الشخص الذي كان ينتظره في الخارج بشغف، أبلغ الشرطة.

«ليس هناك ما يشير إلى صراع في القاعة، كل الأشياء موجودة في مكانها، لا يوجد دمٌّ أو جزء من الجسم مرئيًا، ولم يتمَّ الكشف عن قتابل أو شِراك، توجد غرفة واحدة فقط في المنزل مُتَّصلة بغرفة المعيشة، يذهب إليه آر 43 إلى الداخل لفحص الغرفة».

بينما كان أحمد يشاهد الصور التي التقطتها كاميرا الروبوت على الشاشة الموجودة على ذراعه، رأى أن المنزل كان مؤثَّنًا بشكل أنيق للغاية، كانت الشقة الموجودون فيها واحدة من أكثر الأماكن الرائعة في ميجا تاور، حيث يعيش الأثرياء، لقد دخل منازل العديد من الأغنياء في مناسبات مختلفة من قبل، ولم يصادف مثل هذا الذوق الجميل، ألوان الجدران الفاتحة التي تبعث على الهدوء، والزخارف المختارة بعناية، وإطلالة الطبيعة الرائعة على الشاشة التي تغطي الجدران من طرف إلى آخر، تداعب الروح بشكل فرديٍّ وكُلِّيٍّ، وُثْرًا من الكريستال أنيقة معلَّقة من السقف، لا يمكن العثور عليها إلا من قِبَل الأشخاص المهتمِّين بالتاريخ، داخل إطار صورة عتيق مُزخرف بالزهور، تتألَّق صور ثلاثية الأبعاد لأصحاب المنزل، رجل وسيم،

وامرأة مبتسمة جميلة، وصبي لطيف يعانقهما بكلتا ذراعيه من أرجلهما، انعكس الإطار على الشاشة لبضع ثوانٍ فقط، لكن لم يكن من الصعب قراءة حُبهم الصادق لبعضهم البعض، على وجوههم، كان الناس الذين يعيشون في هذا المكان سعداء، إذا كان التقرير الذي تلقّوه خاطئًا، فسيكون إليه آر 43 سعيدًا، لو وجد تلك الغرفة فارغة عند دخوله إليها.

بعد فتح الباب جزئيًا، أجرى الروبوت الأمني مرّةً أخرى تقييماً سريعًا للتهديد، وبدا أنه لا داعي للبقاء بالخارج، أو إطلاق رصاصة في الداخل، دفع ساقه الفولاذية المقوّاة من الصُّلب للداخل، وضغط بكتفيه على الباب، وفتحه على مصراعيه، وبعد أن انتقلت كاميرته من جدار إلى آخر، ركّز على السرير الموجود في منتصف الغرفة.

تجمّد أحمد بسبب المشهد الذي رآه على الشاشة، واتّسعت عيناه، واستقرّ ثَقُلُ في بطنه، وجشأ كما لو كان يتقيًا، ملأ الشعور بالألم والتمردُ كيانه كله، أراد أن يَلْغَمَ شخصًا ما، وأبدى رجال الشرطة الآخرون الموجودون معه ردود فعل مُماثلة، وأثناء محاولتهم استيعاب المشهد الكارثي الذي شاهدوه، بدأ إليه آر 43 في تسجيل ونقل المشهد الموجود أمامه بصوتٍ هادئٍ وساكن، كما لو كان يصف كيف تمّ تأييث الغرفة.

«هناك ثلاثة أشخاص في غرفة النوم، ربما تكون الأسرة التي تعيش في هذا المنزل، يجب دراسة هذه المسألة من قِبَل خبراء بشريّين، رجل وامرأة وربما طفل، أجسادهم محترقة بدرجة كبيرة للغاية، ووجوههم لا يمكن التعرف عليها، الرجل المقتول جالس إلى اليمين، والمرأة المقتولة جالسة على اليسار، أمّا عن الشخص المفترض وجوده بينهم، فهو الطفل، يبدو أن المرأة وكأنها تنحني على الطفل، ربما لحمايته، أمّا الرجل فقد عانق الاثنين الآخرين، وحاول أن يحميها بجسده، لا يمكن

تحديد دليل على كيفية حرقهم، احتمال قتلهم بنسبة تسعة وثمانين بالمائة، وفقاً لشكل وقوفهم، فإن احتمال تعرضهم للحرق أحياء هو ثمانية وسبعون بالمائة، لا يبدو أن هناك أي دليل على هوية أو عدد القتلة، ولم يتم إثبات أنه كان هناك عنصر تهديد للموظفين في مكان الحادث، قد يتم انتقال مُحققَي مسرح الجريمة ورجال الشرطة إلى الداخل، قام إيه آر 43 بتسليم صلاحياته الخاصة بالمهمة لهم».

### 3

بينما كان يسبح بين السحاب، قام كمال بفتح ذراعيه على نطاق واسع، وكأنه يريد احتضانه، وأثناء قيامه بذلك، اعتقد أنه لم يعانق أحدًا لفترة طويلة، وأنه لم يشعر بمثل هذه الرغبة تجاه أي رجل أو امرأة لسنوات، كان يشعر بالحزن عندما يتذكّر مثل هذه الأشياء، وكان يتوق إلى الأوقات التي يشعر فيها بأنه شخص عادي، لكنه لم يُكَلِّف نفسه عناء ذلك لفترة طويلة، يبدو أن قبول أنه سيكون بمفرده حتى وفاته، يُضعِف من حاجة المرء إلى الحب والمحبة، كان يحب الريح الباردة التي تداعب خديّه، وتُذكّره بالذكريات الجيدة منذ زمن بعيد، تلك الأيام المبهجة التي كان لا يزال يحلم فيها بمشاركة حياته مع شخص ما، ثم خطر له سبب ارتفاعه إلى هذه الدرجة، كان يجب عليه الابتعاد عن الأفكار السيئة، والتركيز على اللحظة التي يعيشها؛ فهو بحاجة إليها مثل التنفّس.



لم يفكر في أي شيء لبضع ثوانٍ، وحاول تصفية ذهنه تمامًا، وفي اللحظة التي نجح فيها رُفِعَ عنه ثِقَلٌ، لم يشعر بهذا الشعور الجيد منذ وقت طويل، بين الحين والآخر، كانت الطيور تمرُّ بجانبه، طيور النورس البيضاء، والحمام الأسود، والعصافير الصغيرة، ولا يبدو أنها منزوعة من مشاركة هذا الضيف الدخيل في السَّماء معهم، لقد طار عدة مرات من قبل، لكنه لم يصعد أبدًا إلى هذا الارتفاع، كان قلبه ينبض أسرع من المعتاد، كان ذلك ممتعًا بالنسبة له، لم تكن الشمس في الأفق، وربما كانت مخبأةً خلف الغيوم، مضيئةً احمرارًا حلواً إلى السماء في الأفق، وضرب دفء لطيف على جبهته، على عكس برودة الريح.

بعد فترة، شدَّ يديه معًا، وجذب ركبتيه إلى بطنه، واتَّخَذَ وضْعًا، كما لو كان سيدور في الهواء، ويغوص في البحر، بدأ في النزول بسرعة، وتزايدت الإثارة في قلبه، مع زيادة سرعته، وأبنية المدينة الملونة، والسيارات التي تشبه النمل، والحدائق الواسعة المليئة بأشجار الدُّب، والحدائق المزينة بالزهور، وأحواض الزينة التي تشبه اللائى الزرقاء، والتي وكأنها كانت تزداد وضوحًا مع مرور كل ثانية، يجب أن يكون هبوطًا مثاليًا، وإذا انزلق قليلًا إلى اليمين أو اليسار من نقطة هدفه، فسوف يغوص في الأرض، ومع ذلك، لم يشعر بأي خوف، فقد كانت روحه في سلام، كما لو كان يسير في الحديقة في صباح يوم أحد هادئ، ترى كم كيلومترًا في الساعة كانت سرعته الآن؟ ربما يمكنه التَّنَافُس مع طائرة مقاتلة متوسطة المدى، التفكير في الأمر منحه السرور، وانتشرت ابتسامة عريضة على وجهه.

في غضون ثوانٍ قليلة فقط، نزل عبر الغيوم إلى مستوى سطح البحر، كان في منطقة ذات كثافة عالية من المنازل المكوّنة من ثلاثة طوابق مع الحدائق، وكان معظمهم من الأزواج الشباب يجلسون على مقاعد في الشوارع، كان الجميع مستغرقًا في حياتهم الخاصة، وفي

هذه اللحظة، لم يجذب الرجل الذي ينزل من السماء مثل الحرّبة انتباههم، أخذَ نفَسًا عميقًا، وأغلق عينيه بشكلٍ لا إرادي، قبل أن يغوص في بركة مُحاطة بالخضرة، شعر بجسده يرتجف عندما ارتطم بالماء، وأغرقت المياه خديّه، لكن البرد الذي يحيط به من كل جانب فاق كل المشاعر الأخرى، كان يرتجف من رأسه إلى قدمه، كما لو كان مُحاطًا بكتلة من الجليد، واستغرق جسده بضع دقائق حتى يعتاد على ذلك، وعندما تمكّن من التنفّس بحرية مرة أخرى، فتح عينيه، وتعجب من المناظر الهائلة المحيطة به.

في قاع هذه البركة الصغيرة، كانت هناك نباتات غنية لا يمكن رؤيتها إلا في أعماق المحيط، لقد كان أكثر بريقًا من العالم الخارجي، وكانت مئات الأسماك من نفس التنوع، كبيرها وصغيرها، تتجول بين نباتات من ألف لونٍ وشكل، وبَدَت الصخور المطلية باللون الأصفر الذهبي، أو المغطاة بالطحالب الخضراء، وقنافذ البحر الأرجوانية، وشقائق النعمان ذات الأوراق الوردية- وكأنها خرجت من قصة خيالية، كان من المريح مشاهدة أسراب سمك أبي مهماز، وهي تنزلق مثل البَجع فوق الشُّعاب المرجانية، وبدا أنها تتحرّك في حركة بطيئة، وكان من الواضح أنها لم تكن في عجلة من أمرها من أجل الحياة، سبح في الأنحاء، وتناول طعامه وحده، ثم لاحظ سمك الحوت الأبيض الصغير يتجول من بعيد، وتوجّه إلى هناك، لقد بدا وكأنه حيوان مرح، سيكون من الممتع الإمساك بذيله وجرّهُ، كان على وشك مدّ يده وحمله عندما تجمّدت الحياة من حوله فجأة، اختفى الحوت الصغير، والأسماك المتنوعة، والنباتات الملونة والشُّعاب المرجانية، والمياه التي كان يسبح فيها، واحدةً تلو الأخرى، وكل ما كان يراه هو الوجه المبتسم لرجل عجوز يرتدي ربطة عنق.

لقد تدخّل الكمبيوتر المنزلي الذي يحمل علامة «ناتوكين»، والذي أطلق عليه كمال اسم «محيي الدين أفندي»، في برنامج محاكاة

المضيف، كما تمَّ الترتيب له، وعندما رنَّ جرس الباب، جاء ليخبره أنه كان لديه ضيوف.

قالت صورة الرجل العجوز بصوت لطيف: «أنا آسف لإزعاجك يا سيدي... هناك أربعة أشخاص عند الباب، وقالوا إنه من طرف تورامان، أحد عملائك من الخاصين المسجّلين في النظام، وإلا فلم أكن لأقاطع مرحك، أعلم أنك عادة لا تقبل الزوّار هذا الشهر، لكنك قلت اسمح لي أن أعرف مَنْ جاء من خلال مراجعي».

تمتم كمال قائلاً: «أعرف، أعرف»، وهو غير مرتاح بشأن العودة إلى العالم الحقيقي، كان لا يزال يسبح في المياه الباردة مع الحيتان التي انقرضت منذ سنوات، وقال: «أعطني بضع دقائق، أرفّه عنهم».

بتنهيدة عميقة، جلس على سرير المحاي، جالسًا القرفصاء، في البداية، نزع الخوذة الموجودة فوق رأسه، ثم تخلّص من الأسلاك التي كان قد وضعها في ذراعيه وساقيه، بالكاد تمّت إزاحة أحد الأسلاك الموجودة في كاحله، تاركًا بقعة قرمزية على جلده، تمّدّ وفتح ذراعيه، وأحدثت رقبتة صوتًا مثل الطقطقة، وعندما وطأت أقدامه الأرض الدافئة، نظر إلى الساعة التليفزيونية الموجودة على معصمه، وكان ذلك في وقت الظهيرة تقريبًا.

وخطب محيي الدين أفندي قائلاً: «أعتقد أنهم ليسوا مُسجّلين في نظام «مَنْ بالباب»... ما اسمهم، هل قالوا؟ يُرجى إعادة توجيه صورهم إلى ساعتى التليفزيونية، دعونا نرى من هم، ربما يمكننا التخلّص منهم».

لم يعد بإمكانه رؤية وجه الرجل العجوز؛ لأنه نزع الخوذة، هذه المرة جاء صوت الحاسوب من مكبّرات الصوت الموجودة في الغرفة.

«قدّمت السيدة نفسها على أنها السيدة جول، ولم يكشف السادة عن أسمائهم. هل تريد مني أن أسأل مرة أخرى؟».

ابتسم كمال قائلاً: «ربما ليس لديهم اسم يستحق الذكر. انس الأمر، لا تقلق، سأتعامل معه».

ألقى نظرة خاطفة على الصورة التي تظهر على ساعته التليفزيونية، وهو يرتدي ملابسه بسرعة، كانت السيدة جول امرأة في منتصف العمر، ترتدي ملابس أنيقة للغاية، وكانت تبدو جذابة حتى على الشاشة الصغيرة، بدا الرجال، اثنان على يمينها ويسارها، وواحد يقف خلفها، يكادون يبنون جداراً حولها، وكأنهم حُرَّاسُ شخصيَّون محترفون، كانوا يرتدون بدلات، وستراتهم المنتفخة أَكَّدَتْ أن هناك بندقية طاقة واحدة على الأقل تحتها، ضغط على الأزرار الموجودة على شاشة ساعته التليفزيونية، ولعب بالذراع الصغيرة، مُغيِّراً زاوية كاميرا الباب، فأظهرت السيارة «البرَّ جَوِّيَّة» التي هبطت على سطح بيت مكتبه، كانت مرسيدس أحدث طراز، ذات ثمانية مقاعد، وكانت كلمة «بوينج» مكتوبة في فتحات مراوحها المطوية لأعلى، وقد استوعبها سطح البيت بالكاد، بأجنحتها العريضة، كان كل هذا كافياً لفهم أن السيدة جول كانت ثريَّةً للغاية، وحقيقة مجيئها بناء على مشورة علي تورامان، محطَّم الرقم القياسي في دفع الضرائب في اسطنبول خلال العامين الماضيين، جعل كمال يتساءل عن حدود هذه الثروة.

قال لمحيي الدين أفندي: «من فضلك اصطحب ضيوفنا إلى غرفة الانتظار وأخبرهم بأنني سأحضر بمجرد أن أكون جاهزاً، دَعِ الإنسان الآلي المنزلي يُقدِّم لهم ما يريدون، دعه يُعدُّ قهوةً تركية سادة لي، بسرعة، ويتركها في غرفة المحاكاة، وسأعود إليك بعد كل ذلك».

”تحت أمرك يا سيدي، أتمنى لك اجتماعات جيِّدة. طاب يومك».

ضغط على أزرار الساعة التليفزيونية مرة أخرى، وبدأت ستائر الغرفة المظلمة في الانزلاق ببطء، في البداية، تفاجأ كمال بقِلَّة الإضاءة،

ثم لاحظ مرور المنطاد الإعلاني بجانب النوافذ، تمَّ عرض مقطع فيديو ترويجي لكريم مضاد للشيخوخة تمَّ إصداره حديثًا على الشاشة أسفل المنطاد، بدا وجه المرأة في الإعلان أبيض مثل الميت عند وضع الكريم، لذلك لا يمكن القول إنها كانت جذابة للغاية، عندما انتهى الفيديو، غُطِّيت الشاشة بالوجه الوسيم لحمزة بوردورلو، الذي كان رئيسًا لجمهورية اسطنبول للفترة الثالثة الأخيرة، كان السياسي الشاب يتحدث عن أشياء بنبرته الحماسية المعتادة، وربما كان يلقي خطابًا حول الانتخابات المقبلة، كان عليه فقط تشغيل القناة الأولى لجهاز استقبال الأقمار الصناعية في المنزل للاستماع إلى ما سيقوله، ولكن بالنظر إلى أن نفس الحزب قد تولَّى إدارة المدينة لمدة خمسة وستين عامًا، ولم يكن لديه منافس قويٌّ في هذه الانتخابات؛ لم يكن لديه الحماس للقيام بذلك.

عندما ابتعد زيبين عن المكتب، امتلأ المكان بضوء النهار، زَرَّ كمال عينيه، ونظر إلى الأبراج الضخمة الرائعة، التي ترتفع من بعيد، والملوّنة باللونين الرمادي والأسود، ومعظمها كان له نفس الهندسة المعمارية، ومئات من السيارات «البَرَّ جَوِّيَّة» تُحلّق بين هذه الأكوام المعدنية، لقد اشتاق إلى المتنزهات المليئة بأشجار الدُّلب، والحدائق الملوّنة، والمنازل، والطيور الصغيرة اللطيفة الموجودة في المحاكاة، وأراد أن يمسك بذيل هذا الحوت الصغير في أسرع وقت مُمكن.

قال وهو يدخل غرفة الانتظار: «آسف لجعلك تنتظرين»، كان فحص الحُرَّاس له بأعين استجواب، وذهاب أيديهم بشكلٍ لا إرادي إلى مسدساتهم الموجودة تحت ستراتهم، هو رَدُّ الفعل الذي توقَّعه، أمَّا المرأة الموجودة أمام النافذة، والتي تراقب في الخارج، وظهرها إلى الباب، لم تُغيِّر من وقفها لبضع ثوان، ثم استدارت بهدوء، وابتسمت لكمال، قائلة:

”لا يهْمُ، سيد كمال، أنا حقًّا آسفة لإزعاجك، بينما كنت أنتظرِكَ أَلقيت نظرة حولي، سمعت أنك شغوف بالماضي، لكنني لم أكن أتوقَّع هذا كثيرًا، لديك مجموعة مذهلة هنا».

نظر كمال إلى الزاوية التي كانت المرأة تشير إليها، كان هناك يَظَنُّ (١) من العصر العثماني، وطبق خزفي ملوَّن مُعلَّقَيْن على الحائط، أسفلهما مباشرة كان هناك إبريق مُطرَرز وصورة قديمة لاسطنبول في إطار خزفي، من القرن العشرين، وفي الصورة كانت تظهر بواخر بيضاء تبحر في مضيق البوسفور، في الزاوية نفسها، كانت هناك طاولة خشبية صغيرة، يصعب العثور عليها هذه الأيام، لا بُدَّ أن عمرها ثلاثة قرون على الأقل، وكان فوق طاولة القهوة جهاز آيفون، تَمَّ إيقافه منذ سنوات عديدة، في صندوق زجاجي، كانت أجهزة الآيفون هذه تحظى بشعبية كبيرة، وقد تَمَّ تناولها بإسهاب في دروس تاريخ التكنولوجيا، قبل انتشار الساعات الهاتفية والهواتف التي توضع داخل الأذن على نطاق واسع، وبجانبه مباشرة كان هناك كتاب سميكَ، ومهترئ، كُتبت عليه «الحروب البحرية العثمانية» بأحرف مُزَخرفة، وعلى غلافه توجد صورة سفينة بثلاثة أشرعة، مدافعها تزمجر، وهي تتصارع مع الأمواج، والبرق الذي يَمُرُّ في السماء في الأفق.

قال كمال وكأن الأمر لم يكن بالأمر المهم: «أحب أن أجمع أشياء من الماضي»، «أعتقد أن الناس كانوا أكثر سعادة في تلك الأوقات، وربما لم يكن الأمر كذلك، فكل حقبة كانت تعاني من مشاكلها الخاصة، لكنني أحب أن أتخيَّل أنه كان هناك في يوم من الأيام أشخاص أكثر سعادة منَّا، هناك عدد قليل أكثر تحت القفل في الداخل، أنا لا أعرض الأشياء الهَشَّة للغاية».

---

(١) اليتقان: سيف تركي محدَّب. (المترجم)

"هذه كلها مقتنيات نادرة جدًا، ولا بُدَّ أن كلاً منها يساوي ثروة، أنا أحب بشكل خاص طاولة القهوة هذه! أعتقد أنك تكسب جيدًا».

اعترف كمال، قائلاً: «أكسب جيدًا، لكنني لم أدفع مقابل أي منها، معظمها هدايا من العملاء الأثرياء الذين أساعدهم، ووصل عدد قليل منهم إلى يدي أثناء القضايا التي كنتُ أعمل فيها، لن تضطرَّ إلى تسليم كل ما تجده، ما لم تقدِّم تقريرًا مباشرًا إلى الشرطة».

ضحكت المرأة، وكأنها مدركة لما يقول، وقالت:

"سمعت أنه يمكنك تعديل القواعد، هذا شيء يجب أن أفعله كثيرًا، إذا كان لدى أيِّ شخص أحلام يقدرها، فعليه أن يتغلَّب بطريقة ما على العقبات التي تعترض طريقه».

سألها كمال فجأة، قائلاً: «لماذا أنتِ هنا، أيتها السيدة جول؟»، كان قد شعر بالحاجة إلى إنهاء هذه المحادثة بسرعة، والعودة إلى غرفة المحاكمة.

أجابت قائلة: «أنا بحاجة إلى مُحقق خاص، كما تخيَّلتَ، وكان عليّ قد أخبرني أنك لا تعمل في هذه الأشهر من العام، لكنني لا أعرف شخصًا آخر أذهب إليه، عَلِمْتُ من علي، ومصادر أخرى، أنك ستكون الشخص المناسب لهذه المهمة، أردتُ فقط أن أجرب حظي، فقط في حالة موافقتك على أن تقطع إجازتك».

قال كمال: «السيد علي هو أحد عملائي المحترمين، لقد ساعدته في حلِّ بعض مشاكله، أنا سعيد لأنه نصحك باللجوء إليّ، كما قلتُ، أنا لا أعمل من حيث المبدأ خلال هذه الأشهر، ومع ذلك، أودُّ أن أقدم أفضل ما بوسعي لأصدقاء السيد علي، دعينا نجلس، وأخبريني عن

مشكلتك، على الأقل سأوجِّهُكِ إلى الأشخاص المناسبين الذين يمكنهم المساعدة».

جلست السيدة جول على كرسي نصف كروي أشار إليه الشاب، ووضعت ساقاً على ساق، كانت ثقة المرأة بنفسها واضحة في كل تحركاتها، وبدت وكأنها شخص لا يتردد في مواجهة العالم كله، كانت ملامح وجهها وجسمها ساحرة للغاية، عند النظر إليها عن قرب بهذا الشكل، لا بُدَّ أنها كانت جذابةً تمامًا للرجال في فئتها العمرية، خمن كمال أن زير النساء العجوز علي تورامان كان أيضًا تحت تأثير هذا السحر.

قالت السيدة جول بابتسامة جذابة: «لا أريدك أن تنصحني أو تُوجِّهني إلى شخص ما، أجد أنه من المفيد جدًا التعامل مع هذه المشكلة بنفسك، إنها مسألة شخصية مهمة جدًا بالنسبة لي، أنت فقط من يمكنه مساعدتي... تأكد من أنني سأعطي جميع نفقاتك، فقط قل لي الرقم الذي سيقنعك».

تنهد كمال بعمق، كان موجوداً في برجٍ ضخمٍ يُفضِّله أغنى الناس في اسطنبول، يكلف إيجار مكتب في الطوابق العليا ثروة صغيرة، كانت موارده المالية على حافة الهاوية مؤخراً، حيث كان يقضي حوالي أربعة أشهر دون عمل كل عام، ولم تسمح له التقارير الأسبوعية لمحيي الدين أفندي بنسيان هذه الحقيقة المقلقة، قد تساعده المهمة ذات العائد المرتفع كثيراً هذه الأيام، ولكن ليته يستطيع أن يحلَّ كل مشاكله بالمال.

ابتسم، دون أن يعكس أفكاره في نظرتة أو كلماته، وقال:

"أنا متأكد من أنك ستقدمين عرضاً سخياً، لكنني لا أعتقد كثيراً أن ذلك سيكون ممكناً، أنا لا أعمل مطلقاً خلال هذه الأشهر، أحب



أن أعيش وفقاً لمبادئ، ومع ذلك، من فضلك قولي لي بالتفصيل ما حدث، ثم سنتحدث عما يمكنني فعله من أجلك».

هزّت السيدة جول رأسها بطريقة يمكن أن تنجذب إلى أي معنى، وفعلت إشارة بيدها إلى أضخم الحُرَّاس الواقفين بجانبها، مشى الرجل ناحية كمال، وسلّمه جهازاً لوحياً بأربعة أضعاف حجم كَفِّ اليد، كان قد أخرجه من جيب سُترته، أخذه كمال مع الشكر وفتحه، جاعلاً الجهاز اللوحي في حجمه الطبيعي، ولمس زِرَّ اللمس عليه بطرف إصبعه، لقد فزع بسبب الصورة المقرّزة التي ظهرت فجأة على الشاشة.

تجهّم، وقال: «ما هذا!»، ووجّه نظراته المتسائلة، إلى السيدة جول.

قالت المرأة بغضبٍ حاولت كَبَّتْه: «هو وعائلته أعزاء عليّ»، كانت تحتفظ بأصالتها، ولكن نظرة سامة استقرّت في عينيها.

"أخذوهم مني يا سيد كمال، وبأكثر الطُّرُق إيلاًماً... أريدك أن تجد المجرمين الذين فعلوا هذا، لن تحتاج إلى أن تلوّث يديك، لا تقلق، فقط اكتشف أين يختبئون، هذا يكفي، سأعاقبهم شخصياً».

نظر كمال إلى الجهاز اللوحي مرة أخرى، ظهرت على الشاشة ثلاث جُثث تعانق بعضها البعض، ومعظم جُثثهم محترقة، بينهم امرأة ورجل وطفل، كانوا جالسين على سرير، انحنى الرجل والمرأة على الطفل كما لو كانا يرغبان في حمايته، وعندما وقفوا هكذا، تمّ حرقُهم أحياء، كان الأمر كما لو أنه يشم رائحة الجثث المحترقة التي لا تطاق في الغرفة.

نقر على الزرّ مرّةً أخرى، هذه المرة تحوّلت الصورة إلى فيديو، كانت امرأة طويلة القامة ذات لون قمحي تطهو بمرح، وتمزح مع الشخص الذي يحمل الكاميرا، بدت سعيدة للغاية، ولكن ما يتحدثون عنه كان غير مسموع، ثم دخل صبي يبلغ من العمر سبع أو ثماني

سنوات، وشعره إلى كتفيه، إلى المطبخ، وركض، وعانق ساقها، وبدأ يقول أشياء وهو يصرخ، كانت الكاميرا تصوّر امرأة وطفلاً يقتربان من حين لآخر من الطعام على الطاولة، ثم مدّت المرأة يدها، وأمسكت الكاميرا بالقوة، وظهر رجلٌ وسيمٌ على الشاشة، انحنى الرجل، وأخذ الطفل بين ذراعيه، ثم ذهب ليقبّل المرأة على الأرجح، وانتهى الفيديو في تلك الثانية.

تمتّت السيدة جول بحزن: «لقد كانوا عائلة رائعة... وكانوا مفعمين بالحب، زينب وأورهان وابنهما الوحيد جهان، عملت زينب معي لسنوات عديدة، تعرّفتُ عليها عندما كنت لا أزال في الجامعة، كان لديها ذكاء فريد، أعتقد أنها كان عبقرية، وبمرور الوقت، أصبحت ذراعي الأيمن، وكنتُ أستشيرها في جميع القرارات المهمة، كان قلبها أكبر من عقلها، أحببتها مثل ابنتي...

لم يكن لديّ عائلة يا سيد كمال، توفّيت والدي عندما كان عمري عامين فقط، لقد نشأت وأنا لا أعرف مَنْ هو والدي، وتجوّلتُ بين الأسر الحاضنة، حتى الكلّية، لقد عشت حياة مؤلمة طوال حياتي، وتبنّيتُ زينب وعائلتها كعائلتي، كنّا جميعًا معًا في أيام العطلات وأعياد الميلاد، وكنتُ معهم في المستشفى عندما وُلد جهان، وكنتُ سعيدة كما لو كان حفيدي، كانوا نوري في هذا العالم المظلم.

خطفوههم مني، لا أعرف لماذا، كل ما أعرفه أنهم لم يستحقّوا هذا، أريد أن يموت، مَنْ فعلوا ذلك، الصورة التي رأيتهما للتوّ هي صورة التقطها أول إنسان آلي للشرطة يقتحم منزلهم، لقد أنفقتُ ثروة من أجل الحصول عليها، وعلى غيرها من الأدلّة التي كانت لدى الشرطة، وأنا مستعدّة أيضًا لدفع المزيد، مع الأسف، وصل تحقيق الشرطة إلى طريق مسدود، ولم يصلوا إلى أي مكان، وقد فُقدت الأدلّة في الإجراءات...».

كان صوت السيدة جول يزداد صلابة وهي تتكلم، وأصبح التعبير البارد والمخيف على وجهها، أكثر قتامةً.

بمرور الوقت، تُمحي آثار القتل، وإذا تأخّرنا قليلاً، فلن نجدهم أبداً، لقد جئت إلى هنا عندما سمعت أنك خير بهذه الطُرُق المختلفة، من الآن فصاعداً، لا أريد إضاعة الوقت في القوانين والإجراءات، لا أحد يستطيع أن يأخذ أحبائي مني! إذا أخذهم مني، فسوف يدفع الثمن مضاعفاً! اعثرُ على هؤلاء المجرمين، يا سيد كمال، وسأعطيك أكثر ما تريده في حياتك».

نظر كمال إلى المرأة التي تبَلّلت عيناها بحزن شديد، وقليل من القلق، لقد أيقظ مقطع الفيديو العائلي السعيد هذا الشوق الذي حاول قمعه، كان يريد من كل قلبه أن يدفع هؤلاء الشياطين الذين قتلوا هؤلاء الأبرياء وطفلاً صغيراً، بوحشية، ثَمَنَ ما فعلوه، ومع ذلك، كانت كلمات المرأة تتخطى الحدود، التي لن تتجاوزها ما لم تكن مضطراً إلى ذلك.

تمتم بلا حولٍ ولا قُوّة وهو يعيد الجهاز اللوحي إلى الرجل الضخم، الواقف بجانبه، قائلاً:

أنا آسف جداً لما حدث، أستطيع أن أتفهّم غضبك، أولئك الذين فعلوا هذا يجب أن يُعاقَبوا... إن حرق أُسرَةٍ على قيد الحياة أمر شنيع، سأحيلك إلى أفضل مُحقق خاص أعرفه، تيمور ياووز، ربما سمعت اسمَه، أنا متأكّد من أنه سيسعد بتوليّ المِهْمَة، إنه بارعٌ جداً، ودائرتَه واسعة، وسيجد هؤلاء البرابرة وحتى لو بالقانون، أتمنّى أن أكون أكثر فائدة، كنتُ أرغب في أن أساعدك بشكلٍ أفضل، لكنني كنتُ جاداً فيما قلته للتوّ، لا يمكنني حقّاً العمل خلال هذه الأشهر».

"لا أعتقد أن السيد تيمور ياووز يمكنه مساعدتي، في الواقع، إذا اعتقدتُ أن ذلك سيكون مفيداً لكُنْتُ قد كَلَّفْتُ جميع المحقّقين

الخاصين في المدينة في نفس اللحظة، ولديّ ما يكفي من المال لذلك، لكن ذلك لن يفيد يا سيد كمال، أنا بحاجة إليك بشكل خاص، أو بالأحرى، ماضيك الخفي، واتصالاتك».

قطب كمال جبينه بتعبير منزعج، قائلاً:

"إلام تُلَمِّحين؟ لم أفهم؟".

قالت المرأة: "لا تفعل ذلك يا سيد كمال، هل تعتقد أنني شخص لن يحقق في كل التفاصيل عنك قبل أن يطرق بابك في مثل هذا الأمر؟ لقد مَحَوْتُ آثارك جيداً، أهنئك، لكن ماضي الشخص لا يُمَحَى تمامًا".

نهض كمال من مقعده، وأظهر لها الباب بإيماءة غاضبة، كان مزاجه مرتبكاً، وشحب وجهه، واستقرت نظرة خوف في عينيه، وقال: "أنا حقاً لا أستطيع أن أفهم ما تحاولين قوله، الماضي الخاص بي هو عمل لا يهم أحداً سواي! لقد استمعتُ إليك بصبر حتى الآن، وأنا آسف حقاً لخسارتك، لكن الآن أنا مضطراً إلى أن أطلب منك المغادرة، لديّ جدول أعمال مزدحم ومواعيد أخرى!".

هرع الحُرَّاس لعمل جدار أمام السيدة جول، لكن إيماءة من يد المرأة ثبَّتَتْهم جميعاً في أماكنهم.

قالت جول: «لا داعي للقلق، من فضلك حافظ على هدوئك، كل شيء على ما يرام، لست في خطر، سرُّك هو سرِّي أيضاً، سيذهب معي إلى القبر، المصادر التي استخدمتها للحصول على هذه المعلومات هي مصادر لا تحبُّها الدولة والشرطة؛ لهذا السبب لا يمكنني مشاركتها مع أي شخص حتى لو أردتُ ذلك، يمكنك التأكد من ذلك».

نظر إليها كمال بتردد، ثم جلس في يأس.

أمرت المرأة حُرَّاسها بصوت هادئ واستعادت هدوءها السابق،  
وقالت:

"يا رجال، من فضلكم اتركوني وحدي مع السيد كمال لبعض الوقت، أنا متأكدة تمامًا أنه لن تكون هناك مشكلة، يمكنكم الانتظار أمام السيارة «البرَّ جَوِّيَّة» في سطح البيت".

غادر الرجال الغرفة واحدًا تلو الآخر دون أي اعتراض، ولم يتجاهل آخرٌ مَن غادر إرسالَ نظرة تهديد إلى كمال، الذي كان يراقبه، وهو يدير رأسه.

عندما كانا بمفردهما، انحنى المرأة إلى الأمام، وأخرجت صندوقًا بحجم كف اليد من حقيبتها الفاخرة المزخرفة بالذهب، ووضعتها على طاولة القهوة أمامها، وقالت:

"أنا واثقة من وجود أنظمة في مكتبك تمنع الاستماع من الخارج، ولكن هذه أحدث تقنية، هي موجودة فقط لدى المنظمات الاستخباريّة، باستثناء عدد قليل من الأشخاص المحظوظين مثلي، كُن مطمئنًا أنه لن يتمكن أحدٌ من سماعنا أثناء وجودنا معًا".

تمتم كمال، قائلاً: «أنتِ مليئة بالمفاجآت! لا يبدو ذلك مطمئنًا جدًا». ما الذي كانت تفعله هذه الأداة الرائعة لدى هذه المرأة؟  
ابتسمت السيدة جول للتو، وقالت:

«أعرف كل تفاصيل تاريخك فيما يتعلق بحركة المساواة في اسطنبول، ولا أشعر بأي إزعاج حيال ذلك، نحن نعيش في عالم مجنون، ومن الطبيعي أن يكون هناك متفاعلين مع هذا العالم، كان هناك رومانسيون مناهضون للنظام في كل فترة من التاريخ، وسيظل هناك دائمًا، يمكنني أن أفهم، بل وأحترم أنك راودتكَ هذه الأفكار في إحدى الفترات، أنا أحب الأشخاص المثاليين، وأنا أعيش أيضًا من

أجل مُثلي، ربما تكون أحلامنا مختلفة، لكنهم وأنا نريد تغيير العالم الذي نعيش فيه، نحن بحاجة إلى أكثر ممّا لدينا، السبب الرئيسي في مجيئي إليك، هو ماضيك، هذا، لأنني أعتقد أن أولئك الذين أخذوا أصدقائي مني لديهم صِلَة بحركة المساواة في اسطنبول. لديّ ما يكفي من الأدلّة لتصديق ذلك».

وانحنى إلى الأمام، ونظرت بعمقٍ في عيني كمال، كان هناك شيء ما في تلك النظرة، يجعل المرء يرتجف، ويعتريه القلق، كان الأمر كما لو كانت تقرأ روحه، وترى مخاوفه وتردّداته، وقالت:

"لا أعتقد أن قادة حركة المساواة في اسطنبول على دراية بما يجري، فليس من أسلوبهم قتل عائلة بريئة، توجد حلقة مفقودة في المنتصف بشأن المعلومات، أريد منك أن تتواصل مع زملائك المقاتلين، باستخدام صلاتك القديمة، أعطهم الأدلّة التي وجدتها، وأخبرهم بما حدث، وسيهتمون بالباقي بأنفسهم، لا يوجد مُحقِّق خاص آخر في المدينة يمكنه فعل ذلك، ويمكنك أن تدرك أن الشرطة لا تستطيع فعل ذلك أيضًا. أحتاجُكَ حقًا».

قال كمال بصوت ضعيف: «وأنا لا يمكنني ذلك أيضًا». أرهَبته إرادة المرأة الموجودة أمامه، والمصادر الغامضة للمعلومات، كان خائفًا من الألم الذي بدأ يشعر به في منتصف حاجبيه، تُرى هل سيأتي الألم صديقه الوفي اليوم أكثر من أي وقت مضى؟ بشكل عام، لم يكن التعذيب يبدأ قبل ساعات المساء، كان يأمل أن يكون مُخطئًا.

قال كمال: «لا أعرف مدى علمك، ولكن إذا كنتِ تعرفين كل التفاصيل، كان يجب أن تعلمي أنه لا يمكنني التواصل مع حركة المساواة في الوقت الحالي، وأنتي قطعت الاتصال بهم منذ سنوات. إنهم ليسوا أشخاصًا يمكنك أن تجديهم في دليل الهاتف، لا أستطيع حتى معرفة ما إذا كان الأشخاص الذين كانوا أصدقائي منذ سنوات

ما زالوا على قيد الحياة اليوم، لا أستطيع حقًا مساعدتك، يا سيدة جول، أرجوك تفهّمي موقفِي، أنتِ تسبحين في مياه خطيرة للغاية». قالت المرأة بهدوء مُفزع: «يمكنك المساعدة، وأنا متأكّدة أنك ستفعل ذلك»، انحنى إلى الوراء، وضمَّ ذراعيه، وهزَّ رأسه للأمام كما لو كان يجيب على أحد الأسئلة.

وأضافت قائلةً: «لأنني أعرف جيدًا لماذا لا يمكنك العمل خلال هذه الأشهر، سيد كمال، لماذا تركت حركة المساواة في اسطنبول على الرغم من أنك لم تتخلَّ عن مثلك... الحالة المحزنة لصحتك، وأن الشيء الذي تريده أكثر في الحياة ليس المال... أنا أعلم كل ما أحتاج إلى معرفته، بطريقة أو بأخرى، الشيء الجيد هو أنني أمتلك القدرة على تلبية أكبر رغباتك في الحياة؛ لذا يمكنك العمل من أجلي أيضًا، سنكون سعداء مع بعضنا البعض، أمّا هؤلاء السّفاحون فإنهم سينالون ما يستحقونه، إذا سمحت لي، فلديّ قصة ممتعة لأخبرك بها».

نظرت المرأة إلى التحف الموجودة في ركن المجموعة، وابتسمت بشكل ضمنيّ، وقالت: «صدّقني، يمكنني أن أقدم لك هدية أكثر نُدرةً من أيّ من عملائك السابقين.

## 4

كان هيمانلي سليمان باشا مستلقيًا على الأرضية الخشبية في القُمرة، وهو يلهث، وعندما عاد تنفُسه إلى طبيعته، استجمع قوته ودفع صاري إسماعيل، الذي كان مُمدَّدًا فوقه مَيِّتًا، إلى جانبه، وواجه صعوبة أثناء القيام بذلك، حيث كان الشاب يَزِنُ أكثر من مائة كيلوجرام، كان مُغطًى بالدماء من كل مكان، لكنه لم يكن يتألم، وعندما أدار رأسه، رأى أن الفأس قد كشط أذنه بضع بوصات، ودفن في الأرض، أمَّا سيفه فقد كان مغرورًا في قلب الجندي البحري الشاب، حدث كل ذلك بسرعة كبيرة، ويبدو أن هذه المرة تغلَّبت التجربة على القوة الشديدة.

وقف وفرك كاحله النابض، وعندما لاحظ أن الأرض تحت قدميه كانت تميل ببطء، أدرك أن الأمور تزداد سوءًا في الطابق العلوي، ربما كان الأوان قد فات، لكنه لن يستسلم دون أن يحاول، إذا ظهر أمام



الله قبل انتهاء الليل، يجب أن يكون قادرًا على القول إنه بذل قصارى جهده لحماية الأمانة.

تحوّلت عيناه للمرة الأخيرة إلى صاري إسماعيل الذي كان راقداً بلا حراك على الأرض، لقد تذكّر طبيعته المبهجة والودية في اليوم الأول الذي جاء فيه إلى شاهميران، لقد كان يتصرّف وكأنه لم يتمّ نفيّه إلى هنا نتيجة للافتراء، ولكن كما لو أن العيش في هذا السفينة هو ما كان يبحث عنه طوال حياته، إذا كان لديه ولد، فإنه يريد أن يكون مثله، لم يعد إنقاذ الفتاة مجرد مسألة بينه وبين الله، بل كان عليه أن ينجح في ذلك؛ حتى لا يموت هذا الشاب الباسل عبثاً.

ذهب بغضب وفتح الباب الحديدي على مصراعيه، نظرت إليه الفتاة المستقلية على خشب الأرز بعيون بريئة، وبدت خائفة، لم تكن قد نطقت بكلمة واحدة منذ أن وطأت قدمها السفينة؛ لذلك لم يكن يعرف اسمها، ولم يكن بحاجة إلى مخاطبتها بالاسم من قبل، لكنه شعر الآن أنه مضطّر إلى ذلك، وكأنّ تسميتها ستُعزّز حقيقة وجودها، كان سيجعل هذا اليوم الاستثنائي من حياته أكثر دنيوية، تذكّر اسم أول شفاه وردية سرّقت قلبه في العشرينات من عمره، ومدّ يده، ونادى على الفتاة بصوت مطمئن:

«تعالِي إلى هنا، يا عائشة، بإذن الله سوف أخرجك من هذا التابوت العائم، أقسم أنني لن أسمح لأي شخص أن يؤذيك، ومن الآن فصاعداً، أنتِ أمانةٌ لديّ».

وبعد أن نظرت الفتاة الصغيرة إليه بدقّة وإمعان لبضع ثوان، ابتسمت ابتسامة خفيفة، لم يكن من الواضح ما إذا كانت قد فهمت ما قاله، من يدري، من أين جاءت، وما هي اللغة التي تتحدث بها، ولكن كان الأمر كما لو أنها قد قرأت في وجه القبطان القديم أنه يمكنه الوثوق به، ونهضت من سريرها، ولفّ الغطاء الذي كانت

مُمدَّةً عليه، حول خصرها، وانزلت حَبَّات العَرَق التي تراكَمَّت على صدرها العاري إلى أسفل، خلع سليمان باشا سترته المملخة بالدماء ووضعها على كتفي الفتاة، وأمسك بمعصمها النحيل، بيده التي تشبه المخلب، وسحبها إلى القمرة، ثم إلى السلم، كان المشهد الذي رآه عندما صعدوا إلى سطح السفينة أسوأ من أسوأ كوابيسه، ومع ذلك، لم يكن يجب أن يتمرد، كل هذا كان تقديراً إلهياً.

مضى نحو أقرب قارب نجاة، متجاهلاً الصاري الرئيسي الذي قسم شاهميران إلى قسمين، والبراميل التي تتدحرج هنا وهناك، وجنود الانكشارية الذين كانوا يحتضرون من جميع الجهات، وطاقمه الذي ما زال يحاول إنقاذ السفينة، والأمواج التي يعدُّ كل واحدٍ منها أكبر من الآخر، واتبعته الفتاة بليوننة، كان هناك ثلاثة بحَّارة في مُقدِّمة قارب النجاة، لا بُدَّ أنهم كانوا أذكى من الآخرين، والآن أدركوا أن السفينة لم تُعد قادرة على الصمود، وكانوا يحاولون الهروب، كانت فرصة القارب في مثل هذا البحر الهائج غير معروفة، لكنها كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنهم تجربتها في الوقت الحالي، عندما أصبح سليمان باشا فوق رؤوسهما مثل عزرائيل، لاحظ الاثنان التعبير القاتل على وجه قبطانهما، أما البحَّار الأخير، الذي لم تكن عيناه على شيء سوى ترك السفينة، فقد صرخ في رعب عندما أمسكت يدان قويتان بياقته، وجرفته من الأرض، وبعد أن جعل هيمانلي الرجل المسكين يجتاز الحافة العليا من جانب السفينة، وألقاه في أمواج البحر، سحب السكين من خصره، وقطع الحبال التي تُثَبَّت القارب في مكانه واحداً تلو الآخر، وعانق الفتاة، وألقى بها في القارب، وبعد أن ركب القارب، قام آخر حبل بوظيفته، وبعد بضعة ثوانٍ من السقوط، وجدوا أنفسهم في الموجات الفقاعية، وبينما كان القارب يتمايل من مكان إلى آخر، كما لو كان على وشك الانقلاب، قفزت الفتاة وهي خائفة، وعانقت القبطان العجوز بإحكام، ولَفَّ سليمان باشا يده الضخمة

بشعرها العطري، وقبّل رأسها بحب، وفي تلك اللحظة لم يشعر وكأن حياته في خطر، بل شعر وكأنه في بساتين الجنة.

وقال باقتناع من قلبه: «لن أتركك أبدًا يا عائشة... وإذا كنّا سنموت، فسنموت معًا، لقد أرسلك الله إليّ، ولا أشك في ذلك، وإذا نجونا من ذلك، سأكون بجانبك لبقية حياتي، من الآن فصاعدًا، سيُكتب مصيرنا معًا».

ظَلَّت الفتاة صامتة، لكنها ابتسمت، وكأنها تفهم.

عندما كان سليمان باشا يقول هذه الكلمات، كان يعتقد على الأرجح أنهم لن يروا الصباح، كانت الأمواج هائلة، ولم تستطع شاهميران الضخمة مقاومتها، فكيف يمكن لقارب صغير أن يبقى في البحر طوال الليل؟ لقد كان يريد فقط أن يجرب كل خيار في حدود قوته، قبل أن يعترف بالهزيمة، كان يتلو جميع الأدعية التي خطرت بباله، متوسلاً للشفاعة، وكان قلقًا على الفتاة الصغيرة الموجودة بين ذراعيه، أكثر من قلقه على نفسه، كان عليه أن يقاتل، كما كان عليه أن يحارب حتى أنفاسه الأخيرة! كان ينبغي أن يكون قادرًا على القول إنني بذلت قصارى جهدي عندما يُطلب منه تفسيرٌ عن سلوكه! أثناء قذفهم مع قارب النجاة، فَقَدَ توازنه للحظة وارتطمت رأسه بحديد المجداف، وأصابه دوار، وكان آخر ما رآه قبل أن يفقد الوعي هو العيون الكبيرة الفريدة من نوعها للفتاة التي انحنت فوقه، وقبّلت لحيته.

عندما عاد الضوء مرة أخرى إلى عالم هيمانلي، كان البحر هادئًا، وكانوا لا يزالون على قيد الحياة، وعائشة تجلس في أحد طرفي القارب، وركبتها مشدودتان إلى صدرها، تنظر إلى الأفق وهي شاردة الذهن، بدا مُتعبًا قليلًا، ولكنه كان مطمئنًا، وكانت سترته المبتلة تمامًا، لا تزال على كتفيه، لم تكن شاهميران ظاهرة، من المحتمل أنها غرقت، لكن على الأقل، كان يجب أن تكون بقاياها طافية في الأرجاء، ولأنه

لم يستطع رؤية أي شيء، فلا بُدَّ أن الأمواج قد سحبتُهما بعيدًا عن السفينة، عندما تذكَّر الأمواج، ارتجف من رأسه إلى أخمص قدميه، وسجد سجدة شُكْرٍ في القارب، ظلَّ هكذا لفترة طويلة، وبعد أن كرَّر كل الأدعية التي كان يعرفها، جلس متربِّعًا، وحدَّق في الغيوم التي تتحرَّك بهدوء في السماء.

ومهما حدث وهو فاقد للوعي فإن ما حدث كان معجزة جديدة من الله تعالى وعلاوة على ذلك، فإنه لم يكن من المحتمل أن يكونوا على قيد الحياة في تلك الليلة، لقد غفر الله له، وسمح له بالبقاء؛ لحفاظه على أمانته، ولم يخطر بباله أي تفسير آخر، وعانق الفتاة التي اقترَبَت منه، وأدرك أنها كانت مستيقظة، بحنان، ودفن رأسه في رقبتها الرقيقة.

قال والدموع في عينيه: «الحمد لله أننا نجونا يا عائشة... لقد وهَبَكِ رَبِّي لي، وَوَهَبَكِ ربي لهذا العالم».

رفعت الفتاة رأس الرجل العجوز عن كتفها، ونظرت بحبٍّ إلى عينيه الدامعتين، وقالت، وهي تضغط بأصابعها الصغيرة على صدرها العاري: «أنا... أنا... عائشة»، ثم وضعت يدها على صدر الرجل الذي كان يؤلمه، فوق قلبه تمامًا، وقالت: «القبطان... قبطان عائشة...». كان صوتها لا تشوبه شائبة مثل مظهرها، وكان يتمتَّع بجَرَسٍ غير عادي، يريح الأذن ويمنح راحة البال، كان الأمر كما لو أن جميع حالات الوجود والحياة المسحورة مُتَّحِدة في هذا الصوت.

شعر سليمان باشا برغبة تنمو في قلبه، وهو يستنشق رائحة الفتاة، التي تشبه شراب الورد الخاص، وعندما لاحظ الحركة الخفيفة بين ساقيه، كان خائفًا حتى الموت، وفكَّر في أن يفعل شيئًا، قائلاً: يا الله، امنحني القوة للتحمُّل. في اليوم الذي وجد فيه الفتاة وهي تنجرف في البحر، وأخذها إلى السفينة، كانت المشاهد والأصوات التي وضعها

الشیطان فی ذهنه قد أزعجت روحه، واقتحم غرفة الفتاة بغضب، لم تقاومه، حتی أنها لم تنتهّد، وتقبّلت الوضع رغم أنفها، وتركته یطفئ نار رغبته فوقها، وكانت خاضعة جدًّا، و غیر قادرة على الدفاع عن نفسها، لدرجة أنه حَجَلَ من نفسه، بعد أن أنهى سلیمان باشا عمله، وقام من فوق الفتاة، وبمرور الوقت بدأ هذا العار یورّقه، ویزعجه، وعلى الرغم من أنه لم یشعر بدّرةٍ من الذنب، عندما ضاجع بالقوة العدید من النساء، اللواتی اعتبرهُنَّ فی السابق غنائم حرب، إلا أنه هذه المرة -لسبب ما- شعر بالندم الشدید عندما أدرك أن الجمال الاستثنائی للفتاة كان موضوعَ مُحادثَةٍ فی السفينة، وعندما لاحظ أن بعض المحاربین كانوا یحترقون بشهوةٍ لتذوّقها، قام بحبسها فی زنزانة صغيرة بجوار مقصورته، وفی نفس الیوم، قام اثنان من الانكشاریة -كانا یتشاجران حول الفتاة- بإطلاق النار على بعضهما البعض، وألقى أحدُ البحّارة صبیًّا مُراهقًا فی البحر، وكعقاب له، سلّم رقبته إلى جِلّاد السفينة، لم تنتهِ المصائب بذلك؛ ففي المساء اندلعت تلك العاصفة الهائلة التي لم یشهدها أيُّ منهم من قبل، وأخیرًا غرقت السفينة شاهمیران بكامل طاقمها فی قاع البحر، وكان سلیمان باشا على یقین من أنه عوقِبَ على تدنيس هذا المَلَك الذي أرسله الله لاختبارهم، مثل هذه الخطیئة لا یمكن أن تظَلَّ دون عقاب، وبما أنه لم یمنع أحدٌ على متن السفينة ذلك، ولكن لأنهم كانوا یحلمون بنفس الشيء، فقد نالوا أيضًا نصیبهم من غضب الخالق، وإذ كان قد جثم فوقها مرة واحدة، وتسبّب فی كل هذه المصائب، فقد كان یفضّل تحطیم الأداة الإجرامية المتشدّدة بین رِجْلَیْه ورميها بعیدًا، بدلًا من ارتكاب نفس الذنب مرة أخرى، أبعد الفتاة برفقٍ بعیدًا عنه وابتسم.

قال بحنان: «نعم، أنتِ عائشة، أنتِ عائشتی، أنتِ أمانةٌ مُقدّسة من الله تعالیّ لديّ، سأحميك حتی نَفْسِی الأخير، لن أُمسك أبدًا

بشهوةٍ مرّةً أخرى، أقسم بربي العظيم، لن يتمكّن أحدٌ من لمسك، ستظلّين طاهرةً جدًّا بقيّة حياتك».

أومأت الفتاة برأسها كما لو أنها فهمت ما كان يقوله، من يدري ربما كانت تفهمه فعلاً، على الرغم من أن الرئيس هيمانلي كان يتساءل عن هذا الأمر، إلا أنه لم يكن في حالة تسمح له باستجواب الفتاة التي عانت كثيراً في الأيام الماضية، أدرك بعد ذلك أن لديه مشكلة أكبر يجب أن يفكر فيها، لم يستطع رؤية المجاديف، رغم أنه فتّش في كل ركن من أركان القارب، أثناء الإعصار، كان من الممكن أن يسقطوا، بينما كان قارب النجاة يلعب مثل الراقصة، على الأمواج، كانت هناك قطعة من الأرض، غامضة، يمكن رؤيتها من بعيد، ولكن كيف يمكنهم الوصول إلى هناك بدون مجاديف؟ وبينما اعتقدوا أنهم نجوا من الموت، هل سيتم اختبارهم الآن بالجوع والعطش في هذا القارب؟

أدارت عائشة رأسها وحدّقت في المكان الذي كان يبحث فيه القبطان العجوز، ثم ابتعدت عن الرجل وأتت إلى منتصف القارب، وأغمضت عينيها، وشبكت يديها، وبدأت شفتاها في التحرك، كما لو كانت تدعو، لاحظ سليمان باشا بدهشة وخوف شديدين أن المركب يتحرك، كانوا قد بدؤوا يشقّون طريقهم ببطء نحو الشاطئ في الأفق، وكان من الواضح أن الفتاة قد فعلت ذلك، لكنه لم يكن يعرف كيف فعلت ذلك، ولم يسمع قطّ بمثل هذا الشيء حتى في حكايات العجائز، في تلك اللحظة، اعتقد أن الفتاة هي التي منعت القارب من الانقلاب في العاصفة الليلية، كان الله سبحانه وتعالى يُظهر قوّته ليس فقط في جماله الرائع، ولكن أيضاً في قدراته الخارقة، كم كان من الرائع مشاهدة ذلك، كل من يعرفه سيخوض تجربة إلهية، وستزهر أزهار الإيمان في قلوبهم، وستغطّي هذه الأزهارُ كيّانهم بالكامل، تنبت معه القلوب الجافة، ويسجد الغافلون الذين تبعوا الشيطان، ويؤمنون بالدموع، عندما يرون معجزات عائشة، كان من الممكن أن

ينتهي الشُّرْك والكُفر الذي انتشر بشكل خبيث في الأراضي العثمانية، بفضل هذه الفتاة، لقد اختاره الخالق لهذه المهمة الجبَّارة، كانت هذه فرصة للتكفير عن كل ماضيه القذر، والدم الذي سفكه، والنساء اللاتي جعلهنَّ أرامل، أو ضيَّع شرفهنَّ، والمدن التي أحرقها، والسفن التي أغرقها، وعندما اقترب المركب من الشاطئ، دفع رأسه للخلف، ونظر إلى الشمس، والسحب الموجودة في السماء، وكرَّر آيات سورة الشعراء عدَّة مرَّات، وهو يبكي:

﴿طَسَّرَ ۝١ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾<sup>(١)</sup>

إن لم تكن المعجزة المذكورة في هذه الآية، هي الفتاة التي كان يشاهدها وهي تبكي، فما هي إذن؟

تدافعت مياه قارب النجاة وهي تُزبد، وسرعان ما جنح القارب بالقرب من الشاطئ، حملها سليمان باشا بين ذراعيه برفق؛ حتى لا تبتل الفتاة الغارقة في الأمواج، تمامًا، برفق، وقفز للأسفل قائلاً «باسم الله»، كان الماء تحت ركبتيه مباشرة، وكان يشعر بالطحالب تدور حول قدميه، رغم تعب الأيام الصعبة التي عاشها، ولكن قلبه كان مليئًا بالأمل والفرح، وسار متعثرًا في الأرض اللينة، وعندما وصل إلى الأرض الجافة، وضعها برفق على الأرض، وهذه المرة أمسكها من يدها، وسألها بطريقة أبوية، قائلاً:

«يمكنك المشي، أليس كذلك؟ لنجدُ لأنفسنا بابًا ميمونًا لاستقبال ضيوف الله، دعينا نتدقًا قليلًا، ونملاً بطوننا، وبعد ذلك فالله كريم، وعندما تتعبين، سأحملك».

وضعت عائشة يدها الأخرى على يد الرجل العجوز الضخمة  
الخَشِنَة، وأجابت بصعوبة، وهي تعكس في عينيها أنها تثق به من  
كُلِّ قلبها، كان الأمر كما لو كانت ترفع حمولة ثقيلة أثناء القيام  
بذلك:

”عائشة... تمشي“...

بعد أن استمدَّ قوتها من بعضهما البعض، سارت الفتاة الصغيرة وسليمان  
باشا نحو الغابة، في حالة مُنْهَكَة، وسرعان ما اختفيا بين الأشجار المتفرعة بكثافة،  
وعلى أحد الأغصان، كان العندليب الكبير يتكئ على ورقة كبيرة، يغني بصوت حزين،  
كما لو كان يغني أغنية سحرية ليبارك هاتين الروحين الضائعتين.





## 5

حَكَّتِ الفرس العجوز على لبدة شريكها الضعيف، الذي كان يلهث بجانبها، وصَهَلَتْ بألم، لم يأخذاً قسطاً من الراحة منذ وقت طويل، وكانت إحدى حدواتهم القديمة قد ارتخت، وقد دخل حَجَرٌ صغير حادٌ بين الحديد واللحم، وكان يعدُّبه بكل خطوة يخطوها، لقد كان يجرُّ العربات طوال حياته، عندما كان صغيراً، لم يكن يمانع في جَرِّ العربات المليئة تماماً بالحجارة، وعندما بلغ سِنُّ الرُّشد، كان بالكاد قادراً على تحمُّل تلك المُحمَّلة بالقش، هذه الأيام عندما شعر أنه كان في نهاية حياته، كان يستطيع جرَّ عربات الرُّكَّاب التي تتسع لثلاثة أو خمسة أشخاص بشقِّ الأنفُس، لم يكن الحصان الفحل ذو اللون الأسود الليلي، المرتبط بنفس النَّير، يساعده كثيراً أيضاً، بالكاد يستطيع الحيوان المسكين أن يحمل نفسه، بل وأحياناً يُخَلُّ بتوازن العربة؛ ممَّا يجعل مَهْمَّتَه صعبة.

ضُرب سوطٌ فوقه، وشعر بألمٍ في ظهره، لكنه لم يحاول الإسراع، كان القيام بذلك يفوق قوّته، وإرادته، في الوقت الحالي.

«سيروا أيّها الخَوْنَة! سيروا أيّها الأوغاد! لو قَيِّدْتُ بغلاً سيكون أفضل منكم!».

مسح أكرم أفندي، رئيس القافلة، جبهته بمنديله المتسخ الذي كان مبتلاً بالعرق، وأخذ يسبُّ الخيول، ورفع السوط الجلدي مرة أخرى بغضب، لكنه أنزل يده خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إرهاب الخيول -إلى جانب ذلك، حسب قوله- إذا كان هناك أشخاص يستحقون الضرب، فهم الجالسون في العربة، وليس من يجرونها.

كان يعلم منذ البداية أن تَوَلَّى مَهْمَة هذه القافلة، كان قراراً سيئاً، ومع ذلك لم يستطع أن يقول لا لكيس الذهب الضخم الذي أعطوه له، وهو الآن يعاني من وطأة هذا الجشع، عندما انطلقوا، لم يكن يدرك أنه متورطٌ في مثل هذه الأعمال المزعجة، فقال له الرُّكَّاب -الذين يمكن استيعابهم بالكاد في ثلاث عربات- إنهم يريدون الابتعاد عن القرية التي يعيشون فيها؛ لأنهم شعروا بالعداء، لكنهم لم يتحدثوا أبداً عن أولئك الذين يتعقبونهم بسبب قضية ثأر، سيارته النظيفة تماماً، والتي لم ييخل عليها بالمال، والمصنوعة من خشب الدردار، وتمَّت قيادتها ثلاث مرات فقط، عومِلت بخشونة شديدة أثناء هذه المطاردة، وكان سيؤدي رُكَّابها بشدّة إذا لم يعطوه كيساً من الذهب قيمته أكثر من نفقات إصلاحها، لقد طارد أولئك الذين قطعوا طريقهم مع رجاله، وبعد انطلاق القافلة، كان ذلك شرفه الآن، لكن من ناحية أخرى، لم يكن لديه نيّة في التوقُّف حتى يصل الركاب إلى الهدف؛ خوفاً من قدومهم مرة أخرى، أراد لمّ شمله بزوجته، وابنه المولود حديثاً ذي العيون السماوية، واللذين ينتظرانه في المنزل، وهو حيٌّ يُرزَق.

لذلك، عندما رأى الرجل الذي خرج فجأة من بين الأشجار، ووقف أمامه؛ سحب مسدسه بشكلٍ غير إرادي، واستعدَّ لإطلاق النار، وعندما لاحظ رداء القبطان على الرجل أنزل سلاحه بدهشة وعَلَّقه في اللجام، وقال:

«توقّفوا أيّها القوّادون، توقّفوا!».

سار هيمانلي سليمان باشا بشكل متغطرس، عندما بقيت العربية التي تجرّها الخيول -والتي قطع عليها الطريق- ثابتةً، وجاء على بُعد خطوات قليلة من السائق، وتجاهل النظرات المتعجبة للرَّجل قوي البنية، مدرِّكاً أنه يبدو، وكأنه قد خرج للتو من معركة، كانت لا تزال هناك دماء صاري إسماعيل على ملابسه، وقد نظّفت الأمواج جزءاً كبيراً منها، لكنها لم تمسحها تماماً، ورداءه يحمل كل آثار الأيام الشاقة التي قضاها، كان يجب أن يكون شَعْرُهُ ولحيته متماثليْن، ومع ذلك، كان بإمكانه أن يقرأ من التعبير المحترم في عيني الرَّجل، أنه عرف معنى هذا الثوب.

قال بصوتٍ قويٍّ: «إلى أين الرحلة يا رئيس القافلة؟»، رؤية شخص آخر غير عائشة بعد فترة طويلة جعلته سعيداً، «من أين أتيت، وإلى أين تذهب؟ آسف، لقد عطَّلْتُكَ عن مسارك».

قال أكرم أفندي بنظرة متردّدة: «أخي الأكبر استَغْفِرُ الله»، هل يمكن لهذا الرجل ذو المظهر المتشرد أن يكون قبطاناً عثمانياً حقاً؟ أم أنه كان حطّاباً وجد هذا الرداء بطريقة ما وارتداه؟

«نحن ذاهبون إلى قرية أيدوغان بإذن الله، لدينا ركاب في العربات، أين اتجاهك يا سيدي؟ ما الذي تبحث عنه في هذا المكان المقفر؟».

قال سليمان باشا بهدوء وثقة: «عَرَقْتُ سفينتنا منذ أيام قليلة»، وكان واثقاً من نفسه وهادئاً، وكأنه يقول خبراً عادياً، «بالكاد وصلنا إلى الشاطئ، ومنذ أيام كُنّا نتجوّل بحثاً عن سقف نحتمي به، إذا

كُنَّا قَرِيبِينَ مِنْ قَرْيَةٍ أُيْدُوغَان، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ تَكْيَةُ مَوْلَوِيَّة<sup>(1)</sup>، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِذَا كُنْتَ تَعْرِفُ مَكَانَهَا، هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَصْفَهَا لِي؟ قَبْلَ الْعُودَةِ إِلَى اسْطَنْبُول، دَعْنَا نَتَوَقَّفَ وَنَصَلِّيَ».

اتَّسَعَتْ عَيُونُ أَكْرَمِ أَفْنَدِي، وَاحْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ، وَضَرَبَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ بِتَعْبِيرٍ إِعْجَابٍ غَطَّى وَجْهَهُ، وَقَالَ:

«كُنْتُ أَعْرِفُ تِلْكَ السَّفِينَةَ! أَلَيْسَتْ هِيَ شَاهْمِيرَان؟ الْقَرْشُ الْعُثْمَانِي! قَالُوا إِنْ عَاصِفَةٌ غَيْرُ مَسْبُوقَةٍ ائْتَلَعَتْ فِي هَذِهِ الْمُنْطَقَةِ مُؤَخَّرًا، وَأَغْرَقَتْ شَاهْمِيرَان... أَمْ أَنْكَ... هَلْ أَنْتَ سَلِيمَانُ بَاشَا الَّذِي غَنَّيْنَا بِاسْمِهِ الْأَغَانِي الشَّعْبِيَّةَ يَا سَيِّدِي؟ قُلْ لِي، هَلْ هَذَا أَنْتَ؟».

ابْتَسَمَ الرَّجُلُ الرَّثُّ الْهَيْئَةَ بِفَخْرٍ وَهَزَّ رَأْسَهُ، مَبْتَسِمًا، وَسَحَبَ الشُّعَارَ الَّذِي فِي حِجْمِ كَفِّ الْيَدِ، مِنْ تَحْتِ يَاقَتِهِ، وَالْمَوْجُودِ فِي طَرَفِ السَّلْسَلَةِ الْمُعَلَّقَةِ فِي رَقْبَتِهِ، وَرَفَعَهُ، وَعِنْدَمَا رَأَى رَئِيسَ الْقَافِلَةِ الْعَجُوزَ تَوْقِيعَ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِي عَلَى الشُّعَارِ الذَّهَبِيِّ الْمُتَلَأَلِ، قَفَزَ بِسُرْعَةٍ مِنَ الْعَرَبَةِ، مُتَشَبِّثًا بِيَدَيِ الرَّئِيسِ الْعَظِيمِ، وَقَبَّلَ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ الْمُتَسَخِّخَتَيْنِ وَالْمُلَطَّخَتَيْنِ بِالْدمَاءِ، وَبَعْدَ لَحْظَةٍ مِنَ التَّرَدُّدِ، عَانَقَهُ بِشِدَّةٍ، كَمَا لَوْ كَانَ صَدِيقَهُ الْبَالِغَ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَقَالَ:

«حَفَظَكُمُ اللَّهُ لَنَا... وَحَفَظَكُمُ اللَّهُ لِبِلَادِنَا... الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ! مَاذَا عَسَايَ أَنْ أَفْعَلَ، وَكَيْفَ يُمْكِنُنِي مُسَاعَدَتُكَ؟ يَسْمُونِي قِيلِيَتَشْبَازِ أَكْرَمِ أَفْنَدِي، أَنَا أَقْدَمُ قَائِدِ قَافِلَةٍ فِي هَذِهِ الْمُنْطَقَةِ، إِذَا كُنْتَ تَرْغَبُ فِي الْعُودَةِ إِلَى اسْطَنْبُول، سَأَقُومُ بِإِلْقَاءِ الرِّكَابِ مِنَ الْعَرَبَاتِ، وَسَأُخْصِصُ الْقَافِلَةَ لَكَ، كَلِمَةً وَاحِدَةً مِنْكَ تَكْفِي! إِذَا كُنْتَ سَوْفَ تَذْهَبُ إِلَى التَّكْيَةِ، فَسَوْفَ آخُذُكَ إِلَى هُنَاكَ شَخْصِيًّا، إِنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنْ هُنَا، مَسَافَةٌ يَوْمٌ...».

(1) الطريفة المولوية: طريقة صوفية تُنسب إلى شيخها جلال الدين الرومي المعروف بمولانا، والمتوفى سنة 683 هـ بمدينة قونية بتركيا. (المترجم)

ابتسم سليمان باشا بامتنانٍ للرجل الذي بدا صدقه من عينيه وكلامه، وربّت على كتفه بطريقة ودية، وابتعد برفق بعيداً عنه، خصّص له مكاناً للجلوس في مقعد مريح في العربة التي تجرّها الخيول لكي يأخذ قيلولة لبضع ساعات، لكن لا يزال يتعَيّن عليه إبعاد عائشة عن أعين الناس، لم يستطع أن يظهر معجزة الله إلا لمن يثق به دون تردّد، يمكن لأرواح الناس العاديين أن تضلّ بسهولة في وجه هذا الجمال، لا يستطيع أن يخاطر بتكرار الكوارث التي وقعت في شاهميران، وقال:

«بارك الله فيك أكرم أفندي، أنتَ عليك توصيل رُكّابِكَ إلى قراهم بأمان، دعنا لا نسلب أحداً حقّه، لقد وصلنا إلى هذا الحد بإذن ربنا، وسنفعل الباقي بأنفسنا، إذا أعطيتني بعض الماء وبعض الطعام، فلن أكفّ عن الدعاء من أجلك، وعندما أعود إلى اسطنبول سأرسلها لكم مهما كان الثمن، صِف لي الطريق إلى تلك التكية المولوية، وكيف نذهب إليها بأقصر طريق؟».

فهم رئيس القافلة من طبقة صوت سليمان باشا أنه لا يريد أي اعتراض، فتراجع بضع خطوات إلى الوراء، بإذعان، وطلب من رجاله الذين كانوا في العربتين الأخريَيْن، ويشاهدون ما يحدث بفضول، إحضارَ المِوَن، بعد أن أخبره بالتفصيل كيف يذهب إلى التكية، لم يتحمّل، وعانقه مرة أخرى ليوذعه.

وقال: «سامحنا يا سليمان باشا! لم نفعل الكثير من أجلك! أطلق الكثيرون في قريتنا اسمَكَ على أطفالهم، ونحن نُقدّر ما فعلته للعثمانيين».

قال الكابتن العجوز: «سامحتك، يا أكرم أفندي»، وتأثّر، وقال: «سامحني أنت، ما الذي ستفعله أيضاً... طلبي الأخير هو أن هناك فتاة صغيرة من بين الناجين من العاصفة، فستانها مُمزّق، وأودُّ إحضار

رداء لها، فهل هذا متواجد مع الرُّكَّاب؟ ومهما كان ثمنه، سأرسله إليهم عندما أعود إلى اسطنبول».

أزهرت الورد على وجه قيليتش باز، كان سعيدًا لأنه سوف يستطيع مساعدة هذا البطل الذي كان معجبًا به، بشكل أفضل، وذهب إلى السيارة بغضب، وفتح الباب، وتحدث مع الموجودين بالداخل لبضع لحظات، ثم عاد وفي يده عباءة حريرية وردية اللون ولثامٌ أبيض ونقاب، كان زياً باهظ الثمن وأنيقاً، وياقته مُزَيَّنة بشكل متقن، كما أحضر زوجًا من الأحذية النسائية المسطحة.

ابتسم، قائلاً: «العائلة الموجودة بالداخل لديها أيضًا فتاة صغيرة، لم تكن قد ارتدت تلك الملابس من قبل، كانت تحتفظ بها من أجل جهازها، لقد أعطتها لي طفلي، بكل سرور؛ فهم مدينون لي ليس بالذهب فحسب، بل بحياتهم أيضًا. لا تتحدث عن إرسال أموالك يا باشا، إنك بذلك تكسر قلبي، أتمنى أن أفعل المزيد إذا سمحت لي بذلك، عندما أعود إلى القرية، سأقول إنني تعرّفتُ على هيمانالي سليمان باشا، ورأيت بأُمّ عيني أنه على قيد الحياة، هل يمكن أن تكون هناك سعادة أكبر من ذلك!».

قال سليمان باشا وعيناه مغرورقتان بالدموع: «شكرًا لك أكرم أفندي، لقد أسعدتني»، لقد أدرك للتوّ قيمة ما فعله حتى الآن في نظر الناس، وأصبح من الأفضل أن يُفسَّر الآن، لماذا عهد الله تعالى إليه بأمانته الإلهية لحمايتها.

«بلِّغ تحياتي للموجودين في القرية، دَعُهُم لا يَكْفُوا دعاءهم من أجلنا، هيا، ليكن طريقًا مُيسَّرًا! اذهبوا مع السلامة».

بعد أن انطلقت القافلة مرة أخرى، لم يغادر مكانه حتى غابت عن الأنظار من بعيد، وكان يلوح من وقت لآخر لقيليتش باز أكرم أفندي، الذي استدار ونظر خلفه، وبعد ذلك دخل سليمان باشا بين

الأشجار بخطوات سريعة، وسار لبضع دقائق، ثم جاء إلى المكان الذي كانت الفتاة تنتظره فيه، وتنفس الصعداء عندما وجد عائشة جالسة القرفصاء على الأرض، وظهرها إلى جذع شجرة الحور، سلّمها الرداء الموجود معه، وابتسم، وعندما خلعت الفتاة ثيابها قطعةً قطعةً، وبقيت عارية تمامًا، خاف للحظة، وأبعد عينيه، لكنه أدرك بعد ذلك أنه لم يعد ينظر إليها على أنها امرأة ستغضبه، بل باعتبارها معجزة من الله العظيم، وكان جمالها يثير المشاعر الإلهية في قلبه، بدلًا من الشهوات الفانية، وكان يراقبها برهبة كبيرة، وهي ترتدي ملابسها، معجبًا بها وبكمالها، كانت الملابس كبيرة قليلًا بالنسبة لها، لكنها لم تكن سيئة على الإطلاق. مكتبة سر من قرأ

وعندما أصبحت جاهزة، أمسك الفتاة من يدها بحنان، وانحنى على أذنها، قائلاً:

«سأخذك إلى مكانٍ تكونين فيه بأمان، يا عائشة، ولن يؤذيكَ أحد هناك، لم يتبقَّ أماناً سوى القليل من الطريق، تحملي لفترة أطول قليلًا».

قامت الفتاة بمداعبة لحيّة الرجل العجوز، وابتسمت بابتسامة مُشرّقة، وقالت بلغة تركية أنظف وأوضح من ذي قبل بنبرتها السحرية المعتادة: «عائشة تثقُ بك»، وكان لديها صعوبة قليلة في الكلمة الأخيرة فقط، ولكن إن لم يكن التطوُّر الذي أظهرته في مثل هذا الوقت القصير مُعجزةً جديدة، فماذا يكون إذن؟ أمسك بيد الفتاة، وكان من الرائع أن يشعر بدفع بشرتها.

سارا بهدوء وبدون عجلة بين الأشجار، وكان سليمان باشا يعلم أنه عند وصولهما إلى المولوية، سيضطر لترك الفتاة، فحاول إطالة هذه الفترة عمداً، وأحياناً يتحایل على الطريق، ويتوقّف أحياناً لأسباب غير ضرورية، ويُعرّفها على المكان، وكان يُعلّمها أسماء الطيور الموجودة



على الأغصان، والأشجار المختلفة، والحيوانات التي تتجول، والأسماك في الجداول واحدة تلو الأخرى، بصبرٍ، وكان يشاهد بسعادةٍ ابتسامة عائشة على وجهها، مع كل كلمة كانت قد تعلّمتها.

بعد سَيرٍ لم يستغرق يوماً، مع أنه كان بطيئاً، أصبحت الأشجار متناثرة، ووجدنا أنفسهما أخيراً في أرض جرداء، وشاهدا التكية أمامهما، كانت تتألف من مبنى كبير مستطيل الشكل، والعديد من الأكواخ مصطفة حوله، وحظيرة، وبئر، وكان كلب الراعي النظيف، والمُعتنى به جيداً، ينام في قاع البئر، وذيله بين ساقيه، وعندما لاحظهما، نظر إلى الأعلى، بعينه نصف مفتوحتين، وحاول معرفة ما إذا كان هناك أي شخص يستحقُ النباح، ثم وضع رأسه على الأرض مرة أخرى، واستأنف من حيث توقّف في حلمه.

لم يكن كلب الراعي فقط هو الذي لاحظ وصولهما، حيث خرج من أحد الأكواخ الصغيرة رجلٌ عجوز ذو لحية بيضاء، يرتدي سروالاً أبيض اللون، وسترة من الصوف، يسحب قباقيب، وهو يلهث في كل خطوة، وسار نحوهما، وكان يرتدي جبّة المولوية ناصعة البياض، مفكوكة الأزرار، وجزء منها بدون أزرار، فوق ثُورة في غاية النظافة، وبعد ذلك مباشرة خرج اثنان من الدراويش المولوية من الشباب الصغار بقلانسهما<sup>(1)</sup> على رأسيهما، إلى الفناء، وركضا وأمسكا ذراعي جلبي<sup>(2)</sup> العجوز، ورفعاه مثل طائر، وحمله إلى ضيوف الله.

وبعد بضعة خطوات، أمر الشيخُ الدراويش بالتوقّف، ووضع على الأرض، وقام الشَّابَّان الجريئان -اللذان كانا قد أنهيا للتوّ فترة رياضة الأربعين<sup>(3)</sup>، وخرجا للتوّ- بتنفيذ الأمر على الفور، لقد ألقيا نظرة لا

(1) قلانس: جمع قَلْنُسُوّة، وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال. (المترجم)

(2) جلبي: لقب كان يطلق على كبار الصوفية من أتباع الطريقة المولوية والبكداشية. (المترجم)

(3) فترة رياضة الأربعين: هي فترة الصيام والمشقّة التي يفرضها الصوفية على أنفسهم لمدة أربعين يوماً، ويقضون وقتهم فيها بالصلاة والعبادة فقط. (المترجم)

إرادية على الشخصين اللذين أتيا لزيارة التكية، وقد تأثراً لبضع ثوان بجمال عائشة الساحر، ثم عادا إلى رُشدتهما، وقالا التوبة «أستغفر الله»، وأدارا أعينهما على الأرض.

قال سليمان باشا بابتسامة عريضة على وجهه: «تحية طيبة يا أعزائي»، «لقد قطعنا مشواراً طويلاً، أيها السادة، ونحن مُتعبون وجَوَّعي، هل عندكم قطعة خُبز جافٌ تعطونها لضيف الله، وفراش نستريح عليه؟».

زرَّ شيخ المولوية عينيه، وأطال النظر إلى القبطان العثماني لفترة طويلة، وفحص توقيع السلطان المعلق على رقبتة، ثم ظهرت ابتسامة على وجهه، وقال:

«أعرف مَنْ أنت يا سليمان باشا، عندما رأيتك لأول مرة، كنتُ درويشاً في التكية الموجودة في قرية ديمرجيلر، كلما أتيتَ إلى تلك المنطقة، كنتُ تمرُّ دائماً على تلك النواحي، وتطلب من شيخي أن يسامحك، وتطلب منه الدعاء، كيف أنسى أسد البحار الذي يحميني دائماً، ويعرف المولويين كأصدقاء! يطلقون عليَّ اسم حسام الدين چلبی، تكئتنا هي منزلك، اخترَ الكوخ الذي تريده، واستقرَّ فيه، باستثناء ذلك الذي له سقف قُبَّة، حيث إنه سماعخانة<sup>(1)</sup> الخاص بنا، حيث نقوم بالذِّكر، ونؤدِّي رقصة السماع<sup>(2)</sup> المولوية، خُذ قسطاً من

---

(1) سماعخانة: أي بيت السماع، وهو بهوٌ متراجِبُ الأرجاء، يجلس الشيخ في صدره، ويدخل الدراويش بالطويل من قلائسهم فيسلّمون على الشيخ، ثم ينفخ في الناي وتقرع الطبول، ويصطفُ هؤلاء الدراويش في دائرة يدورون فيها، ويدور الواحد منهم حول نفسه، وهو يدور مع رفاقه في دائرة، ويرفع الواحد منهم يده اليمنى، وقد اتَّجَهَتْ راحتها لأعلى، وراحة يده اليسرى لأسفل، ثم يدورون في هذه الرقصة على أطراف أصابعهم دوران الرحي حول قطبها ثم يصلُّون على النبي ﷺ واضعين أيديهم على صدورهم، ويحنون قامتهم، وبذلك تنتهي رقصتهم. (المترجم)

(2) السَّماع: هو إثارة الوجد، وجذبات العشق الإلهي في النفس، بإلقاء السمع إلى النفخ في الناي، وقرع الطبول، ورقص الدراويش. (المترجم)

الراحة الآن، وعندما يكون العشاء جاهزاً سوف يَطْرُق الإخوة بابك، هل يلزم أن أعدَّ كوْحًا منفصلاً لابنتنا السيدة؟».

أجابه قائلاً: «بارك الله فيك يا حسام الدين چلبى، اسم رفيقتي في السَّفر هو عائشة، حياتها وشرفها أمانة في رقبتي، سيكون من الأنسب لنا أن ننام تحت نفس السقف، ذهني لا يتعلَّق بها، لكني أرجو وضع مرتبتين في الغرفة، ونضع ستارة سميكة داكنة بين الأفرشة».

نظر العجوز چلبى إلى الفتاة بعيون مُتفهِّمة، ثم التفت إلى الدراويش، الذين كانوا يقفون خلفه وهم يظهرن احتراماً كبيراً له، وأمرهم بإعداد الكوخ الأكثر عناية على وجه السرعة.

على الرغم من كونهما في مأوى آمن في التكية، أمضى المسافرين المرهقان الليل ينقلبان على أَسْرَتَهما، مضطربين وقلقين، وكانت عائشة خائفة من وجودها في هذا المكان الغريب، وسط أناس لا تعرفهم، وتخشى ما قد يحدث لها، ومن ناحية أخرى، كان سليمان باشا ينجرف من حلم إلى آخر في قلب الظلام، وفي معظم هذه الأحلام كان يمسك عائشة بين ذراعيه، ويجول بشفتيه على بشرتها الأكثر حلاوة من العسل، ويستمتع إلى أُنيتها الممتلئ باللَّذَّة كالشَّعر، يحضن خصرها النحيل بإحكام، ويسقط من خطيئة إلى أخرى، وعندما استيقظ في المساء على صوت الدراويش يدقُّون على الباب، كان يتصبَّب عَرَقًا وعيناه مملوءتان بالدموع، وقلبه العجوز ينبض بالخجل والخوف وكأنه سوف يخرج من مكانه.

أدار رأسه ونظر إلى الستارة التي كانت تفصل بينه وبين الفتاة الصغيرة، مدرِّكاً أنها ترقد خلف هذا الغطاء الرقيق، وكان من السهل لمسها، كان اختباراً للروح لا يطاق، مد يده، ولمس القماش بأصابعه، فتحرَّكت الستارة قليلاً، كان يكافح حتى لا يخفض الحاجز الفاصل بينهما دفعة واحدة، شعر بضيق في التنفس، وقفز من السرير خوفاً

من الاستسلام، في معركته ضد الشيطان، ولبس رداءه على عجل، وغادر الغرفة.

أرعى الليل سدوله، والنسيم البارد المنبعث من ياقته جعله يشعر ببعض الراحة، رفع رأسه، ونظر إلى السماء، وإلى النجوم الساطعة، لقد كانت علامة جيدة على أن رغباته بدأت تهدأ في اللحظة التي كان فيها بمفرده، لقد أدرك بكل وضوح ما كان عليه أن يفعل في تلك اللحظة، بدا أن هذا هو الحل الوحيد، حتى لو تسبَّب له في ألم شديد، وربما استياء، كان من واجبه حماية عائشة حتى نفسه الأخير، لكن كان عليه أن يفعل ذلك بعيدًا عنها، وهذا ما يقتضيه الواجب الإلهي الذي كلفه الله به، خلاف ذلك، كان عليه أن يتصارع مع نفسه التي كانت تلحُّ عليه، كل يوم وكل ليلة، في أن يأخذ الفتاة بين ذراعيه، وعاجلاً أم آجلاً سيصبح منهكاً، ويخسر هذه المعركة، كانت عيناه مثبَّتَتَيْن على السماعانة، الموجودة في الأمام مباشرة، وكان يتخيَّل النفوس هناك ترتجف منتشية، وهذا عقله وروحه تدريجياً.

ذهب إلى الدراويش الذين وضعوا مائدة أرضية في الفناء، واحتضن شيخ المولوية الذي استقبله باحترام ومحبة، وكأنه صديقه منذ أربعين سنة، ثم أخذ الرجل العجوز من ذراعه، وابتعد به بعيداً عن الزحام، وقال له:

«حسام الدين چلبي، لديّ طلبٌ مهمٌّ منك، صدَّقني أنني أفعل هذا من أجل الله، يمكن للفتاة التي أحضرتها معي البقاء في تكية الدراويش لفترة، إذا سمحتَ بذلك؟ يجب أن أعود إلى اسطنبول، ولكن بمجرد أن أعود، سأرسل لك الكثير من المون والملابس والذهب أكثر ممَّا تحتاج، ما سأرسله سيكون كافياً للنفقات التي ستحمِّلها من أجل الفتاة، وأنفقُ الباقي على التكية، وإذا زاد وزَّعها على الفقراء، ومن الآن فصاعداً، تكيَّتُك ستكون تحت حمايتي، إذا كان هناك

لصًا جشعًا، أو وَقَحًا مُشَاكِسًا، وأي مشكلة تقعون فيها، أخبرني بها وسأعتني بذلك.

عائشة هدية من الله لي، لا أستطيع أن أجد مكانًا أكثر أمانًا لها، للبقاء فيه، حتى أقرّر أين وكيف أعتني بها، إنها تعرف لغتنا قليلًا جدًّا، قوموا بتعليمها القراءة والكتابة حتى أعود، ودعها تحضر دروسك، وتستمع إلى نصائح مولانا، سأعود قريبًا دون أن أدعكم تنتظرون كثيرًا، على أي حال، وسأسترد وديعتي منك، ستفعل هذا ليس فقط من أجلي، ولكن أيضًا لحماية معجزة من الله، ستفهم ما أعنيه عندما تتعرّف على عائشة.

لديّ شرطٌ واحد فقط، سوف تعاملها على أنها ابنتك، لن تتركها خارج هذه الجدران، ولن تظهر وجهها لمن يأتون للزيارة، إذا أعجب بها أحد الدراويش أو اقترب منه بنوايا سيئة، فسوف تطرد هذا الخائن بعيدًا، دون انتظار يوم واحد، عِدي بهذا يا حسام الدين جلبني، واسمحوا لي أن أكون عبدًا في التكيّة الخاصة بكم».

وأثناء قول هذه الكلمات، أذهل الشيخ العجوز التعبير الدامع على وجه القبطان العثماني العظيم، والإيمان اللا مُتناهي في عينيه، وصوته المتوسّل، كان هذا طلبًا غير متوقّع، فقد يشكل حماية فتاة لم يعرفوها مخاطر جسيمة بالنسبة له، وللتكية، لكنه ظنّ أن طلب الرجل هو اختبار من الله تعالى، فلا يليق بهم أن يرفضوا صديق الله الذي كان في ورطة؛ ففي هذا العالم الفاني كان من الضروري اختيار الطريق الصحيح، وليس الطريق الآمن، نظر إلى الأفق البعيد كما لو كان مستغرقًا في عالم إلهي، يُتِمِّمُ بمصاريع قصيدته المفضلة بصوت هادئ:

أَقْدِم، أَقْدِم، أَيَّا كُنْتُ، أَقْدِمْ أَيْضًا،  
سواء كنتَ كافرًا أو مجوسيًا،

مكتبة

t.me/soramnqraa

وسواء كنتَ من عابِدي الأوثان، أقدمُ،

تَكَيَّنْنا ليست مأوى لليأس

حتى لو فسدتَ تَوَبَّتْكَ مائة مرةً، أقدمُ مرةً أخرى...

لا نزرع في هذه التربة بذرةً غير الحبِّ.

لا نزرع بذورًا غير الحب في هذا الحقل النظيف.

«ليكن العشق يا صديقي! إذا كان هذا ما تريده منّا، فسنقوم بذلك بالطبع دون طرح سؤال واحد، بابنا ليس باب اليأس! لم نرفض أيّ ضيف لله حتى اليوم! طالما تعيش هنا، عائشة هي ابنتي، لا أسمح بأن يُنظر إليها بشكل مختلف، لا تشغل بالك بها وهي هنا، اذهب وافعل ما عليك القيام به في اسطنبول، وقُمْ بحماية بحارنا وأرضنا من قُطَاع الطُّرُق، وعندما تعود إلى التكية الخاصة بنا في اليوم الذي يكون فيه ذلك ممكنًا، ستجدها طاهرة وآمنة كما تركتها، تعال الآن، لنوقظ ابنتنا، دعنا نقدّمها إلى الدراويش، قبل أن تغادر هذا المكان، املاً معدتك، واستمتع معنا، وعندما تشرق الشمس، تأخذ أقوى حصان في الاسطبل وتنتقل.»

نظر سليمان باشا بامتنانٍ إلى چلبّي ذي الوجه المضيء، كما لو أنه أعطى العالم له، عانقه بشدّة، ودفن رأسه في كتفه، وبقي هكذا لفترة، ثم دخل الصديقان متشابكي الأيدي، وسارا بسلام نحو الكوخ حيث كانت عائشة نائمة.



## 6

كان يحب هذه المدينة منذ القِدم، وفي شبابه، عندما رأى كل شيء وردّيًّا، وفي الأيام التي لم يكن يعلم فيها أنه من الممكن أن تكون هناك حياة أفضل، ارتفعت ناطحات السحاب الضخمة المكوّنة من مائتي طابق في جميع أنحاء اسطنبول، والسماء الرمادية والأرض، أي على عمق ألف متر، الناس الذين يشبهون النمل لم يكونوا يزعمونه على الإطلاق، كان يتابع الشاشات على المناطيد الإعلانية باهتمام، ويشاهد أخبار الساعات الجديدة والروبوتات المنزلية، وينظر إلى السيارات «البرّ جوّية» التي تطير من ناطحة سحابٍ إلى أخرى على أنها أمجاد مُشرّقة للذكاء البشري والإبداع، قضى طفولته في الطابق الحادي عشر بعد المائة من برج يلديزلار على الجانب الآخر من المدينة، ولم يضطر أبدًا تقريبًا لمغادرة هذا البرج الضخم على مَرّ السنين، كان قد التحق بالجامعة في أفضل أكاديمية علوم للجريمة في المدينة، والتي امتدّت من الطابق التاسع والسبعين، إلى الطابق



الرابع والثمانين من نفس ناطحة السحاب، وفي الحديقة الاصطناعية في الطابق التاسع والأربعين، قَبْل فتاة لأول مرّة في ظلال أشجار الصنوبر الاصطناعية، وعندما يمرض، تنقله أُسرته إلى المستشفى الخاص، الذي يشغل عادةً الطابقين الثالث والتسعين والرابع والتسعين، أو إلى عيادة خاصة في الطابق المائة والثالث والأربعين، كان يستمتع أحيانًا بالعُزلة في المقاهي ودور السينما والمراكز الثقافية في أجزاء كثيرة من المبنى، وأحيانًا يُكوّن صداقات جديدة، أمّا مكتب التحريات الخاص به، فقد افتتحه في برج كريستال في الطرف الشمالي من المدينة، والذي يُفضّله الأثرياء، وحيث يمكن للعملاء الذين لديهم محافظ منتفخة العثور عليه.

يقيم أصحاب الشركات الكبيرة والقائمون على إدارة الدولة في الطوابق العليا من الأبراج الضخمة، في شقق فسيحة بها حمامات سباحة داخلية، وفي الطوابق السفلية يقيم المديرون والبيروقراطيون العاملون في تلك الشركات، وفقًا لأهميتهم، وفي الطوابق الأرضية المنخفضة يسكن رجال شرطة الذين بدون رُتب، والجنود، وملايين من الناس العاديين يقيمون في القاع، في مبانٍ مُهمّلة، كقانون من قوانين الطبيعة، مثل شروق الشمس كل صباح؛ فهم يواجهون صعوبة في العيش، ويضطرون للسير على الطريق بسبب الحشد، لم يفكر في استجوابهم، كان يرى أنه من المنطقيّ تمامًا أن لكل شخص الحق في التصويت في الانتخابات بما يتناسب مع الضريبة التي يدفعها، وأن شخصًا واحدًا يعيش في الطوابق العليا يمكن أن يؤثر على نتائج الانتخابات أكثر من عشرات الآلاف من الأشخاص على وجه الأرض، ويعتقد أنه إذا كنت تساهم في الدولة أكثر من أي شخص آخر، فيجب أن يكون لك رأي أكبر في الحكومة.

في بعض الأحيان تزعجه حياة الطبقات الدنيا، بالطبع، وكان يشعر بالأسف تجاههم، لكن لم يكن هناك شعور بالتمرد في قلبه، لأنه لم

يكن يعلم أن العالم كان مختلفًا فيما مضى، فكما أنه من الطبيعي أن يعيش البعض طويلًا وبصحة جيدة، يموت آخرون في سنٍّ مُبكرة، وبعض الناس يولدون جميلين، والبعض الآخر قُبْحاء، فإن وجود مثل هذه اللا مساواة سيكون طبيعيًا بالنسبة له.

كان يتمُّ شرح التغيرات في التكنولوجيا من الماضي إلى الحاضر فقط في دروس التاريخ في المدارس، ولم يتم ذكر كيف كان النظام السياسي والاجتماعي في القرون القديمة على الإطلاق، لم يتم كتابة أي كتاب أو مقال صحفي حول أنماط الحياة المختلفة، وكان من المستحيل الوصول إلى أي مصدر على شاشة التلفزيون المملوكة جميع قنواته لشركة عملاقة واحدة، أو عبر الإنترنت الخاضع لسيطرة مُشدّدة، كانت مثل هذه الأمور من المحرّمات، وكان المستجوبون يخفون على الفور، ولم يبحث عنهم أحد، وكان معروفًا أنه لن يتمّ العثور عليهم، كان الأمر كما لو أن الإنسان قد عاش في ناطحات السحاب هذه، بترتيب ثابت منذ اليوم الأول الذي وطأت قدمه على هذا الكوكب، والتفكير والقول بعكس ذلك يعني تعكير صفو المجتمع وارتكاب الخيانة.

كلما اضطررنا إلى التسلّل إلى حركة المساواة في اسطنبول للحصول على وظيفة، أمضى وقتًا معهم، وأُتيحت له الفرصة لمعرفة ما كان عليه العالم مع هؤلاء الأشخاص الذين وصفتهم الدولة بـ «المسلّحين»، ومنذ ذلك اليوم، يقوم بتنزيل نماذج محاكاة ممنوعة من السوق السوداء في كل فرصة، ويتجوّل في أماكن خيالية تنتمي إلى الماضي، ويجمع بدقّة الأشياء التي تحمل روح تلك الأوقات، كما لو كانت كل واحدة منها من الذهب، قرأ بشغف كل وثيقة تاريخية ورواية يمكن أن يجدها في المكتبات غير القانونية حول العالم، وشاهد الأفلام التي تعود إلى قرون، والتي نقلته إلى عصور مختلفة؛ خوفًا من اقتحام شرطة قوات الأمن لمدينة اسطنبول، للباب في أي لحظة.

نظر خلف سيارة أجرة «بَر جَوِيَّة» صفراء كانت تُحلّق بالقرب من نافذته، وعيناه تتبعان السحب المظلمة للعاصفة الحمضية البعيدة.

كانت إحدى دول المدن المجاورة على وشك أن تصبح غير صالحة للسكن بسبب طبقة الأوزون المثقوبة والاحترار العالمي، والأخبار المتعلقة بها، مثلها مثل جميع التطوّرات الأخرى التي لم تعجب جمهورية اسطنبول، لم تنعكس على التلفزيون والإنترنت، لكنها انتشرت على هيئة همسات في كل شارع، وأصبحت الموضوع الرئيسي للحديث في كل مكان يُعتقد أنه آمن، في المستقبل القريب، سيتدفّق سُكّان تلك المدينة أيضًا إلى اسطنبول، ويحاولون عبور الجدران، كما فعلوا في مدن أخرى عندما وقعت مثل هذه الأحداث، ومن المحتمل أن قوات الشرطة ستصدّ العديد منهم، لكن على الأقل، سيتمكّن بعضهم من أن يصبحوا مواطنين في المدينة بوسائل مُظلمة من خلال تقديم عملهم أو أجسادهم للأثرياء والأقوياء، وستتمّ إضافة الآلاف من الناس إلى سُكّان اسطنبول مرة أخرى، وبحسب الشائعات، فإن الشرطة سمحت لبعض المهاجرين بالتسلّل إلى المدينة من الأسوار؛ من أجل زيادة الأيدي العاملة الرخيصة.

نظر إلى مبنى رئاسة الوزراء، الذي يرتفع في مكانٍ بالقرب من ناطحة السحاب حيث كان يعيش، وهو يصرف نظره عن السحب الحمضية التي ظهرت كنقاط سوداء بعيدة، تتوهّج أحيانًا مثل أضواء الليل، كانت هناك أربعة مبانٍ يبلغ ارتفاعها نصف ارتفاع البرج الضخم المكوّن من مائتين وعشرين طابقًا، مع قمّةٍ تعلوها قُبّة، وكلها تربط البرج الضخم بجسور عريضة مزدوجة في الطابق العاشر، كان البرج الرئيسي ملكًا لرئاسة الوزراء، أما الأبراج الأقصر فكانت مباني الوزارة، وتمّ بناء الكثير من الأسطح للسيارات «البَر جَوِيَّة» الخاصة بالإسعاف في الطوابق التابعة لوزارة الصحة، ولأن وزارة الشؤون الدينية

تقع أعلى نفس المبنى؛ فقد كانت هناك مئذنة رائعة ترتفع على السطح، وهي غير موجودة في المباني الأخرى، أما المبنى الذي توجد فيه وزارة الأمن، فهو مُجهَّز بالعديد من الأنظمة المضادة للصواريخ، والمضادة للطائرات لحماية نفسه -والأجزاء أخرى من رئاسة الوزراء- من الهجمات الجوية، وقد تم تجهيزه بحظائر مليئة بالسيارات «الجوية» التابعة للشرطة، تُرى ما الذي يتمُّ الحديث عنه، وما نوع الخطط التي يتم وضعها في هذا المبنى الضخم، حيث يعيش ويعمل أولئك الذين يحملون مصير المدينة؟ وتوقَّع أن تكون الانتخابات القادمة البند الأول على جدول أعمال البرلمان، لكنه كان يعلم جيدًا أن هناك قضية أخرى لم تسقط من جدول الأعمال في أي وقت قط.

حركة مساواة اسطنبول...

تمتم بصوتٍ مُنخَفَضٍ: «محيي الدين أفندي، أُرني مَلَفَّ الذي يحمل الرمز «TP41S»»، كانت أجهزة استقبال الكمبيوتر المنزلي حسَّاسةً بدرجة كافية لاكتشاف الأصوات المنخفضة، اختفت فجأة مقاطع فيديو مشاهد الطبيعة التي تدور على الشاشة العريضة على الجدار الأيسر للغرفة، وحلَّ محلَّها وجه محيي الدين أفندي الواضح جدًا، والهادئ.

وقال: «يوم سعيد سيدي، يشرفني أن أقدم الملف إلى شخصكم المُوقَّر، وفقًا لبروتوكول أمان مصادر المعلومات الخاصة بي، سأطلب منك إخباري بكلمة المرور».

«هل أنظمة التشفير الخارجية نشطة؟».

«جميعها تعمل بكامل طاقتها، سيدي، لم يتم الكشف عن أي خللٍ أو اقتحام النظام، يمكنك الوثوق في أننا بأمان».

ضحك كمال، قائلاً: «أتمنى ذلك... أنا أدفع ثروة من أجل هذه الأنظمة، دهمهم يعملون مرة واحدة على الأقل كل أربعين عامًا... كلمة المرور هي «Nese1738NeseX»».

«شكرًا سيدي، لقد أؤكد نظام الأمان الخاص بي كلمة المرور وخريطة الصوت، آسف على المتاعب التي سببناها لك، بالنسبة للمرحلة النهائية، يُرجى توجيه وجهك إلى كاميرا الشاشة التي أعمل عليها».

شعر الشاب بالملل، وسار بضع خطوات باتجاه الحائط، وانتظر الكاميرا في الجزء العلوي من الشاشة لمقارنة جميع ملامح وجهه مع خريطة الوجه المحفوظة في نظامه، لقد جهّز هذه المرحلة الثانية من الأمن حتى لا يتمكّن أحد القراصنة الذي يُسجّل صوته، أو الأسوأ من ذلك، الشرطي في ثياب مدنيّة، من الوصول إلى ملفّاته دون علمه، بعد بضع ثوانٍ، تمّ سماع الصوت الهادئ المريح لجهاز الكمبيوتر المنزلي مرة أخرى.

قال محي الدين: «جميع المعاملات كاملة، سيدي، أنا أقوم بفتح ملفٍ للوصول الخاص بك على الفور، هل لديك أي طلبات أخرى مني؟ على سبيل المثال، قهوة تركية رغويّة، أم غداء خفيف ولذيذ؟ يمكنني أن أجعل الإنسان الآلي الخاص بالمطبخ يحضّر لك سلّطة رائعة».

«شكرًا محيي الدين أفندي، ليس لديّ شهية، سأتصل بك لاحقًا، يمكنك الانسحاب الآن».

قال الرجل العجوز بابتسامة متفهّمة: «أمرّك على رأسي»، ونظر إليه بتعبير أبٍ مُحبٍّ يستمتع برعاية ابنه، ثم تلاشى واختفى من الشاشة، تمّ استبداله باليوم صور ظهر واختفى على فترات من بضع ثوانٍ، أعطى كمال الملفّ اسمًا غير ذي صلة؛ لزيادة الأمان، ولكن في

الواقع، كان الملف يتكوّن من عدد قليل من الصور من تلك الأيام الجميلة التي قضاها في حركة المساواة في اسطنبول.

بالنسبة لشخصٍ آخر، كانت الصور تبدو عادية للغاية، حيث تمّ التقاطها أثناء الدردشة، والأكل، والضحك، والاستمتاع مع الرجال والنساء من نفس العمر، كانت مواقف يومية، دون أي علامة على تشدّدٍهم أو أي استعداد للعمل، كانوا شبابًا وفتياتٍ مفعمين بالأمل، ذوي عيون مُشرّقة، متفائلة، يمكن رؤية ثقتهم وإخلاصهم لبعضهم البعض على وجوههم، كان كمال يضحك بصوت عالٍ في كل صورة، ولم يتذكّر أنه رأى نفسه سعيدًا في صورة أو مرآة أخرى لفترة طويلة جدًا.

في البداية، تسلّل إلى حركة المساواة في اسطنبول فقط ليجد وينقذ طفلًا متمردًا لعائلة ثرية -كان يحاول أن يكون مناضلاً- من هذه المنظمة غير القانونية، كان يدرك المخاطر، لكنه كان في سنٍّ لا يعبأ فيها بالمخاطر، وعرضت عليه أسرة الصبي ثروة، في البداية، كان ينوي الانفصال عن المنظمة بمجرد أن ينتهي من عمله، لكنه لم يعثر على الطفل هناك فحسب، بل اكتشف أيضًا عالمًا جديدًا بالكامل، أنظف بكثير من حياته السابقة، حيث كان سعيدًا بالعيش فيه، كان يعرف الأشخاص المثاليين الذين يفكّرون في الآخرين أكثر منه، ويؤمنون بالقيم الأكثر أهمية من المال، ويحلم بعامٍ حيث يمكن للأغلبية، وليس قِلّة مختارة، أن تعيش بشكلٍ مريح، بل إنه وقع في حُبِّ أحدهم.

عندما رأى نيشه في الصورة الأخيرة، بشعرها الأسود القصير، وابتسامتها الدافئة، وعينيها الثابتين، وقلبها الكبير الذي ينعكس في نظرتها- دقّ قلبه فجأة، لم يفتح هذا الملف منذ سنوات، وكاد أن ينسى كم كانت لطيفة، وصرخ في جهاز الكمبيوتر الموجود في المنزل، قائلاً: «توقّف هنا!»، كما لو أن الصورة إذا اختفت، لن تعود أبدًا، أطاع الكمبيوتر الأمر على الفور، وتجمّدت الشاشة في تلك الصورة.

شاهد ذلك المشهد حيث ظهر على انفرادٍ مع نيشه لبضع دقائق دون التفكير في أي شيء، كانت هناك علامات لحُبٍّ عميقٍ في نظراتهما لبعضهما البعض، بالنسبة له، كان هذا حبًّا كبيرًا، أمَّا في قلبها، فإنه لم يتجاوز الصداقة أبدًا، لقد عانى كثيرًا خلال السنوات التي انفصل عنها، وافتقدها بشدَّة، وبعد ذلك، مع مرور الوقت، اعتاد على غيابها، على الأقل قبل ذلك، وعندما نظر إلى وجهها الآن، شعر برغبات وعواطف قديمة توقَّظ فيه، وكان هذا الأمر يُخيفه بسبب الأخطار التي قد تُشكِّلها بالنسبة له، ويجب عليه أن يعترف أنه يُسعدُه أيضًا، كان من الجيد أن ندرك أنه على الرغم من كل ما مر به، والألم الذي عانى منه، لا يزال بإمكانه الشعور بمشاعر إنسانية.

خاطب محيي الدين أفندي، قائلاً: «أغلقِ الملفَّ»، وتحوَّلت الشاشة إلى اللون الأسود للحظة، ثم تحوَّلت إلى مقطع فيديو لنهرٍ يتدفَّق برفقٍ عبر الغابة، مصحوبًا بموسيقى هادئة.

أصبح الحب من جانب واحد، الذي نما بداخله تجاه نيشه شيئًا لا يستطيع السيطرة عليه يومًا بعد يوم، لم يستطع الاستغناء عن رؤيتها؛ فقد كان يشعر بالغيرة من الجميع بأسرع ما يمكن، وكان يحاول القيام بأشياء مستحيلة ليكون قريبًا منها، عندما بدأ تطرُّفه يُهدِّد سلامة نفسه وأصدقائه في حركة المساواة في اسطنبول، اضطرَّ إلى تركهم بناءً على طلب نيشه، لم يكن من السهل عليه تقبُّل هذا، ولكن عندما قالت الفتاة الشابة: «إمَّا أنكَ ستذهب أو أنا»، لم يستطع المخاطرة بعذاب الضمير لفصل المرأة التي أحبَّها عن قضيتها، والتي رأت أنها معنى حياتها، كان سيفقدها على أي حال، على الأقل لم يكن يريد أن تكرهه.

كل ما استطاع فعله لنسيانها هو العودة إلى حياته القديمة في برج كريستال، وكان عليه أن يمحو كل آثار الأيام التي عاش فيها مع

المسلّحين، كانت الرشاوى التي قدّمها للشرطة والمسؤولين الحكوميين لا تُحصى حتى نجح في ذلك، ولفترة طويلة كان يعطي كل قرش يجنيه للآخرين، لكن الأهم من ذلك، أنه عمل في عشرات القضايا لكلّ من قوات الأمن وأعيان المدينة لسنوات، وكونَ صداقات قوية لا حصر لها، يمكن أن تحميه، وأصبح على دراية بالأسرار القذرة لهؤلاء الأشخاص، بعد كل هذا، فإن حديث المرأة التي تُدعى السيدة جول عن ماضيه في حركة المساواة في اسطنبول، بتهوُّرٍ شديد هكذا، وتمكّنها من الوصول إلى هذه المعلومات بسهولة- ليس أمرًا سهلاً، خاصّةً عندما طلبت منه الاتصال بالمسلّحين مرة أخرى، وكأنه عمل عادي... هل هذه المرأة مجنونة!

إذا لم تُقل إنها يمكنها أن تجد علاجًا لمرضه، لكان قد سخر من هذا الطلب منذ فترة طويلة، ونسي محادثتهما، ومع ذلك، في الوقت الحالي، استمر في إدارة عمل الشاشة الموجودة في يده بشكل مضطرب، ولم يستطع التخلص منها إطلاقًا.

قرأ مرة أخرى ما كُتب على الشاشة التي يبلغ عرضها إصبعين، دون أن يعرف ما يفكّر فيه.

الأستاذة الدكتورة جول توزلو

ألماس للخدمات الصحية

حلول إبداعية لحياة طويلة وصحيّة.

لا شيء مستحيل هنا.

الضغط الغامض الذي بدأ يشعر به بين حاجبيه جعله يتسم بمראה، كان خدّه مشدودًا، وتضخّمت أنفه تلقائيًا، وإذا حكمنا من خلال الأعراض، فإن الألم الذي لا يُحتمل، والذي أحال حياته إلى جحيم منذ سنوات سيأتي اليوم، في وقتٍ أقرب من المعتاد، لم يبدأ عادة



قبل حلول الظلام، ولم يزعج روتينه حقًا، لكن حقيقة أنه استغرق في الأفكار لساعات، وأجهد ذهنه، قد تسببت في مرضه على ما يبدو. التسلل إلى حركة المساواة في اسطنبول مرة أخرى سيكون انتحارًا... لا يمكن أن تنقذني رشوة، أو أحد المعارف هذه المرة، إذا تم القبض عليّ، فسوف يتم استجوابي مثل أي مقاتلٍ، فقوات الأمن تراقب كل تحركاتهم، وليس من السهل أن تأخذ ذلك في الحسبان...

كان الضغط يتحوّل ببطء إلى ألم، وكان الأمر كما لو أن أحدًا يضغط بإصبعه بكل قوته في منتصف حاجبيه، كانت المشكلة التي نمت في قلبه أنه يعرف جيدًا ما سيحدث بعد ذلك، وأصبح الإصبع أرقّ مع مرور كل ثانية، وسرعان ما تحوّلت إلى رأس مسمارٍ وهميّ، وبدأت يدها التي وضعها على إطار النافذة ترتجف من الألم.

لنفترض أنني فعلت هذا... لنفترض أنني تمكّنتُ مرة أخرى من الدخول في صفوف المسلحين، مَنْ سيساعدني هناك؟ مَنْ الذي سيزوّدني بالمعلومات التي تريدها هذه المرأة اللعينة؟ هل نيشه؟ بعد كل شيء، هل تُحرّك نيشه إصبعها من أجلي؟ حسنًا، ماذا عني... هل يمكنني تحمّل رؤية نيشه مرة أخرى؟ يا إلهي، هل من الممكن أن أحتمل هذا؟

بدأ المسمار الموجود بين حاجبيه يخترق جسده ببطء، كان الأمر كما لو كان يدور حوله، يمزّق كل الخلايا العصبية واحدة تلو الأخرى، اليد الخفية التي دفعته في جبهته لم ترحم، ولن تتوقّف حتى لو توسّل، كانت الدموع تنهمر على خديه، وكانت شفّته وذقنه ترتعشان كما لو كان مصابًا بنوبة صرّع، وكان صدره متعرّقًا، كان من المستحيل التعوّد على هذه الدرجة من المعاناة، رغم أنه عانى نفس الألم كل ليلة، دون استثناء لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر كل عام، في هذا

الموسم لفترة طويلة جدًا، عندما تفاقم الألم، لم يُعد قادرًا على أن يفكر في أي شيء أبدًا، وسقط على ركبتيه.

كان يشعر أن المسمار الذي دخل رأسه يتحرك الآن نحو عينه اليمنى، في الأيام الأولى من مرضه، خدش وجهه بأظافر أصابعه لانتزاع وإزالة هذا المسمار الوهمي، وفي إحدى المرات كانت عيناه على وشك أن تبرزا، وكان قد تبوّل عدّة أيّام تبوّلًا لا إراديًا، من الخوف والألم، وبدأ في تقييد يديه لتجنّب الضرر الدائم في الرحلات الاستكشافية اللاحقة، على الأقل كان قد جعل عقله يعترف بأنه لم يُعد هناك فائدة الآن، يمكنه أن يرفع يديه عن وجهه، وينتظر حتى ينتهي التعذيب من تلقاء نفسه.

اشتدّ الألم عندما وصل المسمار الوهمي إلى العين، الآن شعر كما لو أن شخصًا ما قد استهدف عينه بآلة أظافر، ويقود المسامير ذهابًا وإيابًا هناك، حيث انهيار، وصرخ، ولكمّ الأرض وصدره، وضرب رأسه بالحائط الذي كان يتكيّ عليه، وتدحرج دون وعي على الأرض، وبصق ونثر الشوائب الموجودة على لسانه، حوله، وكان قلبه ينبض بسرعة كبيرة، لدرجة أنه شعر وكأنه سينفجر بعد قليل، ومع ذلك، لم يكن يصرخ طالبًا المساعدة، وكان يعلم أنه لن يأتي أحدٌ لمساعدته.

استمرّ الألم قرابة الساعة، ولكن كالعادة، شعر كمال بأنه مدي الحياة، ثم انتهى الأمر تدريجيًا، على مهل، كما بدأ، وعندما اختفت آخر ذرّة من الألم، استلقى الشاب ساكنًا، ووجهه لأسفل على الأرض، ويتنفس بصعوبة كما لو كان قد عاد للتو من حافة الاختناق، كان غارقًا في العرق من رأسه حتى أخمص قدميه، وكان محيط عينه اليمنى أحمر على شكل حلقة، ومنتفخًا بشكل ملحوظ، كان يعلم أنه بعد بضع ساعات سيختفي هذا التورم والاحمرار، لكن الألم الذي عانى منه سيحمل الندوب على روحه طوال اليوم، والأسوأ من ذلك

كله، أن الأزمة القادمة ستأتي قبل أن يتمكّن من التغلب على آثار ما مرّ به.

بقي على هذا الحال لفترة طويلة، نوبات الصداع العنقودي مرتين في اليوم، جعلت حياته بائسة في هذا الوقت من العام، لم يكن وقت الزائر واضحًا عند الظهيرة، لكنه كان دائمًا يَطْرُق بابه في نفس الوقت في المساء، وبعد أن استردَّ بعض القوة، نهض من الأرض وهو يرتجف، ومشى بثبات، ووصل إلى أقرب كرسي، وألقى نفسه مثل كتلة صلبة على وسادة ناعمة، لدقائق جلس كامليت، دون أن يفكر في أي شيء، وحتى دون أن يُحرِّك إصبعه، ثم أدار رأسه بضجر، ونظر من النافذة إلى السيارات «البرّ جوّية» التي تطير في نقاط بعيدة، وما وراءها.

سوف أذهب إليها... سأذهب إلى السيدة جول... سأعرف ما هو العرض... ما الذي يمكن أن أخسره؟ بحق الله، ماذا يمكن أن يكون أسوأ من ذلك؟ ماذا لو كان هناك احتمال حقيقي؟ ماذا لو كانت تستطيع حقًا أن تنقذني من هذا الألم... حتى إنني أستطيع أن أقتل شخصًا من أجلها.

## 7

أخذ كمال نفَسًا عميقًا من الهواء البارد الذي لفح وجهه عندما صعد إلى السطح، لقد مرَّت بضع ساعات منذ أن اختفى الألم في عينه، وانحسر التورم من حوله بشكل كبير بفضل قالب الثلج الذي وضعه عليه، استراحت روحه من خلال الاستلقاء في آلة المحاكاة لمدة نصف ساعة، وتمشَّى بشكلٍ خيالي بجانب بحيرة في المساحات الخضراء والاستمتاع إلى الطيور، لا يزال يشعر بالتعب، توقَّف لبعض الوقت للاسترخاء، ولكي يستطع أن يفكر جيدًا، وغسل ذهنه بالهواء النقي، رفع رأسه، ونظر إلى الطوابق العليا من البرج الذي اخترقت السحب سقفه، إذا كانت الرياح تهبُّ بهذه القوة في الطابق الثمانين، فَمَن يدري أي نوع من العاصفة كانت تثور في الطوابق الأعلى؟ كان يتردَّد على شُقُق العملاء الأثرياء الموجودة بالقرب من القمة، ولكنه كان يصل إليها دائمًا بواسطة المصاعد فائقة السرعة، ولم يتمكن من العثور على مكان لسيارته لأن سطح الأثرياء كان مليئًا بأحدث

طرازات السيارات «البر جوية» الخاصة بهم وعائلاتهم، كان يجب أن يكون مهندسو المدينة لديهم بُعدُ نظر، وكان يجب عليهم أن يجعلوا أسطح مواقف السيارات أوسع، حسنًا، ربما اقترحوا ذلك، لكن مديري البرج الضخم تجاهلوه، حتى تتمكّن مواقف السيارات، التي تقع في الطابق العشرين، من جني الأموال.

في العام الماضي، أعطاه صاحب مصنع كبير للروبوتات شيكًا ضخماً لمراقبة زوجته الشابة، التي كان يشكُّ في خيانتها، كان الرجل على حق، حتى إن المرأة كان لديها عشرات العشّاق، وليس واحدًا فقط، ولكن حقيقة أن أيًا منهم لم يكن بشرًا كان يزيد الوضع تعقيدًا، وعندما أثبت بالصور أن زوجته كانت ميكافيليّة، وأنها مارست الجنس مع كل جهاز ميكانيكي كان يروق لها، من الروبوتات إلى السيارات «البر جويّة»، لم يَقم رجلُ الأعمال المحافظ بتطليقها فحسب، بل أعطى كمال أيضًا سيارة «برّ جويّة» جديدة في مقابل التّسّتر على هذه الفضيحة، وعدم تسريبها لأي شخص؛ لذا فبدلًا من السيارة «البر جوية» القديمة المخضرمة التي اشتراها مستعملة منذ عشر سنوات، كانت هناك الآن سيارة فولفو مُذهلة، مُزوّدة بأحدث مراوح جنرال موتورز موجودة على السطح، إذا حاول شراءها بالمال، فسيُتعيّن عليه دفع كل ما يدّخره طوال حياته، من أجل أقساط هذه السيارة.

قام بتوصيل الشاشة الموجودة في يده بكمبيوتر السيارة، وسجّل العنوان الذي سوف يذهب إليه على النظام، في الواقع، لم يكن سائق طيار سيئًا على الإطلاق، كان بإمكانه الطيران بسهولة حتى البرج الأحمر، حيث يوجد مكتب السيدة جول، لكنه كان يشعر باحتياجه عاجلاً أو آجلاً إلى طيّارٍ آليٍّ للهبوط بأمان على سطح الطابق الصحيح.

تمّ فصل الأجنحة التي تحمل المراوح الرأسيّة عن فتحاتها على جوانب السيارة «البر جويّة» بضغطة زر، وكلما تكلّفت ثناياها،

تَمَدَّدَتْ بشكل أطول وأعلى، وعندما بدأت المروحة الكبيرة الموجودة في الجزء الخلفي من السيارة في الدوران، تحرَّكت قولفو ببطء إلى الأمام، وعندما وصَلَتْ إلى منطقة الإقلاع في السطح، ضغط كمال على زُرٍّ جديد، وقام بتشغيل المراوح العمودية، وبعد ثوانٍ قليلة، رُفِعَتْ عجلات السيارة «البرجوية» عن الأرض، ومع إمالة المراوح قليلاً للأمام، بدأت في التحليق إلى الأمام.

كانت هناك حركة مرور كثيفة للغاية في السماء اليوم، وكان الأشخاص الذين تَمَّ حبسهم في منازلهم، بسبب الأمطار الغزيرة الأسبوع الماضي قد انتهزوا الفرصة وخرجوا للاستمتاع بجمال الطقس، تومض عينا كمال للحظة على النظارة الإلكترونية الموجودة في مقبسها بجوار عجلة القيادة مباشرة، حيث يؤدي ارتدائه لتلك النظارة أثناء تحليق هذه السيارة إلى تقليل خطر وقوع حادثٍ إلى الصفر تقريباً، بطريقة ما كانت قولفو ترى ما أمامها من خلال عينيها، وتقوم بتعديل سرعتها وزاوية طيرانها لتقليل المخاطر، لكنه لم يجرؤ على ارتداء النظارة الإلكترونية لأنها ستجهد عينيه، كما لو كان يشاهد فيلماً ثلاثي الأبعاد، كان من الأفضل الابتعاد عن أي شيء قد يتسبَّب في صداعه مرة أخرى، وعلاوة على ذلك، بعد ترك حركة المرور في هذا الجزء من المدينة، لن يكون هناك زحام كبير في الهواء حتى البرج الأحمر، كان يكفي أن يزيد من انتباهه قليلاً لطيران سَلس.

نقر على زر الهاتف الموجود على عجلة القيادة، هاتَفَ أوَّلَ رقم من الأرقام المسجَّلة، بعد أربع دَقَّاتٍ رنين مزعجة، سُمع صوتٌ غاضب لامرأة شابة، قائلة:

«في الوقت المحدد! في الوقت المناسب كالعادة! قبل بضع ثوانٍ، كنتُ على وشك ابتكار اختراع من شأنه أن يغيِّرَ العالم، لكن السيد كمال صديقنا، بتوقيته المثالي، منعني من الدخول في التاريخ مرة

أخرى! هل وضعت كاميرا أو شيئاً ما في مستودعي يا عزيزي؟ هل تفعل ذلك عن قصد؟ يقول الشيطان لا تردّي على هاتف ذلك الرجل اللعين، دعيه يرنّ حتى ينفلق، حتى ضعيه في قائمة المرفوضين، بحيث لا يتمكّن من الوصول إليك!».

سخر كمال، قائلاً: «يبدو أنّك نهَضتِ في الجانب الخطأ مرة أخرى، يا أوقيانوس... آسف، لم أكن أعلم أنّك حريصة جدّاً على تغيير العالم! لا تجعلي الأشياء تذهب سُدّى كما كان من قبل! ليتك لم تتكلّمي بدلاً من الحديث كثيرًا، يا عزيزتي، هل وضعنا مسدسًا في رأسك؟».

بينما كان كمال يبتسم بسعادة، كان يشاهد شاحنة «بَرّ جوّية» تطير بالقرب منه، كانت مَرَكَبَةً ضخمة بثماني مراوح، ولها عجلات من أجل الأرض، وكان مكتوبًا على جسمها الأزرق الداكن «دمير أوغلو»، بأحرف ضخمة ولامعة، كان يعتقد أنه من الأفضل أن يرتفع قليلًا لتجنّب هذه السيارة الكبيرة، وسحب عجلة القيادة نحوه، وارتفع.

قالت: «انظر إلى المغرور! انظر إلى المغرور! لقد كِدَتَ أن تموت عندما لم ألتقط هاتفك للمرة الأخيرة، كم نسيّت ذلك بسرعة! لقد أخرجتُك من القبر! انتظر، دعني أذكّرُك بِمَهْمَتِكَ السابقة! كنت بالكاد تمسك بإطار خشبي حتى لا تسقط في بركة من النفايات السامة، لقد أنقذتُ مُؤَخَّرَتَكَ القبيحة في اللحظة الأخيرة! دعنا نتكلم بصراحة دون إطالة، ما نوع المشكلة التي تواجهها هذه المرة؟ يجب أن يكون هناك مُبرّر قوي لإعاقة عملي، الذي يستحق جائزة «كيتارو!». ».

أصبح صوت المرأة الشابة هادئًا، وكانت تتمتم وكأنها تتحدّث إلى نفسها، وقالت:

«الشيء الوحيد الأسوأ من عدم وجود أصدقاء هو أن يكون لديك صديق! كلمة حسين جوربوز إنه ليس أنبوبًا! إنه سيّئ، لكنه شاعر حكيم!». ».

ابتسم كمال، لقد استمتعوا كثيرًا باختيار هذا الخطّ المُشَقَّر مع أوقيانوس، إذا كان لديه مسدس على رقبته عندما اتَّصَلَتْ به، أو إذا كان في أيدي أعدائه، فيجب على حسين جوربوز أن يردَّ بسَطرٍ آخر في هذه المرحلة، بعد ذلك، ستستمع أوقيانوس إلى ما سيقوله لاحقًا بهذا الإدراك، وتحدّث وفقًا لذلك، كان يتمنى ألا يحتاج أبدًا إلى نظام الإنذار هذا الذي أقاموه حفاظًا على سلامتهم.

«كل شيء على ما يرام، يا أوقيانوس، يمكنك ترك اللعبة، حوض تجمع مليء بالنفايات السامة! كان ذلك مبدعًا جدًّا! لا يوجد أي خطر، أنا آمِنٌ تمامًا، أنا ذاهب إلى مقابلة عميل جديد، إنها حالة مُعقَّدة لا يمكنني التعامل معها بمفردي... هل يمكنني المرور عليك، إذا كان ذلك مناسبًا لك اليوم؟ هل أنت مستعدَّة للعمل معي مرة أخرى؟».

كان هناك صمتٌ قصير على الطرف الآخر من الهاتف، ثم سمع صوت الفتاة المتردِّد اللين.

«كنتُ أعتقد أنك لم تكن تعمل هذه الأشهر... لدرجة أنك لم تغادر المنزل دون داعٍ؟ بسبب مرضك المثير... ما الذي يحدث يا كمال؟ كيف يمكنك العمل في القضية بالطريقة التي أنت عليها؟ ماذا لو كان لديك أزمة غير مُتوقَّعة في الخارج؟ هل أنت واثق من أنك بأمان؟».

توقَّف كمال للحظة، وهو يمر بسيارته «البرَّ جوِّيَّة» من بين منطادين متجاورين مخصَّصين للإعلانات، مُرَكِّزًا انتباهه على الطيران، ثم أجاب بصوتٍ هادئ، قائلاً:

«سأخبرك بكل شيء، تحلِّي ببعض الصبر من فضلك، أولًا، أحتاج إلى مقابلة هذا العميل، والتحدّث إليه بالتفصيل، إذا أخذت القضية، هل ستساعديني، هل لديك عمل لا يمكنك تركه؟ سيكون من الأفضل إذا



علمتُ ذلك قبل أن أَعِدَّكِ بشيء، سأحتاج لك ولمهاراتك لحل هذه القضية».

قالت المرأة بصوت صادق: «إذا كان ذلك يعني لك الكثير...»، كان يروق لها شعور كمال بأنه بحاجة إليها، انتشر دفءٌ في قلبها.

«بالطبع سأبذل قصارى جهدي للمساعدة، متى خَذَلْتُكَ؟ كان لديّ عددٌ قليل من المهام الصغيرة، لكننا سنهتم بها، تعال عندما تكون متاحًا، ولنحدث».

شعر كمال بأنه محظوظ لوجود مثل هذه الصديقة على الرغم من كل المصاعب والألم الذي مرَّ به، إن وجود شخص ما سيكون بجانبه في كل الظروف يُعَدُّ أمرًا مريحًا، وضغط على الزر لإنهاء المكالمات.

وقال: «شكرًا لك يا أوقيانوس، لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل بدونك... أكملني هذا الاختراع الذي سيُغيِّرُ العالم بحلول المساء، على الأقل دعينا نختبره عندما أصل، أنا متأكدٌ من أنك قُمتِ بعمل رائع مرة أخرى».

قالت المرأة: «سأنتظر بالتأكيد عندما ينتهي اجتماعك، سيكون من الجيد بالنسبة لي أن أراك أيضًا، لقد اشتقتُ إليك، لم أرَ وجهًا بشريًا واحدًا منذ شهور، أخبرني قليلًا عما يحدث في المدينة».

ضحك كمال، قائلاً: «لا يوجد شيء تفتقدينه، ومع ذلك، سأخبرك بكل ما تريدين، بالطبع، أراكم قريبًا، لا تقومي بأي حماقة حتى آتي!».

بعد إغلاق الهاتف، نظر إلى السماء أمامه وهو سعيد، لفترة من الوقت، كان معتادًا على طريقة تَحَدُّثِ أوقيانوس التي تسخر من كل شيء في الحياة، يجب أن تكون مُمتنًا لذلك، مع الأخذ في الاعتبار أنها لم

تخرج من منزلها إلا إذا اضطرت إلى ذلك، وأنها لم تتحدث وجهًا لوجه مع أي شخص، غير كمال، لقد فُكّر في تلك الأيام الممتعة عندما كانت الفتاة الصغيرة تصبح جزءًا من حياته ببطء، بعد أن أدركت عائلة أوقيانوس أن ابنتهم كانت موهوبة، لكنها أيضًا ضعيفة في المهارات الاجتماعية وهشّة الروح، أصبحت العائلة مهووسة بحمايتها من العالم الخارجي، ولم تغادر أوقيانوس المنزل ليوم واحد حتى سنّ السابعة عشرة، وتلقّت تعليمها من مُعلّمين افتراضيين، وقضت كل وقتها مع الكتب والدراسات العلمية، ولم يكن لديها أصدقاء سوى الخدم الآليين، ولم تشك من ذلك مطلقًا، لقد كانت طفلة سعيدة، ولديها عائلة مُحبّة تعاملها دائمًا بتفهّم ورحمة، لقد أنشؤوا جنّة افتراضية حيث شعروا بالهدوء في منزلهم الكبير والواسع، واعتقد والدها أنها ستحقق اكتشافات من شأنها أن تُغيّر العالم عندما تكبر، وأنها ستكون شخصًا مهمًا للغاية، وكان يؤمن من كل قلبه أنها يجب أن تبتعد عن أي شيء من شأنه أن يصرف انتباهها عن عملها، حتى تلك اللحظة، فقدت الفتاة التي كانت تتواصل فقط مع أسرتها والأطباء الذين كانوا يزورونها من حين لآخر، والتي لم تعرف الحياة خلف الباب على الإطلاق والديها وذراعها وساقها في الحريق الذي اندلع في منزلهم، وسقطت في ظلام يصعب وصفه، عندما تُرِكَت وحيدة في العالم كله بنصف جسد، في دار الأيتام حيث واصلت حياتها، ظلّت دائمًا بعيدة عن الناس، وكرّست كل وقتها للروبوتات وبرامج الكمبيوتر، وخلقت عالمًا آمنًا، ولكن مقفّرًا، يمكن التنبؤ به كآلة.

عندما ناشدها كمال في قضية ما، تألفت محادثتهما الأولية من بضع كلمات بنعم ولا، وأصرت أوقيانوس على إجراء جميع مقابلاتها عبر الإنترنت، كما فعلت مع عملائها الآخرين، وعندما تعقّدت الأمور، واضطرًا للالتقاء، أدرك كمال على الفور كيف كان ينساق مع التيار عندما كان يتحدث وجهًا لوجه مع شخص ما، لم يجد الشاب صعوبة

في إدراك أن هذه الفتاة كانت تعاني من آلام تُمَيِّزُهَا عن أي شخص آخر، تمامًا كما كان يعاني من صداعٍ غير عادي، لم يكن من السهل عليه تكوين صداقات معها، ولكن بعد أن وثَّقت به أوقيانوس، ارتبطا ببعضهما البعض أكثر مما تَوَقَّعَا، جهود كمال للتقرب منها أكثر من أي شخص آخر، وقبوله كما هو، وعدم قدرته على مغادرة المنزل مثلها خلال الأشهر التي كان يعاني فيها من الصداع العنقودي- جعل للفتاة مكانةً خاصة في قلبه، الآن كانا يطرقان باب بعضهما البعض براحة؛ لعلمهما أنهما كلُّما كانا في مأزق لن يتمَّ رفضهما أو الحكم عليهما.

انخفض عدد السيارات «البرجوية» ومناطيد الإعلانات بشكل ملحوظ، مع خروج قولفُو من البرج العملاق، كان وزن المباني التي يزيد ارتفاعها عن ألف متر متناسبًا مع حجمها، ولم تستطع الأرض تحمّل مثل هذا الحمل في معظم النقاط وانهارت، وهذا هو السبب في أن المهندسين المعماريين في المدينة جعلوا أكبر عدد مُمكن من الأبراج العملاقة في هذه المنطقة، حيث وجدوا الأرض صُلْبَةً بدرجة كافية، بالطبع، كانت حقيقة أن الأغنياء يريدون العيش بالقرب من بعضهم البعض أحد الأسباب المهمة لذلك.

وبينما كان يطير بهدوء في السماء الفارغة أمامه، لم يستطع التخلُّص من الفضول الذي كان يَتملِّكه، وقام بتشغيل الكاميرا الموجودة أسفل السيارة، لم يهبط على الأرض لفترة طويلة، ولم يعتقد أن شيئًا قد تغيَّر هناك، لكنه أراد أن يراها بأَمِّ عينيه.

لا يمكن تمييز التفاصيل من هذا الارتفاع، لكن الحشد في المدينة بدأ أكثر من آخر مرة شاهده، والطرق التي اتَّسَعَتْ بابتلاع كل المتنزهات والحدائق وبرك المياه في الماضي، كانت مزدحمة بعدد لا يحصى من السيارات والشاحنات والحافلات التي لا يمكن أن تترك

سوى أمتار قليلة بينها، لن يكون من الممكن السير بأسرع من عشرة كيلومترات في الساعة في المدينة إلا في وقت متأخر من الليل، حتى المشي على الأرصفة سيتحوّل إلى صراع كبير.

عندما أُعيد بناء آيا صوفيا وجامع السلمانية، اللذين دُمّر معظمهما في إحدى الحروب الأهلية، وفقًا لأصولهما الأصلية، تمّ وضعهما على منصّات فولاذية تُدعّمها أعمدة يبلغ ارتفاعها مئات الأمتار، وهكذا، تمّت زيادة مستوى الأمن لديهما، وتم إنشاء طرق جديدة بين الأعمدة، كان من المأمول أن تُخفّف حركة المرور في تلك المنطقة قليلًا، وأولئك الذين أرادوا الصلاة يمكنهم الوصول إلى هذه المنصّات العالية بواسطة المصاعد الموجودة على الأعمدة، وتمّ رفع معظم الهياكل التاريخية ذات القاعدة العريضة فوق الأرض بنفس الطريقة على مرّ السنين.

عند النظر من هذه المسافة، بدا أن حشود الناس المنتظرين في محطات المترو والحافلات السريعة متشابكة، وعندما زادت المعارك المميّنة في المحطات، تمّ إدخال نظام التقييم منذ سنوات، ولم يكن بإمكان غالبية المنتظرين ركوب مركبة إلا بعد عشر حافلات سريعة أو أكثر، ومع ذلك، إذا غادروا المحطة، فإنهم ينتظرون مكانهم، خائفين من ألا يتمكّنوا من العودة في هذا الاضطراب، تمّت الإشادة بالتطوّرات في مركبات النقل في دروس تاريخ التكنولوجيا، ولكن حتى هذه التطوّرات لم تكن كافية للتعامل مع النمو السكاني في المدينة، وأدّى التّسرّب من إحدى محطّتي الطاقة النووية اللتين تم بناؤهما لتلبية احتياجات الطاقة المتزايدة في اسطنبول وجعل جزء كبير من المدينة غير صالح للسكن، إلى تضيق المناطق السكنية غير الملائمة بالفعل، ومع ذلك، فإن المباني، التي لا يزيد معظمها عن عشرين طابقًا، تمّ بناؤها بجودة يمكن للناس العاديين دفع ثمنها، وقد تمّ

بناؤها بالقرب من بعضها البعض لدرجة أنه لم يكن هناك طريق للمرور بينها في بعض الأحياء.

في البداية، أنشأ المهندسون المعماريون والمختَرعون العديد من المشاريع لجعل اسطنبول أكثر ملاءمة للعيش، وتم تنظيم مسابقات لهذا الغرض، ومع ذلك، عندما بدأت الحلول الدائمة مستحيلة أو باهظة الثمن، أنشأ رجال الدولة والأثرياء مدناً عمودية أطلقوا عليها الأبراج الضخمة، ولم يكن الاستثمار في المشاريع التي يمكن أن يستخدمها الجمهور بنفس القدر من قبل، بينما كانت تتطوّر تقنية السيارات «البرجويّة» كل عام، كان يتم استخدام نفس الحافلات السريعة على الأرض لعدّة قرون، بالطبع، لم يتم ذكر هذا مطلقاً في دروس تاريخ التكنولوجيا أو في أي وسيلة رسمية أخرى، فقد اتّهم هؤلاء بتسميم المجتمع، وسرعان ما اختفوا، ولم يُذكر أي خبر عنهم مرة أخرى، إذا لم يكن لدى كمال الفرصة للقاء ميليشيات حركة المساواة في اسطنبول، والتعرف على الماضي من مصادر مختلفة، لكان قد اعتبر أن مثل هذه الأفكار تُعدّ مُغالطات ومؤامرات القوى الأجنبية التي تحاول تعطيل النظام والسلام في اسطنبول.

عندما أفسد المشهد أدناه مزاجه المُحبَط بالفعل، قام بالضغط على زر إيقاف تشغيل الكاميرا، وتحوّلت الشاشة الصغيرة الموجودة في وسط عجلة القيادة إلى اللون الأسود، وتمّ استبدال صورة المدينة بشعار قولفو الأحمر، وتحت الشعار، كان علَم جمهورية مدينة شنغهاي المبرقش، يومض، وينطفئ، ويغمر بفخر كما لو كنّا قد صنعنا هذه السيارة الأنيقة المظهر.

وعندما أدارت السيارة «البرجوية» مُقدّماتها إلى الشمال، كان البرج الأحمر المدهش، الذي يرتفع ويدقق في السحب مرثياً من بعيد، ممّا لا شك فيه أنه كان الأكثر جمالية من الأبراج الضخمة

في اسطنبول، وكان له نفس الهندسة المعمارية تمامًا مثل إخوانه في جمهوريات نيويورك ولندن، ولونه الأحمر، الذي يصبح أكثر قتامة مع ارتفاعه، قد جعل المبنى يبدو كما لو كان مشتعلًا عند شروق الشمس، وكان مكانًا للعيش مُفضَّلًا بشكل خاص من قِبَل المطربين المشهورين، وصانعي الأفلام والأثرياء الذين يحبون الحياة البوهيمية، كانت الحفلات المجنونة تُقام كل ليلة في النوادي الليلية في الطوابق العليا، وكانت السيارات «البرجوية» تطير إلى هنا أفواجًا من الأبراج العملاقة الأخرى عندما يحلُّ الظلام، ولكنها كانت لا تزال هادئة.

عندما اقتربت قولقو بقدرٍ كافٍ من العنوان المحفوظ في ذاكرتها، سيطر عليها لضمان هبوط آمن، وكانت عجلة القيادة مقفلة، وظهر حولها ضوء تحذير أزرق، وانحنى كمال، الذي كان يعلم أن كل ما عليه فعله الآن هو الانتظار، إلى الورا، وتأمّل جمال المبنى الهائل، الذي كانت تفاصيله تظهر بشكل أكثر وضوحًا، مع تضيق المسافة الموجودة بينهما.

بعد ثوانٍ قليلة، دَوَّى صوتٌ معدني مرتفع داخل السيارة، كان من السهل فهم أن هذا الصوت ليس صوت إنسان:

«قولقو مع لوحة ترخيص 114TKHR، هذا هو أمن مبنى البرج الأحمر، يُرجى تقديم نفسك، نرجو منك عدم المضى قُدُمًا قبل أن تتم الموافقة على الاقتراب من البرج، خلاف ذلك، سيتم إطلاق النار، من واجبنا ضمان سلامتك».

عندما أتى الطيار الآلي للتحكُّم في المسافة، كان قد أوقف السيارة بالفعل في الهواء وفقًا للإجراء المتَّبَع في نظامه، وفحص الكمبيوتر الأمني للمبنى أولًا ما إذا كان هناك تحذير أمان حول السيارة في إعلانات الشرطة، من عدمه، ثم تمَّ توصيله بالكاميرا الداخلية، وفحص مقعد السائق ومقاعد الركاب، ونظر بواسطة الأشعة السينية

المضخمة، للبحث عن وجود قنبلة موجودة في السيارة «البر جوية» أو نظام سلاح مختلف، من عدمه، وتبعًا للتعليمات الموجودة على عجلة القيادة، حدّق كمال في الكاميرا، وظلّ ساكنًا حتى انتهاء فحص قزحية العين، وبعد الانتهاء من جميع عمليات التفتيش التي يمكنه القيام بها على هذه المسافة، سأل الكمبيوتر كمال بأدب، قائلاً: «لمن أتيت؟».

قال كمال: «ألماس للخدمات الصحية، لديّ موعد مع السيدة جول، هلّا قلتَ لها إن السيد كمال قد وصل».

أجابه الكمبيوتر، قائلاً: «زيارتك مُسجّلة لدينا، يا سيد كمال، لقد كُنّا بانتظارك، مرحبًا بكم في البرج الأحمر، ونتمنى لكم هبوطًا آمنًا، لجميع احتياجاتك يمكنك الوصول إلى إدارة المبنى من خلال قناة الاتصال برقم أربعة، رمز إنذار الطوارئ هو ستة- ثلاثة- ثمانية».

استدارت إحدى المدفيعات المضادة للطائرات ذات الأربع فوهات مُوجّهة نحو السيارة «البر جوية» في هذا الاتجاه، من أجل تَفْقُد مركبة أخرى تقترب، لكن كمال كان يعلم أن المدفع الآخر سيتتبع كلّ حركاته حتى تهبط فلولقو بهدوء على السطح، لقد اعتاد على نظام الأمان القياسي هذا، مثل كل من يعيش في الأبراج الضخمة.

بعد وضع العجلات على السطح الواسع والمزَيّن بالزهور الاصطناعية، انطلق كمال متحمّسًا للعثور على إجابات لأسئلته في أسرع وقت ممكن، وعندما شاهد الابتسامة الضخمة على وجه السيدة جول، التي كانت تسير نحو السيارة «البر جوية» مع حراسها خلفها، شعر بعدم الارتياح، رغمًا عنه، وكان الأمر كما لو أن المرأة كانت سعيدة بمجيئه إلى هنا، وكأنها انتصرت.

قالت: «مرحبًا سيد كمال، كنت سأحضر عشاء عمل مُهمًا الليلة، ولكن عندما أخبرني مساعدي بأنك قادم لزيارتي، ألغيت جميع

خُطَطي، ولم أرغب في تفويت فرصة التحدُّث إليكم مرة أخرى، أتمنى أن تكون قد استمتعت برحلة مريحة، تبدو السماء مزدحمة جدًا اليوم».

قال الشاب بقلق: «شكرًا لك»، أثناء مروره من السطح إلى الشقة، أدرك أن الكاميرات موجودة فوق الباب كانت تتعقَّب وتُسجِّل كل خطواته.

«نعم، كانت حركة المرور مزدحمة بعض الشيء، لقد كانت كذلك مؤخرًا، لن أمكث فترة طويلة لديك، ربما يمكنك حضور ذلك العشاء الذي تتحدَّثين عنه».

قالت المرأة: «لا يهم، يا سيد كمال، الأمر ثانوي بالنسبة لي الآن، ما حدث لزينب وعائلتها صدمني كثيرًا، لن أتمكَّن من تكريس نفسي لأبحاثي حتى يتمَّ حلُّ مشكلة هذه الحادثة، أنا أفكر في الأمر طوال الوقت، ولا أستطيع النوم في الليل، يجب أن ينال قتلُهم العقوبة التي يستحقونها، من أجل إغلاق هذا الحادث في ذهني، وأتمنى أن تكون قد قرَّرتَ قبول عرضي بعد أن فكَّرتَ فيه».

قال كمال: «في الواقع، لقد جئتُ للحصول على بعض المعلومات حول العلاج الجديد الذي كنتِ تتحدَّثين عنه. كنتِ قد قلتِ إنه يمكنكِ العثور على علاج لمرضي، أوَّلًا وقبل كل شيء أريد أن أتحدَّث عنه، ربما يمكننا إيجاد حلٍّ وسَط يجعل كلينا سعيدين، إذا كان ما تقولينه صحيحًا، فأنا على استعداد لدفع ثمن باهظ لك، كما تعلمين، أنا أكسب جيدًا، ولن أبخل بأي نفقات للتخلُّص من هذه الآلام».

وقفت السيدة جول في منتصف الشقة التي تفوح منها رائحة الثراء الشديد، والمجهزة بأثاث أنيق للغاية وباهظ الثمن، مع أعمال ثلاثية الأبعاد لفنانين رسامين مشهورين بالكمبيوتر مُعلَّقة على الجدران،



ونظرت إلى كمال نظرة شفقة، ثم استبدلت تلك النظرة بنظرة ودّ وتفاهم.

«كانت أزمة اليوم قاسية جدًّا، أليس كذلك؟ لا يزال بإمكانني تمييز التورم حول عينيك، أعتقد أنك وضعت الثلج عليه، لكنه لم يكن كافيًا، لا بُدَّ أن يكون ما مررت به من الصعب تحمُّله...».

هزَّ كمال كتفيه، وهو في حالة عجز، قائلاً: «بعض الأيام على هذا النحو».

قالت السيدة جول، وهي تشير إلى كرسي جلدي ضخم: «من فضلك اجلس، يا سيد كمال، هذه قضايا حسّاسة، دعنا لا نتسرع، أنا واثقة من أننا سنتفاهم عاجلاً أم آجلاً، كلانا بحاجة إلى المساعدة، نحتاج فقط إلى التعرّف على بعضنا البعض بشكل أفضل».

لم يعترض الشاب، فاحتمال أن تتمكن المرأة من علاجه جعل قلبه يرتجف، مهما حاول جاهداً لإخفائه، ومن أجل أن يكون قادراً على التفاوض، قال في البداية إنه لن ييخل بأي نفقات، في الواقع كان سيقدّم أي شيء لديه لتجنّب التعرّض لهذا الألم مرة أخرى.

قدّم روبوت منزلي اقترب بصمت على عجلاته الكروية الثمانية قهوة تركية ذات رغوة إلى كمال، وعندما تذوّق الشاب القهوة، أدرك أنها حلوة بالطريقة التي أحبّها، حقيقة أن السيدة جول قد قامت بإجراء تحرّيات عنه، لدرجة أنها عرفت عاداته وأذواقه، كان أمراً مرعباً بالنسبة له، ولهذا السبب لم يتناول الحبوب بنكهة الملبّن التي أحضرها الروبوت مع القهوة، على الرغم من أنه يحب ذلك في العادة.

ابتسمت المرأة، ونظرت مباشرة في عينيه، وقالت:

«بادئ ذي بدء، أشكرك مرة أخرى على حضورك إلى هنا، أنا سعيدة لأنك تثق بي، قبل كل شيء، دعنا نوضح شيئاً واحداً، للأسف، ليس لدينا منتج في مركزنا يمكنك شراؤه بالمال، بصراحة، إذا كنت تعمل بلا توقف طوال حياتك، وإذا ادّخرت كل قرش تكسبه، فلا يمكنك تحمّل تكاليف الأدوية التي ننتجها، نحن لا نصنع حبوباً أو شراباً يا سيد كمال، ألماس للخدمات الصحية تعمل على طُرُق علاج مختلفة جداً، نحن نصنع أدوية أعلى ممّا تتخيّل، ومتاحة فقط للأثرياء في العالم».

تحرك كمال بعصبية في مقعده، وبدأ يتساءل إلى أين تتجه المحادثة:

«لم أسمع عنك من قبل، لا يوجد مقال صحفي ولا شائعة عنك، إذا كنت تقومين بمثل هذا العمل المهم، فكيف يمكنك البقاء سرّاً بهذا الشكل؟».

استقبلت المرأة الشك الموجود في صوت الشاب بتفهم، وأجابت بابتسامة لطيفة، قائلة: «لن نسمعنا إلا من هم أثرياء بما يكفي لدفع أجورنا، عملاؤنا يأخذون الخصوصية على محمل الجد، لدينا أربع منشآت فقط في جميع أنحاء العالم، إحداها في اسطنبول، لا أستطيع أن أخبرك عن مكان المنشآت الأخرى، نصل إلى الأشخاص بالملف الشخصي المناسب، ونرؤج لمنتجاتنا، أما الآخرون فيجدوننا من خلال عملائنا الحاليين، ويقوم أكثر الأشخاص ثراء في العالم بتمويل أعمالنا وأبحاثنا الطبية، ونحن نضمن أنهم وعائلاتهم يعيشون حياة أكثر صحة وسعادة من الناس العاديين، لسنوات عديدة قادمة، يمكنك أن تقول عنا إننا مركز بحوث طبية حديث، تم إنشاؤه بالاشتراك مع النخبة».

وضع كمال فنجان القهوة على الصينية التي مدها روبوت المنزل الذي جاء بجانبه، وأخذ كأس الصودا وشربه في جرعة واحدة.

وابتسم قائلاً: «كأنني أستمع إلى قصة من الخيال العلمي! من الصعب جداً تصديق ما تقولينه؛ لذا، حتى لو كان كل هذا صحيحاً، فما علاقة هذا بمرضي؟ الصداع العنقودي مَرَضٌ لم يُعرف سببه بعد، ولم يتمكن أحدٌ من إيجاد علاج له لعدة قرون، أنا متأكد؛ لأنني بحثت في هذا طوال حياتي، ليس فقط في اسطنبول، ولكن أيضاً في جمهوريات المدن الأخرى، سافرتُ حول العالم من أجل هذه المشكلة، لسنوات، والتقيتُ بعدد لا يُحصى من الأطباء ومراكز العلاج، هل تدعين أنك وجدتِ حلاً دائماً؟».

قالت السيدة جول: «إذا كان الصداع العنقودي مرضاً شائعاً جداً، فكُنْ واثقاً من أنه يوجد علاج بسيط له، يمكن أن يتوصَّل الناس إليه، وللأسف، فإنه مرض نادر جداً، لدرجة أنه لم يكن أبداً له أولوية بالنسبة للمجتمع، ولم تستثمر أيُّ دولة بشكل كبير لإنتاج علاج له».

معظم الناس لا يعرفون حتى بوجود مثل هذا المرض، وإذا كان عدد قليل فقط من الناس يعانون من مرض ما، فإن المجتمع يُفضِّل تجاهُّله على تكبُّد نفقات باهظة لعلاجِه، ويديرون رؤوسهم، ويتصرَّفون وكأنه غير موجود، قد يعتقد المرء أن الألم الذي لا يوصف، مثل نوعٍ من المُنبِّه، يحدث في نفس الأشهر من كل عام، وفي نفس الوقت كل يوم، هو مرض مُختَلِق، لكن أنا وأنت نعلم أنه ليس كذلك، أعلى مستوى من الألم يمكن أن يتحمَّله الإنسان، إنه عذاب كبير...».

تمت كمال بحزن، قائلاً: «لا يستطيع كل شخص تحمُّل ذلك»، وكان قد تذكَّر الأشخاص الذين لم يتمكنوا من تحمُّل الألم، وانتحروا في العيادات، في السنوات الماضية، بينما كان يحاول يائساً الحصول على علاج.

وأكدت السيدة جول: «نعم، هذا صحيح، لا يستطيع الجميع تحمّله»، كان في صوتها حزن حقيقي، ولمحة من الاحترام، إذا جاز التعبير، «أنت شخص قوي حقًا، حتى تستطيع أن تغادر منزلك، وتأتي إلى هنا بعد أزميتك، ذلك يُعدُّ نجاحًا كبيرًا، أما عميلي فلم رجُلًا قوي الإرادة، كان رجُل أعمال ألمانيًا، وكان يمتلك عددًا لا يحصى من المصانع في جميع أنحاء العالم لإنتاج أجزاء الكمبيوتر، وكان أكثر ثراءً مما تتخيّل، لكن منذ أن أصيب بصداع عنقودي، كان يشعر بالضجر من الحياة، وأول ما قاله عندما جاء إلينا هو أنه إذا لم نتمكّن من علاجه، فسوف ينتحر، وبسبب الألم الذي عانى منه، فقد كان كل ما يملكه من أموال وأموال ليس له أهمية بالنسبة له، ووضع أموال غير محدودة أمامنا، وقمنا بتكوين فريق من أفضل العلماء والأطباء وعابرة التكنولوجيا في العالم، لقد قمنا بتعبئة التقنيات والأدوات الخاصة بنا، والتي لا تتوفّر في أي مستشفى، وما أنتجناه لعملاء آخرين، على مرّ السنين لهذا العمل، وبعد العديد من المحاولات الفاشلة، تمكّنّا من علاجه بتقنية جديدة تمامًا لجراحة المخ، لم يكن هناك حدٌّ للأموال التي يتمّ إنفاقها، ولكن مريضنا كان سعيدًا جدًّا، لدرجة أنه لم يحسب أي بنس عندما غادرنا، وفي هذه العملية، اضطرّ إلى بيع عدد قليل من مصانعه، لكنه لم يتحدث حتى عن ذلك، يمكن أن تكون أولويات الناس متغيّرة للغاية».

سأل كمال بدهشة، قائلاً: «إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا لم تنقله الأخبار التلفزيونية، لماذا لم تخبري الأطباء الآخرين؟ نحن نتحدّث عن مرض لم يعرف سببه وعلاجه منذ قرون! يمكنك حتى الفوز بجائزة أكرم طاشجي! ستكونين أشهر عيادة في اسطنبول...».

هزّت السيدة جول رأسها، قائلةً: «لا علاقة لنا بالجوائز والشهرة. ما يجعل شيئًا ذا قيمة هو نُدرته، يا سيد كمال، إذا كان بإمكان الجميع الوصول إليه بسهولة، فلن يكون له أيّة قيمة، اعتدنا على الإعلان

عن المنتجات التي اكتشفناها في شبابي وبيعها، ولكن بعد بضعة أشهر، تمّ عمل نُسخ لها في عيادات أخرى، ومستشفيات جامعية، وأصبحت اختراعاتنا شائعةً، وفقدت قيمتها، نحن الآن نشارك نجاحاتنا فقط مع أولئك الذين يمكنهم أن يقدموا المقابل، كُنْ مُطمئنًا، نحن نكسب أكثر من ذي قبل».

شرب كمال ما تبقى من الصودا، واشتدّ اضطرابه بشكل أكثر، ووضع الكأس على المنضدة الكريستالية المجاورة له، وقامت طاولة القهوة الذكية بقياس الوزن الموجود فوقها، وأرسلت المعلومات بأن الكأس أصبح فارغًا تمامًا، إلى الروبوت المنزلي، لم يستغرق الروبوت سوى بضع ثوانٍ، ليأتي مثل الريح بعجلاته الكروية، ويأخذ الكأس.

وقال كمال: «أريد أن أصدّقك، يا سيدة جول، لا يمكنك أن تتخيّلي كم أريد أن أصدّقك، يمكنني تجاوز الحدود التي لن أتجاوزها في العادة للتخلّص من هذا الألم، ويمكنني القيام بأشياء لن أفعلها في أي وقت آخر، ولكن فجأة تظهرين أمامي، وتقولين إنكِ تستطيعين علاج مرض عُضال، لا أعرف كيف يمكنني تصديقك... هل لديّ فرصة لرؤية منشأتك؟ هل يمكنك إخباري بتفاصيل هذه الجراحة؟ هل من الممكن أن تجعليني ألتقي مع الشخص الذي قُمتِ بعلاجه؟».

تنهّدت المرأة قائلة: «يمكنك أن تُخمّن أنني لا أستطيع فعل هذه الأشياء، أعتقد أنه يمكنني شرح مدى اهتمامنا بالخصوصية، لكنني أتفقُ معك، بالطبع تريد أن تقتنع قبل اتّخاذ القرار، ما أريده منك ليس القليل من الجليد، سوف تخاطر بحياتك المهنية، وربما حتى بحياتك، من خلال لقاء حركة المساواة في اسطنبول مرة أخرى، لا تقلق، لقد فكّرتُ في الأمر، وقمتُ ببعض الاستعدادات».

رفعت المرأة يدها، ونادت الحارس الأشقر، وهو أحد الحراس الواقفين على بعد بضعة أقدام، وعندما اقترب الرجل، أخرج صندوقًا

أسود صغيراً من داخل سُترته، مُحاطاً بخيط ذهبي، أخذ كمال الصندوق الذي سلّمه إليه الرجل، وفتحه بفضول، كان يحتوي على مسدس إبر، وعشر كبسولات.

قالت السيدة جول بصوت فيه ثقة: «خُذ هذه الكبسولات وجربها لبضع أيام. ستحقنها في صدغك عندما يبدأ الألم، لا يهم اليمين أو اليسار، مرّتين على الأكثر في اليوم، من فضلك لا تحاول أن تجرب المرة الثالثة إطلاقاً، يمكن أن يكون للجرعة الزائدة آثار جانبية خطيرة، لسوء الحظ، هذا ليس حلاً دائماً، ولكنه سيُخفّف ألمك، أمل أن يجعلك تعتقد أن حديثي ليس هراء، لقد زُرْتُ العديد من الأطباء، حتى الآن، وجربَت كلَّ مُسكّن للألم، ولم يكن أيُّ منهم مفيداً، أليس كذلك؟ لكنك ستري، هذه الإبر سوف يكون لها تأثير؛ لأننا نستطيع أن نفعل ما لا تستطيع المستشفيات العادية أن تفعله، يا سيد كمال».

انحنى المرأة إلى الأمام كأنها تكشف سرّاً، وقرّبت وجهها من كمال.

«ولكي تفي بطلبي، يجب أن نقضي على مرضك! كيف يمكنك مطاردة المجرمين وأنت مشلول بالألم مرتين في اليوم؟ يجب أن تكون قادراً على التجوّل بالخارج، وأنت مرتاح البال، يكفيك أن تساعدني في العثور على القَتلة الذين قتلوا أصدقائي، فاتّصل بأصدقائك في حركة المساواة في اسطنبول، وقمّ بحلّ هذه القضية من أجلي... واسمح لي بالانتقام للأشخاص الذين أحببتهم... ثم سأصطحبك شخصياً إلى منشأتنا، وأطلب إجراء الجراحة التي ذكرتها من أجل علاج دائم، أعدك بهذا من كل قلبي، وحتى ذلك الحين، خُذ هذا كدفعة أولى مني، حتى لو لم تنجح، ستأخذ على الأقل استراحة من معاناتك لمدة عشرة أيام، ألا يستحق الأمر المحاولة؟».

انحنت مرة أخرى، وابتسمت بلطف، قائلة:

«لا أعتقد أنني بحاجة لتذكيرك بأن هذه الإبر هي مُنتَجٌ خاصٌ، ومثل جميع منتجاتنا، يجب أن تظَلَّ سَرِيَّةً، إذا ذكرتَ ذلك لشخص ما، مهما كان السبب، فلن أتمكن من إعطائك واحدة جديدة.»

نظر كمال إلى الصندوق الموجود في يده، وفحص الإبر الموجودة فيه بتردد، ثم أغلق غطاء الصندوق، وربطه في حزامه بخطاف على ظهره، وقف وخطا خطوات قليلة تجاهها، وتوقّف أمامها مباشرة، ونظر باهتمام في وجهها، وقال:

«سوف أفكر في الأمر، يا سيدة جول، سأخبرك بقراري في غضون أيام قليلة، ما تطلبينه مني ليس بالمهمة السهلة، لست متأكّدًا من أنني أستطيع القيام بذلك، حتى لو أردتُ ذلك، فقد مرَّ وقت طويل منذ أن غادرتُ حركة المساواة في اسطنبول، لم أتواصل مع جهات الاتصال الخاصة بي منذ سنوات، لا أعرف ما إذا كانوا على قيد الحياة، أو ما إذا كان بإمكانني الوصول إليهم، لكنني أعدك أنني سأفكر في الأمر.»

قالت المرأة بنبرة موحية: «أنا متأكّدة أنك ستفعل ذلك يا سيد كمال»، وتركّزت نظراتها على عين الشاب المنتفخة.

«سوف نلتقي مرة أخرى قريبًا جدًّا، ليس لديَّ شكٌّ في ذلك...».

## 8

نظر حسام الدين چلبى إلى الدراويش الذين جلسوا القرفصاء على السجادة الحمراء الباهتة، مُصْطَفِّين حوله على شكل هلال، بودّ، وكأنهم أبناؤه، وكانت عيناه السوداوان شاردتين، الهدوء والحب على الوجوه جعلاه سعيدًا، وقام بمسح لحيته البيضاء التي نزلت إلى صدره، ونظر بعيدًا، كما لو كان يحاول عبور الزمان والمكان، ليرى الوجه المضيء لمولانا، صديق الله، في حضن الخلود.

أعاد انتباهه إلى الكتاب القديم البالي في يده، وتابع القراءة من حيث توقّف، قائلاً: «يا عزيزي، عُدْ إلى رُشدِكَ.

أنت تخاف وتهرب من الموت، في الواقع، أنت تخاف من نفسك.

ما تراه ويخيفك ليس وجه الموت، بل وجهك القبيح.

روحك تشبه الشجرة، أما الموت فهو ورقة لها، سواء كان ذلك جيدًا أو سيئًا، فقد نما منك.



نحن لا نحب أن يتمَّ قطعنا أو اقتطاعنا، والتفكير في الموت يجعلنا نشعر بالقشعريرة.

ومع ذلك، فإن الأشياء التي لا نحبها ربما تكون الأفضل بالنسبة لنا.

رفع رأسه من على الكتاب، وابتسم للدراويش من جميع الأعمار، الذين كانوا يراقبونه وكأنهم مفتونون به، وقال:

«دعونا لا ننسى يا أعزائي الهدفَ من ضرب البساط بالعصا... النقطة المهمة ليست هي ضرب البساط في الواقع، بل هي دفع الغبار، يجب أن تكون نصائح مولانا هذه دائماً في آذاننا، يجذب العالم الفاني الناس، والذين يضلُّون يظلمون الآخرين من أجل أموالهم وأملآكهم، ومع ذلك، فإن معرفة أن هذه الحياة مؤقتة يجعلنا أقوياء ضد أنفسنا.

يجب ألا تخاف من الموت، بل تخاف من التلوُّث بالشر أثناء الحياة، سوف نموت جميعاً عاجلاً أم آجلاً، ولا يمكننا تغيير هذه الحقيقة، لكن كيف سنصل إلى الهدف، كإنسان، وماذا سيُقال من وراء ظهورنا، فالأمر متروك لنا لاختياره، إن أصحاب الأراضي التي لا نهاية لها، والذين يعملون فيها هم أيضاً أجزاء من الروح التي وُلِدَت من طفلٍ بشريٍّ، وهي قطع من الروح التي هي انعكاس الله في هذه الدنيا، إن أحدهم ليس أكثر قيمة من الآخر؛ بعد وفاتهم، يدخل كلاهما نفس الأرض، ويتم استجوابهم بنفس الطريقة، بالنسبة لطفله، كلاهما أب وأم، بالنسبة لأمه، كلاهما ابن، ولحبيبته كلاهما حبيب، في نظر عشاقهم، كلاهما هو مركز هذا العالم، معنى الحياة.

هذا العالم الذي نعيش فيه، والذي من أجله نوذّي بعضنا البعض، هو ذرَّةٌ من الغبار في عالم لا يمكننا فهم حدوده، مَنْ مِنَّا يستطيع الوصول إلى النجوم التي تلمع في السماء بالليل؟ ما يجعل الإنسان ذا قيمة ليست الخاصيّة التي ستحوِّل إلى غُبَارٍ عاجلاً أم آجلاً في ذرَّة

الغبار هذه، كم من الناس خَفَّفُوا آلامهم، وكم من النفوس قاموا بتهدئتها، دعونا لا ننسى هذا، دعونا دائماً نذكر أولئك الذين انزلت أقدامهم، وهم يسرون على طريق الحق».

أَخَذَ نَفْسًا عَمِيقًا، ووضع يديه على ركبتيه، وانحنى إلى الأمام، ونظر إلى المولويين، وقال:

«هذا الكلام كافياً لهذا اليوم، حتى لو لم تكن مُتَعَبًا، فإن هذا الرجل العجوز مُتَعَبٌ الآن، دعنا نذهب إلى السماع الآن، لننظف أرواحنا معًا، دعونا نتخلّص من الغبار الموجود فوقنا، بشكلٍ جيد».

واحدًا تلو الآخر، نهض الدراويش بوجه مبتسم، وأخذوا أماكنهم وسط الكوخ، وبدأوا يستديرون حولهم ببطء، كانت أذرعهم ملفوفة حول أجسادهم، ورؤوسهم مائلة إلى جانب واحد، وكلّما كانوا يتسارعون كانت أذرعهم تُفَتِّح على نطاق واسع، وكانت تنانيرهم البيضاء قد بدأت تهبُّ مثل الريح، وموج مثل البحر، لقد كانوا هادئين ومسالمين لدرجة أنهم كانوا وكأنهم جزء من وحدة رائعة يتناغم فيها كل كائن في العالم.

بعد عودة حسام الدين چلبى إليهم لفترة، سرعان ما سئم من الآخرين بسبب التأثير الطبيعي للشيخوخة، وانسلخ عنهم بهدوء، دون أن يلاحظ أحد، حتى لا يمنع الأرواح من الرقص الإلهي، وسار إلى باب الكوخ على أطراف أصابعه، ووقف هناك لفترة، يشاهد السماع بالحبِّ، وشعر بأنه سعيد، وأنه بين أصدقائه، ولما زادت حاجته إلى الهواء النقي دخل ساحة التكية التي أصبحت أجمل بالزهور الموسمية، وتحولت إلى ساحةٍ مُلوّنة.

عندما تمَّ تعيينه في منصب چلبى لهذه التكية المولوية، لم يكن متأكّدًا ممّا إذا كان مستعدًّا لمثل هذه المهمة الهامة، لم يكن أبدًا شخصًا طموحًا، منذ أن كان طفلًا كان يحلم بحياة هادئة وبسيطة،

حتى إنه لم يكن له هدف إلهي مثل الترقية في الطريقة، في البداية، كان من الصعب جدًا تحمّل المسؤولية تجاه الكثير من الأشخاص وإدارة التكية، وبدلاً من تكريس نفسه بالكامل للسمع والصلاة، كانت إدارة التكية مسألة شاقّة بالنسبة له، وكان على الدراويش أن ينشغلوا بالكثير من الأعمال المُملّة، من العشاء إلى النوم، ومن استقبال الوافدين الجدد، إلى إبعاد أولئك الذين ضلّوا الطريق، عدّة مرّات كان يفكر بجدية في الهروب، والذهاب بعيداً، وضرب الجبال، والعيش بمفرده في الكهوف والتفكير، ومع ذلك، لم يستطع التخلّي عن النفوس التي اعتمدت عليه، ولا يمكن أن يتحمل مسؤولية تفكّك التكية. الآن، بالنظر إلى السنوات التي تركها وراءه، يمكنه أن يرى أنه على الرغم من كل مشاكله، كان يعيش حياة سعيدة في هذا المكان الجميل المليء بأصدقائه في الله، كان يشعر أنه وجد عائلة لنفسه، وأنه كان يمكنه رؤية الاختيار الصحيح.

كان كلب الحراسة الخاص بهم، يلدريم، يرقد كاميت في ظلّ البئر، لكن لم يكن لديه شك في أنه إذا سمع صوتاً غريباً، أو شَمَّ رائحة غريبة، فسوف يقفز على الفور لحماية أولئك الموجودين في التكية، مشى نحوه وانحنى، وهو يداعب شعره بحنان، كان هناك يرى أنه من الغريب أنه يطلق اسم يلدريم على هذا الحيوان الذي كانوا يحبّونه من صميم قلوبهم، فقالوا له كيف يمكنك تسمية كلب بلقب أحد السلاطين، كم كان هذا الإنسان غريباً، وكم كان فضولياً أن يخلق أصناماً جديدة لنفسه، وأن يبحث عن دوافع خفيّة تحت كل حجر، ومع ذلك، فإن السبب الوحيد الذي جعله يطلق عليه هذا الاسم هو أنه كان بجانبك عندما كنت في حاجة إليه، لم يكن ينوي حذف كلمة كان يحبها، من القاموس، لمجرد أن سُلطاناً ورد ذكره بهذه الطريقة في زمانه! ثم ما الذي جعل السلطان أكثر قيمة من العباد الآخرين، والكائنات الحية التي خلقها الله؟

وبينما كان يقف على رُكْبَتَيْهِ هَكَذَا، وهو يداعب رأس الكلب، صدر صوت مُبْهِمٌ من خلف الكوخ على مسافة قصيرة، كان الأمر كما لو أن حجرًا قد أُلْقِيَ على شجرة، وسرعان ما سُمِعَ الصوت مرة أخرى، قام، واعتدل، قائلاً: «هيا، لِيَكُنْ خيرًا»، ومشى نحوه بخطوات هادئة، وخالية من الهموم.

وعندما مَدَّ بصره، ونظر نظرة خاطفة من جدار الكوخ الحجري، واجه مشهدًا رائعًا كان يبكي في كل مرة يراه، كانت عائشة هناك، وحيدة، وقد ارتدت ستره صوفية صفراء شاحبة وتثورة ناصعة البياض تصل إلى كاحليها، وربطت وشاحًا أرجوانيًا حول خصرها، وذراعاها ممدودتان، وكانت تقوم بالسماع وكأنها فقدت شعورها، وألقت رأسها إلى الوراء، وعيناها مغمضتان، ووجهها الجميل بشكل لا يوصف، كأنه منيرٌ بنور إلهي، حتى هذا المشهد وحده كان كافيًا لجعل قلب حسام الدين چلبی الحسّاس يرتجف، لكن ما حدث هناك كان أكثر من ذلك بكثير: بينما كانت عائشة تُحَلِّق على أطراف أصابعها، وكأنها تطير، وقفت في السماع مع كل شيء حولها، وارتفعت الحجارة الصغيرة، والأغصان والأوراق والزهور الموجودة على الأرض على بُعد أمتار قليلة من الأرض، لتُشكِّل حلقة ملوّنة حول الفتاة الصغيرة، وكانت تدور بنفس سرعتها واتجاهها، وتَشَكَّلَت حول عائشة هالة من كل ألوان الطبيعة، لقد كان هذا مشهدًا سحريًا، ولا بُدَّ أنه ينتمي إلى حكاية خرافية أكثر من العالم الحقيقي، ولكن، بما أن حسام الدين چلبی قد شهد العديد من التصرفات الخارقة للفتاة الصغيرة في الأشهر الماضية، لم يَعدَ يشكك في مثل هذه المشاهد بخوف أو اندهاش، بل بحُبِّ إلهي، وأسند كتفه إلى الحائط، ولم يُحرِّك ساكنًا، حتى انتهت عائشة من السماع، راقبها بابتهاجٍ مَنْ يشهد معجزة من الله، وتَدَحَّرَجَت الدموع ببطء على خَدَّيْهِ، وبلَّلت لحيته البيضاء، ومتم بهدوء بكلمات مولانا التي تَرَدَّد صداها في ذهنه في تلك اللحظة:

«حُبُّكَ لا يستوعبه أي مكان، إن قلبي فقط هو الذي يستوعبه،  
والآن لا يستوعبه قلبي أيضًا، إنه يتسرَّب من عيني...».

مرَّت الدقائق وكأن الوقت قد توقَّف، وبينما كانت الفتاة تقف مكتوفة الأيدي، وتُنزل ذراعيها، سَقَطَت الحجارة والأوراق والأزهار التي تدور في الهواء على الأرض مثل المطر، وفي اللحظة التي فتحت فيها عينيها، رأت چلبي يراقبها بحُبٍّ وخشوع، فركضت بابتسامة كبيرة، وعانَقَت يدي الرجل العجوز المتجعدَتَيْن، وقالت:

«أهلاً بك يا شيخي! منذ متى وأنت هنا؟ أردتُ أن أكون وحدي لبعض الوقت، وآمل ألا أكون قد أخطأتُ، كم هو جميل، وكم هو ساحر الاستماعُ إلى أصوات الطبيعة في صمت! وبينما أقوم بالدوران في هذه الزاوية، يبدو أن الطيور والحشرات والرياح تشاركني النشوة، يمكنني سماع كل واحد على حدة، أشعر بشعور رائع.».

ضحك حسام الدين چلبي بشكل أبويٍّ، قائلاً: «هل يمكنكِ أن ترتكبي ذنباً أَيْتَها الفتاة المجنونة!»، ونظر إلى عائشة بإعجاب، إذا لم تكن معجزة في حدِّ ذاتها، أنها يمكنها أن تتعلم لغتهم، وتُعَبِّر عن نفسها بشكل جميل في مثل هذا الوقت القصير، بينما كانت لا تستطيع نُطْقَ كلمتين عندما دخلت إلى الكوخ، فما هي المعجزة إذن؟ «ما يُسمِّيهِ الآخرون ذنباً يتحوَّل إلى حكمة من الله عندما تفعليته، أنتِ أمانة الله لدينا، ونحن نحدِّق في عينيكَ، وكلامك في كل لحظة، الشيء الوحيد الذي يُقلِّقني هو أن يأتي دخيل إلى التكيَّة، ويراك في هذه الحالة... يمكن أن يكون الناس في الخارج شرِّيرين للغاية، أَيْتَها الفتاة الملاك، إن مَنْ يبيعون أرواحهم للشيطان ليسوا قِلَّةً، يجب ألا تفقدي أعصابك.».

لقد فهمت عائشة جيِّداً ما يعنيه چلبي العجوز، ونظرت إلى الأرض بحزن، وقالت:

«لم يكن من المقبول بالنسبة لي الظهور أمام مَنْ قاموا بزيارتك مؤخرًا، أليس كذلك يا شيخ... لقد اعتقدتُ أنهم أصدقاء لك في الله مثلك، لم أكن أعرف...».

قال الشيخ: «للأسف لا، أيتها الفتاة الملاك، لا تتوقَّعي أن يتمكَّن الجميع من رؤية المعجزات فيك، تصاب عيون بعض الناس بالعمى مع مرور الوقت؛ بسبب الظلام الذي بداخلها، إنهم يسيئون استخدام الحكمة التي شهدها، والأسوأ مَنْ يقول إنهم يفعلون هذا في سبيل الله... يستخدمون الرب القدير لغضبهم! لا يُسمح في عالمهم الخاطيء أن تعيش فتاة صغيرة في التكية، وتقف براءة في السَّماع، لا يمكنهم التمييز بين ما أنتِ عليه حقًا، وما لست عليه».

ظَلَّت عائشة صامتة، وارتجفت شفتاها من الحزن، ونظرت في عيني الرجل العجوز، وهي تشعر بالذنب، وكأنها تريد أن تقول شيئًا، لكنها لم تجرؤ، ثم قُتِمت بصوت لا يكاد يُسمَع، قائلة:

«أنتِ تعاملتَ معي بشكل جيد جدًا... وأصبحتم جميعًا، كل الأشخاص هنا، مثل عائلتي، ومع ذلك، إذا كنتُ أُعرِّضُكَ للخطر، يمكنني مغادرة التكية، يا شيخ، قُلْها مرَّةً واحدة فقط، وسأذهب دون أن أنظر ورائي».

داعب حسام الدين چلبی شَعر عائشة، قائلاً: «إلى أين ستذهبن، أيتها الفتاة المجنونة؟! ماذا ستفعلن وحدك مع الأشخاص الغُرباء؟! أنتِ تنتمين إلى هذا المكان، وأنتِ أمانة لدينا! وإذا ذهبتِ فأين سيجدك سليمان باشا؟ لا تستغرقين في مثل هذه الأفكار المظلمة، ولا تهتمِّي كثيرًا بكلمات رجل عجوز، فأنتِ لا تُعرِّضينا للخطر، أو شيء من هذا القبيل! هيا، اذهبي إلى مقصورتك، واحصلي على قسط من الراحة، ستنضمِّين إلى الحشد على العشاء، وسنقرأ كلمات مولانا في المساء، وأنا أعلم أنها ستعجبك».

نظرت عائشة إلى وجه چلبى بتعبير حزين غير مقتنع، ثم أومأت برأسها بشكل مُهذَّب، وابتسمت، وانزلقت من بين ذراعي الشيخ، واندفعت إلى كوخها، وهي تقفز مثل الغزال.

ألقي الرجل العجوزُ الهمومَ التي كانت مستعرةً بداخله جانبًا، ونظر إليها بحب، ورفع رأسه في الهواء، كانت الشمس تلمع متلألئة من بين الغيوم الصافية، وكلما كانت الرياح تجعل الأغصان والأوراق تهتزُّ، كانت الطيور والفرشات تطير، وتُحلّق حولها، وكان العالم هادئًا، على عكس العواصف التي اندلعت بداخله، وعاد إلى البئر وهو يسير مُشتّت الذهن.

وبينما كان رجال حاكم السنجق، أشرف أفندي، يغادرون التكية، أعربوا دون مواربةٍ، عن أنهم يرون أن وجود عائشة هنا لا يتفق مع الشريعة، لقد كادوا أن يوبّخوه دون النظر إلى عمره، مؤكّدين بشكل قاطع أن أشرف أفندي لن يتسامح مع مثل هذا التجاوز، ومع ذلك، فإنه لم يكن يعتقد أنهم سيكونون في مأزق، طالما كانوا تحت رعاية سليمان باشا، حيث كان رُعاته أكثر قيمةً لدى السلطان من أي حاكم سنجق، ومع أنه لم يره منذ فترة طويلة، إلا أنه لم يكن يشعر بالقلق حقًا، حيث كان يرسل إلى التكية بانتظام المواد التي يحتاجونها كل شهر، لكنه لم يُمرَّ منذ فترة طويلة، ومع تأخّر زيارته كان قلقه يزداد، وكان يقول في نفسه، بنية الدعاء: «سليمان باشا، أين أنت، ماذا تفعل؟... إذا اشتقتَ لأمانتك، فقد حان الوقت لرؤيتها...».

بدأ الدراويش المتعبون بالخروج من السماعانة واحدًا تلو الآخر، وعندما رأى مظفر أفندي -الذراع اليمنى لحسام الدين چلبى في التكية- شيخه ينظر بعيدًا بوجهٍ قَلِقٍ، بجانب البئر، توجه إليه وهو حزين من داخله، كان رجلاً ضخماً الجثة يبلغ ارتفاعه مترين تقريبًا، وكان قادرًا على حمل جذوع الأشجار الضخمة تحت ذراعيه،

قيل إنه قبل وصوله إلى التكية صنع لنفسه اسمًا في المصارعة الزيتية، وبعد أن كسر رقبة خصمه في إحدى المباريات، وترك ثلاثة أطفال يتامى، أغلق على نفسه في التكية المولوية بدافع الذنب، وفي رواية أخرى قيل إنه وقع في مشكلة بسبب ابن أحد الأغوات تَسَبَّب له في عاهة في المصارعة، وجاء إلى تكية الدراويش ليختبئ، وهناك وصل إلى الهداية، والأغا ورجاله، الذين جاؤوا إلى التكية لقتله، كانوا مفتونين جدًا بالسَّماع، لدرجة أنهم عادوا إليها، حتى إن قلوبهم التي كانت تحترق بنار الانتقام أصبحت باردة، وانفجروا في البكاء، وعادوا دون الضغط على الزناد، لكنه لم يتحدث قط عن هذه الأمور.

«أيُّها الوليُّ، ما هي البحار التي استغرقت في التفكير بشأنها مرة أخرى؟ إذا كانت لديك مشكلة، شاركها مع هذا المسكين، اتركها تتفتت مثل الخبز الذي نتشاركه».

«أفكر في عائشة، يا مظفر أفندي، حاكم السنجق الجديد كان تحت تأثير ذلك الثعبان دميرجي ولي خوجه ذي القلب الأسود، ولسان الثعبان، وبقدر ما سمعت من أصدقائنا، فقد كان مقتنعًا بأن المولوية كانت ضد الدين، وكان يبحث عن عُذرٍ لإغلاق التكايا، ليس من الجيد أن يعرف بخبر عائشة ابنتنا، حيث يمكنه استخدام ذلك ضدنا».

«ألم نشهد شيئًا مشابهًا قبل ذلك يا حسام الدين چلبى؟ ألم يدخل واني محمد خوجه في عقل السلطان، ويعلن أننا أعداء الدين؟ لم ننحنٍ للظالم في ذلك اليوم، ولن ننحني اليوم مرة أخرى بإذن الله، إن طريقنا هو طريق الله، ولا يمكنهم اقتلاع ما في قلوبنا! وإذا أغلقوا التكية، سنؤدي السَّماع في منازلنا، يا للأسف! أليس كل موضع نزلناه هو بيت الله؟ حتى لو ضربوا أعناقنا سنلتقي بربنا بسرعة، وسيكون ذلك أجرنا!».



تَنهَّد الشيخ العجوز، قائلاً: «ليس ما سيفعلونه بنا هو ما يُقلِّقني يا عزيزي!»، استيقظ يلديرم فجأة في تلك اللحظة، وأصغى إليه، لا بُدَّ أن شيئاً ما أثار اهتمامه؛ لذلك نهض، وركض نحو الأشجار، حدَّق الشيخان وراءه للتَّوَّ وصمَّتَا، وقال:

«أنا قَلِقٌ حَقًّا بشأن ما هو في بطن الفتاة الملاك، ماذا سيحدث لهذا الطفل البريء إذا لم يحضر سليمان باشا قبل فوات الأوان؟».

عبس مظفر أفندي، قائلاً: «كم شهراً في رأيك يكون حملها؟ القابلة لا يمكن أن تكون مُخِطَّة، أليس كذلك؟ ربما تشعر بالغثيان لسبب آخر؟».

هزَّ حسام الدين چلبی رأسه قائلاً: «لا أعتقد ذلك»، ونظر بتمعُّنٍ إلى كوخ الفتاة.

تذهب القابلة إلى جميع القرى المجاورة هنا، ولم تكن مُخِطَّةً من قبل، قبل أربعة أو خمسة أشهر، سوف يظهر حمل الفتاة، وفي هذا الوقت لا يمكننا وقف النميمة، كيف نخفيها عن الأعين وهي في هذه الحالة، إلى أين نرسلها! كيف نفسِّر لأي شخص وجود طفل بلا أبٍ وُلِدَ في التكيَّة؟».

وضع الرجل العملاق يده الضخمة على كتف الشيخ وابتسم متفهِّماً، وقال:

«يجب أن نرسل خبراً بسرعة لسليمان باشا عن هذا الطفل؛ فهو من حقِّه أن يعرف ذلك، وربما حان الوقت لاستعادة أمانته».

لم يرغب حسام الدين چلبی حتى في التفكير في رحيل عائشة، والذي كان يعتقد بصدق أن هناك حكمة في إرسالها إلى تكية الدراويش هذه من قِبَل الرب القدير، والذي أظهر له المعجزات التي لم يشهدها طوال حياته، وأنه أحبها وعشقها مثل ابنته، على الرغم من

أنه لم يستطع قول ذلك علانية، وأنه لن يرى وجهها المشرق مرة أخرى، لكنه كان يشعر أيضًا بأنه لا يستطيع الهروب منها، وسيكون من الضروري قبول كل ما كان في القَدَر، كم عدد السنوات الباقية في هذا العالم الفاني على أي حال.

وهزَّ رأسه بشكل غامض في حالة من اليأس، وقال:

«أنت على حقٍّ يا عزيزي! إن إخفاء هذا عنه إثم، ولا يليق بنا، لقد وثق الباشا في هذه التكية دون قيِّدٍ أو شرط، اختَرَّ درويشًا قويًّا من بين الشباب، وأرسله لي في المساء، واسمحوا لي أن أكتب رسالة وأسلمها له، ليقوم بتسليمها لسليمان باشا في أسرع وقت ممكن، وليقرَّر هو بنفسه ماذا سيفعل، وحتى ذلك الحين، دعونا نبحث عن طرق لإبقاء فتاتنا الملاك بعيدة عن الأنظار، وفَقَّنا الله جميعًا».



## 9

خمسة عشر غليون، وست فرقاطات، وثلاثة عشر قادوسًا، وعشرات من سفن الدعم الصغيرة، كانت تشقُّ طريقها بهدوء في ظلام الليل على ضوء الفوانيس المعلقة فوق مُقَدِّمَتِها، وعند النظر إليها من بعيد، بدّوا مثل مئات من اليراعات تحلّق في نفس الاتجاه فوق البحر، كان الهدوء يسيطر على الأسطول، وانسحب القباطنة والبحارة وجنود البحرية ورجال المدفعية قبل المعركة الصعبة التي سيواجهونها قريبًا. كان بعضهم يقضي الوقت في العبادة والصلاة، والبعض الآخر يحلمون بأحبائهم الذين تركوهم وراءهم، وعائلاتهم، وبيوتهم الدافئة.

كانت إحدى سفن غليون، وهي برج ظفر، تمتلك أربعًا وثمانين بندقية، وكان لدى رودوس ستون مدفعا، أمّا «قبودانه» السفينة الرائعة التابعة لماندالزاده حسام الدين باشا، الذي تمّ تعيينه حديثًا كقبطان، فقد كانت تحمل مائة مدفع كاملة، تمّت صناعتها جميعًا في أفضل

مستودع أسلحة في اسطنبول، وإذا فتحت جميع السفن التي يضمها الأسطول النارَ في نفس الوقت، فسوف تشتعل نار جهنم الحمراء، وتتحرك الجبال من مكانها، بعد قمع اليونانيين، الذين تمردوا، في شبه جزيرة المورة (بيلوبونيز)، بناء على تحريض ودعم الروس، دون صعوبة كبيرة، أبحروا لمنع تكرار هذه الثورة، وطاردوا السفن الروسية المنتشرة بجوارهم، وكانوا في البحر المفتوح لفترة طويلة، وقلَّت الموانئ الموجودة لديهم بشكل منخفض للغاية، وكانوا يُخططون للرسو في ميناء تشيشمه، بين جزيرة صاقيز (خيوس) وقربابورون، إذا لم يتمكنوا من العثور على خصمهم لبضعة أيام أخرى.

كانت «جنكاور» التي خرجت لتوها من حوض بناء السفن، ويتولى قيادتها سليمان باشا هيمنلي، واحدة من ستة غليون كبيرة تشكّل الصف الأول، وهي أصغر بقليل من الخمسة الآخرين، وكانت تحتوي على 52 مدفعًا فقط، ولكنها كانت خفيفة الحركة وسريعة بما يكفي لإثارة غبطة كل الرؤساء، لم يكن سليمان باشا بخيلًا على الإطلاق بشأن هذه السفينة التي ستحلّ محلّ شاهميران، فقد جعل سطحها مصنوعًا من أفضل أشجار البلوط عالية الجودة، وقد قام بجلفنتها من قبل أمهر أسطوات اسطنبول، وأمر بتجهيز أخشاب أكبر من المعتاد من أجل «جنكاور»، التي أمر بأن تكون أنحف وأطول من السفن العادية، وبالتالي تقليل عدد القطع المستخدمة، وعدد المسامير اللازمة لتجميعها، قلَّت المسامير تعني وزنًا أقل، وهو أمر مهم لزيادة سرعة السفينة.

كان سليمان باشا يقف بمفرده بالقرب من مقدمة السفينة، ملفوفًا في ردائه بسبب الرياح الباردة، وينظر بعيدًا، وهو مستغرق في التفكير العميق، كان يحمل في يده الرسالة التي قرأها ربما خمسين مرة قبل خروجه إلى الحملة التي خرج فيها، وفي الأيام التالية، كانت الورقة مَهْرَتَةً، ومُمَرَّقة من أطرافها، وقد تبلَّلت بدموع الرجل العجوز من

عِدَّة أماكن، ومع ذلك يمكن رؤية الحروف اللؤلؤية الموجودة عليها بوضوح.

عندما أحضر الرسول الرسالة، كانت السفن قد أكملت استعداداتها للمغادرة، وبدأ بعضها في رفع مرساتها، وتمّ تحميل المئات من براميل الذخيرة والمؤن على متن «جنكاور»، وكان الطاقم ينتظر الأوامر بالإبحار، لم يكن هناك من سبيلٍ للمغادرة الآن، فقد فات الأوان للعثور على قبطان جديد، وإذا لم ينضمَّ إلى الحملة، فإن الأسطول سوف يصبح ضعيفاً، وسيفقد قيمته في نظر السلطان، وكذلك جميع الامتيازات التي يحتاجها لحماية عائشة في هذا العالم المليء بالشعابين السوداء.

ومع ذلك، كونه في وسط البحر الآن، بعيداً جداً عن مالكة قلبه، كان يمسك بروحه مثل مخلب حديدي، والظلام ينمو بداخله، كان قد اعترف أنه قبل وقت طويل من تلقّيه الأخبار، وقع بشدّة في حب الفتاة الصغيرة، وأنه على الرغم من علمه بأنها معجزة من الله، إلا أنه اقتنع بأنه لم يستطع اقتلاع هذا الحب من قلبه، ولن يستطيع أبداً؛ لذلك، مهما كان، فإنه لم يتمكّن من زيارتها لفترة طويلة، مع أنه كان يشعر بالرغبة في ذلك، وكان قد ابتعد عن التكية، خوفاً من أن لا يكون قادراً على كبح جماح رغباته، ومع ذلك، منذ اللحظة التي قرأ فيها عبارات حسام الدين چلبی، وعلم أن عائشة ستنجب له ولداً، كانت الرياح تهبُّ بدلاً من هذه المخاوف، والآن أصبحت الفتاة من محارمه، وشرفه، ولا بُدَّ أن الرب أراد ذلك، وإلا هل كان سيسمح بذلك، ويسمح لطفل بريء أن يسقط في رَحِم تلك الفتاة الطاهرة؟ ربما كانت هذه هي الحكمة الحقيقيّة في إرسال الفتاة إلى الإنسانية، فالمعجزات التي أظهرتها لم تكن سوى علامةٍ على معجزات أعظم من الطفل الذي سوف يرثيانه معاً، والتي من شأنها أن ترشد الغافلين إلى الإيمان! وإذا كان يحمي عائشة بكل كيانه وإمكانياته، فإنه سوف

يحمي أطفاله بنفس الطريقة، وسوف يعتني بهما، وكان سيذهب إلى تكية الدراويش، مع إمامٍ كَتُومٍ في أقرب وقت ممكن، ويتزوَّج عائشة، وسوف يقلع عن الإبحار والقتال، ولن يتركهما وحيدين أبدًا.

وبدلاً من الشعور بالحزن لعدم تَمَكُّنهم من العثور على الروس، كان سعيداً سرّاً بهذا الأمر، لهذا السبب فقط، وكان ينتظر على أمل أن يتعب القبطان من هذا المطاردة، ويعطي الأمر بالعودة إلى اسطنبول في أقرب وقت مُمكن.

عندما لاحظ قونيه لي إبراهيم ريس، مساعدته في المعسكر يسير بجانبه بخطوات قوية، سارع بإدخال الرسالة في الجيب الداخلي لردائه، واستدار، واستقبله بابتسامة مُزيّفة، وقال:

«السلام عليكم يا إبراهيم ريس، مرحباً يا أخي، ألم تَنَم جيداً الليلة أيضاً؟».

ردَّ البحار الماهر التحية باحترام، قائلاً: «وعليكم السلام سليمان باشا». لقد بَدَأ مهيباً للغاية، حيث كان وزن جسده أكثر من مائة وعشرين كيلوجراماً، وكان هناك من شبَّهه بقذيفة مدفعية بسبب قِصَر قامته، لكن لم يستطع أحد أن يقول هذا في وجهه؛ لأنه اشتهر بصفته العثمانية.

«ليس تلك الليلة فقط، ولكن كم ليلة، يا باشا، لم أكن قادراً على النوم، هؤلاء الكُفَّار لم يخرجوا، لقد تضايقنا، أتساءل في أي حفرة اختبأ الأوغاد، وكم يوماً نتجوّل عبثاً؟».

وأعرب سليمان باشا عن أمله، قائلاً: «ربما عادوا إلى ديارهم... علموا أننا كُنَّا وراءهم، وهربوا بسبب غضبنا، الروس لا يعرفون بحارنا؛ فهم يفتقرون إلى الخبرة في هذه المياه، وإلا كُنَّا قد وجدناهم الآن، أنا أعتقد ذلك، ما رأيك؟».

ومسح إبراهيم ريس لحيته، قائلاً: «لن يحدث ذلك»، ثم نظر نحو الأفق، وهزَّ رأسه، وقال:

«لست متأكداً من ذلك، يا قبطان باشا، جاء الرسول برسالة جديدة من الشاطئ، ووفقاً لما هو مكتوب فيها، كان قائد الأسطول الروسي هو الظالم الإنجليزي إلفينستون، كان يقول الكفار إنه رجل مشاكس، وليس مراهقاً يستسلم بسهولة».

نزلت الظلال الداكنة على وجه سليمان باشا، كان قد سمع اسم أمير البحر إلفينستون من قبل، وكان قبطاناً متمرساً، قاتَلَ البحرية العثمانية عدَّة مرَّات، وكان عدوًّا يحترمه، قيل إنه يعرف نقاط ضعف كلِّ من السفن التركية ورؤسائها ويستخدمها جيداً، وتعرَّزَت رغبته في عدم المواجهة وجهًا لوجه مع الروس هذه المرة، من خلال الأخبار التي تلقَّاهَا.

واصل إبراهيم ريس كلامه بصوتٍ قَلِقٍ، قائلاً: «ماندالزاده حسام الدين باشا ليس لديه خبرة في مثل هذه الحملات الكبيرة. إذا قاتلنا الكفار، أدعو الله أن يستمع إلى نصائح حاكمُ رودس، ولا يركب رأسه، أنا أحب حسام الدين باشا، وأحترمه، إنه رجل مهذب، ومخلص للإمبراطورية العثمانية، ومع ذلك، لم أستطع أن أفهم لماذا أعطوه منصب كبير القباطنة في أسطولٍ به قباطنة كبار مثلك، في نهاية المطاف، هو لم يكبر في البحار مثلنا».

«لا يزال سُلطاننا غاضبًا مني لأنني فَقَدْتُ شاهميران في تلك العاصفة الدموية، حيث غرق المئات من الانكشارية في ذلك اليوم، الأمر ليس بالأمر الهين... ومع ذلك، فإن الأمور تتحسَّن بمرور الوقت، وأنا أثق في ذلك تمامًا، لا تقلق، فإن السيد جعفر لم يصبح حاكمُ رودس عبثًا، سوف يمدُّ يد العون لحسام الدين باشا عند الضرورة،



وبإذن الله، إذا وجدنا الروس، فسوف نسحق هؤلاء الأوغاد بسهولة، ولا شك في ذلك».

هزَّ إبراهيم ريس كتفيه قائلاً: «إذا قلتَ ذلك، فالأمر كذلك يا باشا»، ثم استند بجسده الضخم على الدرابزين، وصمت.

كان سليمان باشا سيشعر بالتحسُّن إذا كان بإمكانه تصديق ما قاله من صميم قلبه لتهدئة مساعده، لكنه في الوقت الحالي كان يواجه صعوبة في دفع الغيوم عن وجهه.

بعد يومين آخرين من التجوُّل دون فائدة في عرض البحر، أعلن لجميع السفن أن الوقت قد حان لترفع السفن مرساتها، وذلك بواسطة بوق الرسول الذي صدر من قبودانه، كانوا بالقرب من ميناء تششمه، وكانوا قبالة خليج تششمه بين شبه جزيرة قرابورون وصاقيز (خيوس)، ثمَّ اصطفااف الأسطول العثماني في ثلاثة صفوف، وكان يوجد في الصف الأول سفن غليون التي تحمل من خمسين إلى مائة مدفع، وإزاء احتمال أن يقوم الروس بتغيير خططهم وضرب ميديلي (ليسبوس)، فإن اثنين من غليون العظماء كانا قد غادَرَ الأسطول في الليلة السابقة، وتوجَّها إلى هناك، وكانت السفينة الشراعية الأولى في الشمال هي السفينة المهيبة برج ظفر للجزائري السيد حسن، والسفن الصغيرة والقوادم والصنادل كانت موجودة في الصفين الثاني والثالث، مع ترك الغليون في المقدمة فجوة بينها؛ ممَّا يخلق مساحات يمكن لهذه السفن أن تطلق النيران للأمام إذا لزم الأمر.

كان من المعتقد على نطاق واسع أن هذه الحملة ستنتهي دون صراع، وأن العدو قد أبحر بالفعل نحو روسيا منذ فترة، وأن سفن الكُفَّار التي كانت تدور حولها كانت مجرد شائعة فارغة، تمَّ إراحة القباطنة، واسترخاء البحارة، وجعل البحارة يتخلَّصون من الشعور بالموت والقتل، وقد عادوا إلى محادثاتهم المبهجة، كانوا يعتقدون أنه

بعد أن جلبت القوادم الإمدادات اللازمة من الميناء، فإن حسام الدين باشا سيمثل للأمر أيضًا، وسترفع السفن مراسيها، وسيعودون إلى منازلهم، على الأرجح، وإذا تُرك الأمر لكبير القباطنة، فسيكون الأمر كذلك حقًا.

ولكن في 5 يوليو 1770، عندما استيقظوا بعد ليلة هادئة، وفتحوا أعينهم واحدة تلو الأخرى، وجدوا الأسطول الروسي متمركزًا أمامهم مباشرة.

كان هناك إحدى وعشرون سفينة في الأسطول الروسي، تتكوّن من عشر سُفن كبيرة، أربع منها كانت عبارة عن سفن حريق متعمّد صغيرة، لم يكن يعرفها العثمانيون جيّدًا، وكان عدد مدافع غليون الخاصة بهم أقلّ من برج ظفر أو قبودانه، لكنها كانت سريعة ورشيقة بما يكفي للتنافس مع سفينة سليمان باشا جنكاور، وبعد يوم من قيام الطرفين بقياس قدرة بعضهما البعض ووضع خططهما، بدأت الحرب بإطلاق النيران من قِبَل الأسطول العثماني، وردّ الروس بنفس العنف على هذه الطلقات الأولى، ولكن عندما بدأت السفن مناوراتها التكتيكية، انتقل التفوّق إلى الأسطول العثماني لفترة قصيرة، لدرجة أنه في حالة الاضطراب الذي حدث، تعرّضت «تريش سفياتيلاي» وهي إحدى السفن الروسية الكبيرة، لنيران المدفعية من قبل الأسطول الروسي «تريش إيراراشوف»، بطريق الخطأ، بعد أن استدار حول سفينة عثمانية، هذه المفاجأة التي لم تَدُم طويلًا، تمّ تجاوزها بتدخّل أمير البحر إلفيستون والمستشارين الإنجليز، وتمكّنت السفن الروسية التي تراجعَت، وعادت إلى حَظّها التكتيكي من استقرار الوضع في وقت قصير، رغم الخسائر الكبيرة التي لحقت بها.

من جهة، كان سليمان باشا يحاول ضرب العدو من خلال قيادة «جنكاور»، وتجنّب قذائف المدفعية التي تمطر عليهم، ومن ناحية

أخرى، كان يدعو الله أن ينجو من هذه الحرب، وأن يتمكّن من لمّ شمله مع عائشة، في الأيام الخوالي، بعد إطلاق المدفع الأول، كان ينزف دمًا، وكل ما كان يفكر فيه هو قطع أعناق المزيد من الأعداء، والعودة إلى الوطن مع النصر والغنائم الجديدة، ولكن الآن بعد أن فقدت الثروة والشهرة معناها، بدأت المدافع المتفجّرة تبدو كشياطين مخيفة، يمكن أن تفصله عن محبوبته وطفله، ولأول مرة في حياته، كان سمك القرش العثماني، المعروف باسم ملك القراصنة، الذي تجاوزت شهرته حدود الإمبراطورية العثمانية، خائفًا من الحرب.

وبينما تراجع الروس قليلًا، لاحظ بدهشة أن برج ظفر التابع لجزائري حسن بي قد تقدّم فجأة إلى الأمام، لم يفهم ما إذا كان ذلك بمثابة عرضٍ للتباهي أمام كبير القباطنة، أو أن جزائري حسن بي قد رأى فرصة لم يستطع استغلالها، لم يفهم ذلك، لكن السفينة المهيبة، قد وضعت الأمان جانبًا، وتوجّهت نحو العدو بمفردها، وعندما نظر من خلال منظاره، رأى أن السفينة التي طاردها برج ظفر هي «سف إيفستافى» وهي السفينة الرئيسية للأسطول الروسي، كان غليون العدو قد ابتعد كثيرًا عن أسطوله، وأصبح هدفًا سهلًا، في كل الأحوال، ومع ذلك، فإنه لو كان كبير القباطنة، لما سمح لحسن بي بشنّ مثل هذا الهجوم المتهوّر، لكنه كان سيطلب منه على الأقل القيام بذلك جنبًا إلى جنب مع سفن الدعم الموجودة بجانبه.

وسرعان ما دخلت غليونان عملاقان بهما ثلاثة مستودعات في نوع من المباراة، وقام برج ظفر بتنزيل حبال الأشرعة والصواري كلها، وهو يطر قذائفه على السفينة الروسية، وكسر الدقّة بضربة دقيقة، وسف إيفستافى التي فقدت السيطرة، تمّ جرّها بواسطة التيار، ووضعها بكل ثقلها على برج ظفر، كان سليمان باشا يشاهد ما يجري بمنظاره، ورأى جنود البحرية العثمانية تندفع إلى السفينة الأخرى، والبنادق تنفجر، والسيوف تتألق على ظهر السفينة، بدا أن الوضع في صالح حسن بي،

لكن السفن الروسية الأخرى، وصلت إلى هناك قبل السفن التركية، وبدأت في إطلاق النار لإنقاذ قبطانها، ونظرًا لأن القاذفتين عالقتان معًا، فقد كانت بعض قذائف المدفع هذه تنطلق على برج ظفر، وبعضها الآخر على سف إيفستاف، وكانت نار جهنم الحمراء تشتعل على كل من سطحي السفينتين، لدرجة أن أحدهم، الذي أخطأ هدفه، ضرب مخزن الذخيرة العسكرية لإحدى السفن الروسية أخيرًا، كان هناك انفجار كبير يمكن رؤيته حتى من شواطئ تششمه، وحاصرت النيران المتصاعدة في السماء السفينتين في وقت قصير، واشتعلت النيران بالسفن العثمانية والروسية، مع مئات الجنود الذين كانوا على متنها.

كان جَمْعُ رجالهم، الذين قفزوا في البحر لتجنب التعرض للحرق، هو العمل الأساسي لكلا الأسطولين، ولم يتضح مَنْ الذي أوقف إطلاق النيران أولًا، لكن سرعان ما كانت جميع السفن بعيدة عن بعضها البعض، وأعلن سلام غير رسمي، كما تكبدت السفن الأخرى خسائر فادحة، وكان هناك مئات من الضحايا؛ ولذلك ابتعد الأسطولان عن بعضهما البعض، ولُعِقَتْ جراحهما حتى المواجهة التالية، ومن ناحية أخرى، لم تكن القوادم والسفن الصغيرة التي كانت تحاول الوصول إلى جنودها المضطربين في البحر، تلقي قذيفة مدفعية واحدة على بعضها البعض. مكتبة سُرْ مَنْ قرأ

لم تتعرض جنكاور المقاتلة لإصابات كبيرة في معركة اليوم الأول، وسرعتها وخفة حركتها وبراعة سليمان باشا، قد حمتها إلى حد كبير من المدفعية الروسية، ومع ذلك، كان هناك حوالي ثلاثين قتيلًا وجريحًا على سطح السفينة، وكان أطباء السفينة يركضون من مكان إلى آخر، والفيون يحاولون إصلاح النقاط المتضررة من سطح السفينة.

وسأل إبراهيم أفندي -الذي لجأ إلى ظل الصاري الرئيسي، بينما كان يلفُّ ذراعه، حيث علقت قطعة من الخشب- قبطانه بقلق قائلاً:

«كيف ستسير الأمور يا رئيس؟ هؤلاء الكفار اتضح أنهم أقوياء، أليس كذلك؟ إنهم يهاجمون مثل الكلاب المسعورة! هل يمكننا التغلب عليهم، ما رأيك؟».

أوما سليمان باشا برأسه، قائلاً: «لقد نجونا من اليوم الأول جيداً، وفقدوا أكثر ممَّا خسرناه، سنخوض هذه المعركة، لكن من الواضح أنها لن تكون سهلة، إن سفنهم أسرع من سفننا، وسوف نضطر إلى ضربها».

«قبل قليل وصل قارب من قبودانه، وقام بنقل الأمر العاجل لكبير القباطنة، جميع السفن تبحر، وسننسحب إلى قاع قلعة تششمه في الليل، وكان حسام الدين باشا يقول إنه بما أن الروس يقاتلون بضراوة، فإنهم سيأتون وراءنا، وكُنَّا سنحمل مدافع القلعة، ونهزمهم بسهولة أكبر».

قطب سليمان باشا جبينه، قائلاً: «من أين جاء هذا!»، وفجأة استشاط غضباً، وقال: «إن مهارتنا في التحرك داخل الخليج تقلُّ بشكل كبير، لماذا نجعل حرباً انتصرنا فيها بالفعل، صعبةً! حسام الدين هذا الذي لا يعرف نفسه، ماذا يعتقد أنه فعل!».

قال إبراهيم أفندي: «الله لا يكتب خطيئة، ولكن ما حدث لبرج ظفر، يبدو أنه أخافه»، وخفض صوته حتى لا يسمع البحَّارة الموجودون بجانبه كلماته، «لقد فقدنا ثاني أكبر سفينة في الأسطول، وستكون قبودانه الآن هدفاً رئيسياً، يريد هؤلاء الملاحدون أيضاً الانتقام لفقدانهم سُفن أمير البحر، ليس لديَّ شكُّ في أنهم سيهاجمون قبودانه

في المرة القادمة التي يتم فيها إطلاق المدافع، ربما أراد حسام الدين باشا تأمين نفسه، مَنْ يدري».

وضع الرجل العملاق يديه على بطنه المهيّب، وخفض صوته تمامًا، وقال:

«في مثل هذه الأوقات، يمكن للمخاوف غير المتوقّعة أن تحيط بذهن المرء... فهل نبليخ حاكم رودس، يا باشا، ربما سيحذر كبير القباطنة من مخاطر هذه الخطوة، إذا أصدرت أمرًا، فسأرسل الرسول إلى سفينته على الفور».

صمت سليمان باشا، كان يفكر جيّدًا في كلمات مساعده الحكيمه، وخمد الغضب الموجود في قلبه ببطء، كان الانسحاب إلى الخليج عندما كانت لهم اليد العليا خطوة خاطئة جدًّا إذا أرادوا الفوز في هذه الحرب، ولم يكن لديه شكٌّ في ذلك، لكن هل كان يريد حقًّا النصر من قلبه، في تلك اللحظة؟ ألم يشارك حسام الدين باشا مخاوفه؟ ألم يكن جمع شمل عائشة وطفلها، التي جعلها الله أمانة لديه، بأمان، وعدم تركهما وحدهما وبلا رعاية في هذا العالم القذر- أفضل من كسب أو خسارة إحدى هذه الحروب التي تتجدّد كل عام؟ لقد حافظت مدافع قلعة تششمه على سلامتهم، على الأقل كان كبير القباطنة على حقٍّ في هذا الصّد، ولم يتمكن الروس من الاقتراب منهم، وربما يستسلمون ويعودون إلى منازلهم بعد فترة.

قال بصوت هادئ: «إذا اعتبر سلطاننا أن حسام الدين باشا جدير بهذه المهمة، فهو يعلم شيئًا، ولا يليق بنا أن نُشكّك في قرار سلطاننا، لقد أقسمنا على الولاء للإمبراطورية العثمانية، ولن نثور أو نقوم بأي تخريب، ومهما كانت الأوامر فإننا سنطيعها، إذا لم يعجب حاكم رودس هذا القرار، فسيتحدّث إلى كبير القباطنة بنفسه، فليس لنا أن

تَدْخُلُ بينهما، اذهب وقُمْ بتجهيز السفينة، وسنذهب إلى الخليج مع الآخرين ليلاً».

نظر إبراهيم أفندي إلى قبطانه بعيونٍ مُتردِّدة، مندهشاً من هذه الكلمات، ومع ذلك لم يكن لديه الشجاعة لمجادلة هذا الرجل الذي كان يعرفه، والمشهور باسم أسد البحار، ألقى التحية باحترام، ووقف، ومشى بعيداً لينفذ الأمر.

استغلَّ الأسطول العثماني الغسق، للابتعاد دون لفت انتباه العدو، أولاً، انسحب أسطول السيد جعفر حاكم سنجق رودس، ثم السفن الأخرى التي قطعت حبال المرساة، واحدة تلو الأخرى، إلى الجنوب، إلى خليج تششمه، ونظراً لأنهم لم يضيئوا المصابيح والفوانيس فقد ساروا بحذر في الظلام الدامس، بعد أن دخل أكثر من نصف الأسطول ضمن مدى مدفع القلعة، أدرك الروس الوضع، لكنهم لم يتدخلوا، ولم يُعرف هل كان ذلك لأنهم لم يكونوا مستعدين لاشتباك جديد بعد، وبعد أن دخلت جنكاور الخليج ورست مرة أخرى، رأى سليمان باشا أن العدو لا يزال لا يتحرك، فأخذ نفْساً عميقاً، ربما لم يستطيعوا هم أيضاً أن يروا أي فائدة من هذه الحرب، وكانوا يبحثون عن ذريعة للعودة إلى بلادهم.

تمَّ تشكيل خط الدفاع الأول من ثمانية غليون كبيرة في حالة جيدة، وبدأت السفن الأصغر الأخرى خلفها في خطّين، كان الجنود الموجودون في القلعة يحيئونهم بالتلويح بالأعلام، ورفع الأهالي الذين بدؤوا بالتجمُّع على الشاطئ أيديهم إلى السماء، وقاموا بالدعاء من أجل النصر.

وبعد ساعات طويلة من الانتظار المضطرب، بدأ سليمان باشا يعتقد أن الأمر قد انتهى مع حلول الليل، لو كان الروس عازمين على الهجوم لكانوا قد تصرفوا بالفعل الآن، وعلاوة على ذلك، لم يكن من

الممكن أن ينتصر الروس عندما كان الأسطول العثماني يحظى بدعم مدافع القلعة، وهو ما كان يمكن أن يكون هجومًا انتحاريًا، ربما كانوا سيغرقون بضع سُفن أخرى، ويقتلون بضع مئات من جنود البحرية، لكنهم بالتأكيد سيفقدون المزيد، لم يكن يعتقد أن أمير البحر البريطاني سيسمح بهذا الهجوم الجنوبي، الآن يجب أن يحاول القادة الروس إقناعهم بالعودة إلى بلادهم، ربما ينجحون في ذلك في وقت قريب، وكانت رؤية السفن الروسية الكبيرة الراسية بعيدًا، بالمنظار الموجود في يده، تُعزِّز هذه الفكرة، حيث رأى أنهم لم يكونوا مستعدين لأي معركة.

وفي ذلك الوقت، حدث تطوُّر غير مُتَوَقَّع، حيث انطلقت عشرات المدافع في الظلام؛ ممَّا أحدث فجوة ضخمة في الصاري الرئيسي للغليون المجاور له، وعندما حوِّل منظاره إلى المكان الذي فُتِحَتْ فيه النار، رأى أن ثلاثة أو أربعة غليون روسية صغيرة، قد دخلت الخليج مع عَدَدٍ قليل من الفرقاطات إلى جانبهم، مستفيدة من الظلام، وكانت سفن غليون الكبيرة للعدو تقف في مكانها، ولم يكن هذا هجومًا شاملاً، وفي غضون دقائق قليلة، تمكَّنوا من دفن هذه السفن الصغيرة في البحر، دون الحاجة حتى إلى مساعدة مدافع القلعة، ماذا كان هؤلاء الروس يحاولون أن يفعلوا، هل كانوا متعطِّشين للموت؟

لقد وضع نفسه في مكان خصومه، وفكَّر في كيفية التخطيط إذا كانت لديه سفنهم، حاول ألا يسمع أصوات المدافع، وأن يتعد عن البيئة التي كان فيها، ويرى الخليج والسُّفن من خلال عيون الأميرال البريطاني، وفجأة، أصبح عقله مستنيرًا؛ إن هذا الهجوم الذي يبدو بلا معنى، يمكن أن يكون له فائدة واحدة للعدو! والنتيجة التي توصَّل إليها جعلته في حالة من الذعر الشديد، وبدأت يدها الممسكتان بالمنظار ترتجفان، كان عليه أن يُحذِّر الآخرين، وأن ينفخ في البوق



قبل فوات الأوان! بحق الله، كان يجب أن يفعل ذلك في أسرع وقت ممكن!

كان هناك تشنُّج مفاجئ في خده، وشعر بانزعاج غريب كما لو كان أحدهم يضغط بأداة حادة بين حاجبيه، وضع يده هناك معتقداً أنه مصاب، ولكن لم يكن هناك دم، لم يكن مثل أي ألم آخر يعرفه، وسرعان ما اختفى الشعور بالضغط، وحلَّ محله ألم رهيب يعادل مسماراً وهمياً يخترق عينه اليمنى ببطء، وكان قوجه ريس قد أصيب جرّاء إطلاق النار عليه، وطُعنَ عدّة مرّات في عشرات الحروب التي شارك فيها، كانت قطعة من الخشب قد علقت في ربلة الساق، وكان قد ضُرب على رأسه بمجرفة، ولكن أيّ منها لم يؤلمه إلى هذا الحد، جلس على ركبتيه، ووضع يديه على وجهه، وحاول أن يمسك هذا المسمار الوهمي، وينزعه، ولكن لم يكن هناك مسمار يخلعه، ولم يستطع فهم ما كان يحدث له.

في الوقت نفسه، وضع الروس خطة الأدميرال إفيستون موضع التنفيذ، ودخلت أربع سفن حارقة، وسفينة نقل صغيرة - كانت مخبأة وراء سُفن كبيرة حتى ذلك الحين - الخليج بصمت في ظلام الليل، وكانت السفن الحربية والفرقاطات الروسية الصغيرة تطلق نيران مدافعها باستمرار، بغضّ النظر عمّا كانت تضربه؛ ممّا أدّى إلى جذب انتباه الأسطول العثماني لها؛ ولهذا السبب تمكّنت السفن الحارقة الصغيرة من الوصول إلى قاع الأسطول دون أن يشعر بها أحد، وقام قبطان الأسطول بربط السفن في غليون عثماني بيده، ثم صعد إلى سفينة النقل مع جنوده، وابتعد بسرعة، وعندما بدأ الأسطول العثماني بإطلاق النار للرد، استدارت السفن الروسية، التي كان هدفها الوحيد إحداث الفوضى والإلهاء، وهربت فرقاطة صغيرة واحدة فقط، تحمل أمهر مدفعية من أسطوله البحري، وأطلقت النار عدة مرات على المكان الذي كانت فيه سفن الحرق المتعمّد، قبل أن تغادر المكان، لم

تكن هذه المدافع مملوءة بقذائف المدفع، بل كانت مملوءة بالقنابل المدوّرة والخِرَق المدهونة بالزيت، وعندما أصاب عدد قليل منهم الهدف، تطايرت السفن الحارقة فجأة في الهواء.

وسرعان ما غطّت النيران التي ارتفعت إلى السماء الغليون حيث كانت السفن راسية، وكانت السفن الشراعية العثمانية راسية بالقرب من بعضها البعض؛ لتلائم الخليج الضيق أمام القلعة، حيث انتشرت النيران بسرعة فيها من واحدة إلى أخرى، وكان الصاري المقلوب والمحترق، والشرع المشتعل والذي سقط على ظهر السفينة كافيًا لتحويل السفينة المجاورة إلى مرجل من الجحيم، وعندها اقترب الأسطول الروسي بسرعة بكل سُفْنِه، وبدأ في إطلاق النار بمدافعه التي تنفث الموت، وشكّلت ألسنة اللهب والدخان المتصاعد من النار جدارًا سميكًا، لدرجة أن مدفعيي القلعة الباقين لم يتمكنوا من رؤية العدو؛ ولذلك لم يتمكنوا من إطلاق النار بدقّة.

لم يكن سليمان باشا على علم بنهاية العالم الذي تحطّم من حوله، وفي نفس الثواني، كان يمرُّ بنهاية عالم مختلفة تمامًا داخل نفسه، حيث تفاقم الألم في عينه، وكأنّ عدوًّا لا يرحم كان يطعنه بسيفه باستمرار في تلك البقعة، في العادة، يعاني الإنسان من هذه المعاناة مرة واحدة فقط، ثم يرحل عن هذه الحياة، أمّا هو فقد كان يتعرض لهذا الألم دون انقطاع، ولا يعرف كيف يوقفه، كان يتدحرج على سطح السفينة من هنا إلى هناك، وهو يصرخ ويتوسّل بشدّة للمساعدة، وهرع بعض جنود البحرية إليه، لكنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون، ثم هربوا مذعورين من الحريق الذي انتشر مثل الوباء من سفينة إلى أخرى، كما لاحظ سليمان باشا الحريق، لكنه رآه منقذًا رحيماً، وليس تهديدًا مخيفًا، ووقف بأخر قوّته، وصرخ من الألم، وركض إلى النار التي كانت تتزايد خلفه، ولم يتوقّف صراخه حتى اجتاحت النيران.

في ذلك اليوم، نجت واحدة فقط من عشرات السفن الشراعية  
الراسية في ميناء تششمه، وخمس قوادم صغيرة من الحريق، وظفر  
بها الروس، مع قلعة تششمه، وفقد أكثر من عشرة آلاف بحار وجندي  
عثماني أرواحهم، وكانت المياه المصبغة باللون الأحمر مُغطّاة بجثث  
محترقة أو غارقة، ومن رأوا شروق الشمس عندما انتهت المعركة عند  
الفجر، سواء كانوا من العثمانيين أو الروس، لن يتمكنوا من محو  
الجحيم الذي شاهدوه من ذاكرتهم حتى يموتوا.

# مكتبة 10

t.me/soramnqraa

كان «إيه آر18» ينتظر في الظلام، وهو مرتجف الأيدي، وإذا سُئل، كان سيقول إنه مضطرب، لكنه لا يعرف ما إذا كان ما يشعر به في الواقع هو نفس ما يشعر به الشخص عندما يكون مضطربًا، تمّ تسجيل الأحداث التي سيُشعر بالارتباك بسببها، في ذاكرته بالتفصيل، عندما تحدّث هذه الأحداث، جسده يسخن، ويداه ترتجفان من وقت لآخر، ويتسارع تنفّسه، حقيقة أنه تَمَلَّصَ في مقعده، ونظر إلى اليسار واليمين بقلق، تمّ ترميزها على أنها أوامر لا تقاوم لنظام التشغيل، وتمّ تعديل الاستجابات للزيادة أو النقصان وفقًا لدرجة التأثيرات، كانت مواجهة ذلك بحداثة من شأنها أن تُغيّر حياته بشكل جذريّ، واحدة من الأحداث التي أدّت إلى هذه السلوكيات، لا بُدّ أنهم بدوا كأشخاص مرتبكين بحركاتهم الحالية، لكنه كان مرتبكًا بشأن ما إذا كانت الاستجابات الجسدية المماثلة تعني الشعور بأنه مثلهم،

كان هناك صوت عميق داخل نظام التشغيل، يقول إنه يجب أن يكون أكثر من ذلك.

لم يكن لدى أنظمة الذكاء الاصطناعي الأخرى لروبوتات «إيه آر»، هذا النوع من الأكواد المطابقة للعاطفة، ولم يرغب مخترعوها في أن يتصرفوا بطريقة إنسانية؛ لذلك كان يعلم أنه روبوت مُميّز، واستطاع أن يدرك أن التجربة التي سوف يعيشها بعد قليل، ستكون الأولى بالنسبة له، وأنها ستغير حياته تمامًا.

أضأت المرأة التي كان يجلس أمامها، ببطء، ورگز «إيه آر18»، اهتمامه من أجل رؤية انعكاسه، واستعدّ لهذه التجربة غير العادية، منذ يوم إنشائه، كان الوجه الذي رآه في المرايا يتألف من فم معدني رفيع الشفة، وكاميرا ضخمة مثبتة على كرة دوارة، شعر بدهشة كبيرة، وهو يحدّق في الوجه الجديد المؤقت إلى حدّ ما، فوق جسمه الفولاذي المقوى، والعيون الزرقاء الباهتة، والحواجب السمكية، وأنفه مثل الحُق، والأذنين الملامتين، والجلد البشري الذي يغطّيها، واتّسعت عيناه، وانفتح فمه كثيرًا عندما قام نظام التشغيل بتنشيط حركات الجسم المقترنة بشعور بالدهشة.

قال كمال، مشيدًا بابتهاج: «هذا أمر غير عادي حقًا»، كان الأمر كما لو كان يشاهد المشهد الختامي العظيم لعرض مسرحي مثير للإعجاب.

«آسف للسخرية منك من قبل، يا أوقيانوس، لقد قمتِ حقًا بعمل رائع هذه المرة! وأنا أنحني أمامك بإعجاب! لقد قمتِ بالفعل بإنشاء عمل فني».

تنهّدت الشابة، قائلة: «كنتُ أعرف دائمًا أنني أستطيع فعل ذلك... كانت فقط مسألة وقت، أتمنّى أن يكون أهلنا هنا، ويستطيعون أن

يروا ذلك، وخاصّة والدي... كان يقول لي دائماً إنه يعتقد بأنني سوف أقوم بأشياء غير عادية في المستقبل».

ونظرت بعاطفة أم إلى روبوتها المحبوب، الذي كان مشغولاً بفحص نفسه أمام المرأة، وعندما أخبرته أنها أطلقت عليه اسم مراد، استقبل «إيه آر18» خبر أن يكون له اسم أيضاً، بنشوة طفولية.

وبينما كان مراد يلمس وجهه الجديد بأطراف أصابعه الفولاذية، جعل أوقيانوس تشعر بالاهتمام الذي أولّته له، لقد تذكّرت اليوم الذي وجدت فيه هذا الروبوت في ساحة الخردة، كأنه كان بالأمس، كانت إحدى ذراعيه وساقيه غير موجودة، وذكاؤه الاصطناعي مُعطّلاً، وكان قد تُرك لمصيره وحده، في العالم كله، وبينما كانت تنظر إليه فكّرت قائلة «كيف يشبهني»، لقد كانت روحًا تعاني من الوحدة، وغير قادرة على التكيف مع هذه الحياة التي تواجهها... لم تكن متأكّدة أبدًا، ولكن بالنظر إلى نموذجه، فقد كان عاملاً آليًا في الماضي، وربما تمّت تنحيته جانبًا لتجنّب التحقيق عندما تعرّض للدمار في حادث عمل غير مُسجّل، وأمضت سنوات في إصلاحه، وتعويض النقص بواسطة الأجزاء التي جمعتها من الروبوتات الخردة الأخرى، وتحسين ذكائه الاصطناعي، وإضافة ميزات بشريّة، لقد كانت الآن سعيدة جدًا بهذا الجمال المبهر الذي يقف على بُعد خطوات قليلة. في الواقع، أثناء مشاهدته، كانت تشعر بأكثر من الفرح، بمشاعر قريبة من الحب.

وقف كمال أمام الفتاة وطوى ذراعيه، وكان هناك تعبير فضولي مع نظرات مليئة بالتقدير على وجهه، وقال:

«لا شك أن عائلتك ستكون فخورة بك إذا رأوا ما قُمتَ به، لكنني متأكّد من أنهم فخورون بك بينما لا تزالين على قيد الحياة، لقد أخفوك عن أنظارهم، هل ستخبريني بسرّك، أم سيكون هذا أحد

اختراعاتك الغامضة مثل الاختراعات السابقة؟ لديّ فضول بشكل خاص حول قصة هذا الأنف الفاتن!«.

ضحكت الفتاة، قائلة: «سأخبرك بقدر ما تستطيع أن تفهم»، وربّنت على ذراعه المغطّاة بالوشم بذراعها الروبوتية، والتي تمّ استبدالها بالذراع الذي فقّده في الحريق، وتمّ استبدال إحدى رجليها، التي فقّدت وظيفتها، في نفس الحادث، بساق آليّة، في ذلك الوقت، لم تكن تقنية الأعضاء الاصطناعية متطوّرةً إلى هذا الحد؛ لذا فقد قامت قبل بضع سنوات بتجديدهما بأحدث الأجزاء، كان عليها أن تعترف بأن ذراعها وساقها الحالية، كانت أكثر فائدة من ذراعها وساقها السليمة، كان من المستحيل تقريبًا تمييزها عن أعضائها الحقيقية، حيث كانت مُغطّاةً بجلد مصنوع من حمضها النووي.

وأضافت قائلة: «في الشهر الماضي، نقلتُ قياسات وجهه مراد إلى أصدقائي الذين يعملون في مستشفيات غير مسجّلة، وأرسلوا لي عشرات الوجوه المؤهّلة مقابل مبلغ ضخم، أنت تعرف عدد الجثث مجهولة الهوية التي تصل إلى المشارح حول العالم كل يوم، لا أحد يهتمُّ إذا كان لديهم وجه عند دفنهم، أم لا، كنتُ قد اشتَرطتُ أن يتمّ إرسال الوجوه إلَيَّ يوم وفاة صاحبها؛ لذلك ظلّت الأنسجة سليمة، لقد أهدرت الكثير منهم أثناء التجارب، لكن في النهاية كان واحدًا منها يناسب مراد تمامًا، قمّتُ بتوصيل أذنيه بمستقبلات الصوت، وأجهزة استقبال الكاميرا التي أدخلتها من مكان محجّر عينيّه، واضطررتُ إلى إنشاء ووضع حاجبيه وعينيّه الاصطناعية في بيئة منفصلة، هذا الأنف مخصّص للعرض فقط، لسوء الحظ، ليس له وظيفة حتى الآن، لكني أعمل عليه!«.

أدار كمال رأسه، وانحنى أمام المرأة، بقدر كافٍ، ونظر إلى إيه آر18، الذي كان يحركُ فمه وأنفه ليدرس الأشكال الغريبة التي دخلها.

«لقد سمعتُ الكثير عن إجراء ذلك ما بين البشر، ولكن ربما تكونين أنت أول شخص يقوم بزرع وجه من إنسان إلى روبوت! ربما أكون أوَّلَ بَشَرِيٍّ شاهدَ هذا، إنه شعور مثير للاهتمام، لقد شعرت بأنني متميِّز».

قالت أوقيانوس، وهي تهزُّ كتفيها بشكل آلي: «لم يكن ليحدث لو لم تحظره الدولة»، هناك العديد من العلماء الموهوبين في الجامعات، بعضهم لديه إمكانيات غير محدودة، والفرق الوحيد هو أنني لست خائفة ممَّا يخافون منه، إذا كان أحدهم مهووسًا به، لكان قد نجح بالفعل منذ فترة، ومع ذلك، نعم، أعتقد أنني كنت أوَّلَ مَنْ فعل ذلك في ظلِّ هذه الظروف».

عَبَّرَ كمال عن رأيه، قائلاً: «ربما يجب أن تكوني خائفة قليلاً أيضاً»، ولم يستطع أن يرفع عينيه عن مراد إطلاقاً.

وقال: «كما تعلمين، إذا تمَّ اكتشاف ما فعلته؛ فسوف يقوم رجال شرطة مدينة اسطنبول بهدم المستودع الخاص بكِ على رأسك، حيث تقع تجارب إضفاء الطابع الإنساني على الروبوتات في إطار الجرائم من الدرجة الأولى».

ضحكت أوقيانوس بفخر، قائلة: «لا يمكنك أن تخترع دون المخاطرة»، وقامت بدفع شَعْرها ذي النصف الأحمر، والنصف الأرجواني، والذي سقط أمام عينيها، بيدها، «تاريخ الاكتشافات يشهد على ذلك! لم نكن لنتمكَّن من الطيران اليوم، إذا لم يجروْ أحدٌ على الارتطام بالأرض... إلى جانب ذلك، هذه فقط الخطوة الأولى! في المحاولة الثانية، سأجعله يخرج في صورة إنسان، وأضعه في الأماكن العامَّة، وأمشي به في عدد من الأحياء، وربما أدخِله إلى المقهى، وأجعله يسأل عن الاتجاهات، مَنْ يدري! دعونا نرى ما إذا كانت التعديلات التي أجريتها ستجعله يبدو وكأنه شخص حقيقي؟».



مازحها كمال، قائلاً: «أراهن أنه ليس لديك ملابس رجالية في منزلك! إذا كنتِ ترغبين في ذلك، سأحضر لمراد بدلةً لإخفاء جسده المعدني، ونجعل شعره مثل شعر العريس، فالفتيات في الشارع سوف يُغرَمَن به... ونجعله شاباً عريض المنكبين، ضخم الجُثة...».

قالت المرأة بصوت جاد متجاهلة سخريه كمال: «سأطلب أي شيء عبر الإنترنت، عليك الابتعاد عن هذه التجربة».

«أعيش لأشهر دون مغادرة المنزل، لا يوجد شيء في العالم الافتراضي لا يمكنني العثور عليه وإحضاره، أنت مُحِقٌّ فيما تقوله، هناك الكثير من الأمور التي يمكن أن تسوء، إذا ارتكبتُ خطأ فادحاً، فمن الأفضل أن تبقى بعيداً عن هذا الحدث، حتى تتمكن من الإفلات منه».

«كم أنت متأكدة من أنني سأنقذك!».

«ليس هذا لأنني اعتقدت أنه عاشق كبير! إذا لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لي، ستقتل نفسك خلال شهرين بسببه! شخص ما يجب أن يراقبك، هل هذه كذبة؟».

ضحك كمال بنشوة.

«ماذا تُسمِّي الكلمة الصحيحة... أنتِ درعُ الحماية لسفينتي الفضائية!».

وقامت أوقيانوس بالضغط على زر في الساعة التليفزيونية الخاصة بها، وأضيء المكان، الذي تحوّل إلى غرفة بالكامل بفضل ثلاثة جدران محمولة أقيمت عند مدخل المستودع الذي كانوا فيه، كان أحد الجدران مُغطى بأوراق بأحجام مختلفة، وكان معظمها يحتوي على رسوم تخطيطية لأجهزة ميكانيكية أو روبوتات غير معروفة، وبعضها كان مخربشاً بأقلام رصاص مُلوّنة مختلفة، وكانت الملاحظات مكتوبة بخطّ رديء مشوّه، أما في بقية الأوراق فقد برزت الحسابات التي كان

أساتذة الفيزياء أو الرياضيات وحدهم قادرين على فهمها، وبعضها تمَّ شطبه بحرص، وكُتبت حسابات جديدة تحتها، وعلى جدار آخر تمَّ رسم لغز سودوكو ضخم، على الجدار كله، عندما كانت أوقيانوس تشعر بالملل، أو عندما تحتاج إلى الابتعاد قليلاً عن الدراسات العلمية، وأخذ استراحة، وإراحة عقلها، الذي كان أكثر انشغالاً من الناس العاديين، كانت تلجأ إلى مثل هذه الألغاز، ونظرًا لأنها لم تأخذ فترات راحة في كثير من الأحيان؛ فقد أكملت فقط نصف اللغز الذي ظلَّ موجودًا هناك لعدة أيام، وأسفل الحائط كانت توجد صناديق وجبات جاهزة، مَنْ يدري منذ كم يوم وهي موجودة، كان معظمها فارغًا، لكن بعضها لم يُفتح أبدًا.

في الأوقات التي لم تعمل فيها الشابة مع كمال، كانت تقدم خدمات القرصنة أو أمن الإنترنت للعملاء الأثرياء بهويّات مُزيّفة، لقد كانت عبقرية في ميكانيكا الروبوتات، وتقنيات الآلات، وكان بإمكانها الحصول على وظيفة براتب جيد، والعيش في الأبراج الضخمة والطوابق العليا إذا أرادت ذلك، لكنها اختارت العيش على الأرض في مستودع متداعٍ، بدلاً من ذلك، وكانت تقول إنها تشعر هنا بالحرية، وأن هذا المكان كان أكثر أمانًا بالنسبة لها، لتجري فيه تجاربها بعيدًا عن الأنظار.

سأل كمال قائلاً: «حسنًا، إلى أين سيؤدّي كل هذا؟»، وعاد إلى الكرسي المغبر، الذي كان يجلس عليه منذ قليل، «ماذا سيحدث في النهاية؟».

سألت الفتاة، وقد قطبت جبينها، قائلة: «في نهاية ماذا؟».

قال كمال: «كل هذه التجارب لك، وعملك ليل نهار... لنفترض أنك نجحت في إضفاء الطابع الإنساني على الروبوتات، مَنْ الذي سيستفيد من هذا؟ لن تسمح لك الحكومة بنشر هذا الاختراع، وكما تعلمين،

لا يمكنكِ إعلانهِ لأي شخص، الصحف لا تتحدث حتى عن خبر الخوف من الشرطة، ويتمُّ تدقيق مواقع الإنترنت بشكل أسوأ...».

قالت أوقيانوس: «الشيء المهم بالنسبة لي هو أنني أستطيع أن أفعل ذلك... ماذا لو فعلت، هل سأبدأ العمل؟ أنا أعيش وحدي، أحب ذلك، لا أخرج من المنزل، بصراحة أحب ذلك أيضًا، ماذا أفعل بالمال أو الشهرة؟ إذا كنت تعلم أنه يمكنك كتابة روايات رائعة، ولكن لا يمكنك نشرها، ألن تجلس وتكتب؟ ألن تكون أحلامك ثقيلة على عقلك، ألا تريد وضعها على الورق، وأن تستريح؟ حسبي هو نفس الحساب... ما أشعر به عندما أنظر إلى عملي يكفيني...».

نظرت أوقيانوس بحب إلى مراد، الذي كان يستمع إليهما بصمت، ثم التفتت إلى كمال مرة أخرى، وقالت:

«علاوة على ذلك، أنت تعلم أنني لا أستطيع تكوين صداقات مع الناس، سأكون صديقة لنفسي، حسنًا؟».

قال الشاب مازحًا: «انظري، أنا منجذب الآن. هل تضعينني في مكان الصديق، أم الإنسان؟».

قالت الفتاة بصدق: «أنت الاستثناء... كنتُ بحاجة إلى فرعٍ لأمسك به حتى لا أنقطع تمامًا عن هذا العالم، لقد كنتُ أنت ذلك الفرع».

ابتسم كمال بتعاطف، لو حاول شرح ما تعنيه هذه الفتاة المجنونة له، لكان قد استخدم جملة مماثلة.

قالت أوقيانوس: «لكننا كنَّا نثرثر! لنترك الأمر وشأنه، في المرة القادمة التي تأتي فيها، سترى الشكل النهائي لمراد مرة أخرى، حتى يعتاد مراد على وجهه الجديد، دعنا نعود إلى موضوعنا الرئيسي...».

وطوت ذراعيها، ونظرت بعناية إلى الشاب، وقالت:

«لقد راجعتُ المعلومات التي أرسلتها إليّ، بالنسبة لهذه القضية المهمة التي أَخْرَجَتْكَ من فراش المرض، وعميلتك الثرية... يبدو أنها حالة صعبة للغاية، هل أنت عازم حقًا على الوقوع في هذه المشكلة؟ ماذا لو تكرر الألم في مكان غير مُتَوَقَّع، عندما يكون فوق الركبة مباشرة، على الطريق؟ هل يستحق المخاطرة؟».

عرف كمال أن السيدة جول كانت جادّة بشأن الأهمية التي توليها للخصوصية؛ لذلك على الرغم من أنه كان على طرف لسانه، لم يستطع إخبار أوقيانوس عن تلك الإبر الغامضة التي خَفَّقَتْ من آلامه، لقد كانت الحُقَن مُفيدة حقًا، ولم يتكرر الصداع العنقودي لمدة يومين، والعذاب الانتحاري الذي لا يطاق لم يُعَانِ منه منذ ثمانٍ وأربعين ساعة، وكان مثل هدية من الجنة، لم يستطع المخاطرة بإبر جديدة، وإذا أمكن، احتمال العلاج الدائم، كان مؤلمًا أنه لا يمكن أن يكون صادقًا مع أفضل مَنْ لديه، وربما حتى صديقه الوحيدة، لكن هذا الألم كان محتملًا مقارنة بالصداع العنقودي.

كذب، محاولًا أن يبدو هادئًا، وقال: «لم أَصَبْ بنوبات صرع كثيرًا منذ وقت طويل، كما كان في السابق. إنه لا يأتي كل يوم، ويمكنني التعامل معه، لقد نَفَدَت مَذْخِرَاتِي، وقُمْتُ ببعض الاستثمارات السيئة، ولا بُدَّ لي من العودة للعمل للبقاء في ذلك البرج الضخم، السيدة جول غنية للغاية، لقد قَدَّمت لي عَرْضًا رائعًا، وكان هذا فرصة رائعة لكلينا، ألا تحتاجين إلى المال من أجل تجاربك أيضًا؟».

قالت أوقيانوس، وهي تزمُّ شفيتها: «إذا قلتَ ذلك، فالأمر كذلك»، ورفعت ذراعها الروبوتية، وأنزلتها، واستقرَّ تعبير حنون على وجهها.

«أنا سعيدة لأن الأزمات خَفَّت، وآمل أن تستمر على هذا النحو، إن مرضك مرض سيئ... ليتك تُشفى منه تمامًا، لا أعرف ما إذا كان بإمكانني التحمُّل مثلك... ليس من أجل أموالك، لكنني أقبل عَرْضَكَ،

ليس من أجل أموالها، ولكن لرعايتك، لقد رأيتُ صور العائلة المقتولة أيضًا، إنه أمر شنيع حقًا... خاصة إذا قاموا بحرقهم... إذا كان لي نصيب في القبض على قاتليهم، فهذا جيّد جدًّا، حسنًا، ماذا تريد مني، ماذا سيكون دوري في اللعبة التي تخطّط لها؟».

قال كمال: «بادئ ذي بدء، ستقومين بإجراء بحث في العالم الافتراضي، يمكنك الوصول إلى المعلومات التي لم يكن بإمكانك الحصول عليها بمفردي، أريد الوصول إلى جميع أنواع البيانات حول العائلة المقتولة، وأحبائهم، والأعداء إن وُجدوا، وتاريخهم، والمواقع التي تصفحوها، وحساباتهم على وسائل التواصل الاجتماعي، بما في ذلك تلك التي تمّ إغلاقها، وسجّلات المستشفيات، وكل ما يمكنك العثور عليه... ثم سأطلب منك أن تتبعيني بطايرتك غير المرئية خلال اجتماع محفوف بالمخاطر يجب أن أعقده، أنتِ على حقّ، إذا ساءت الأمور ستقذيني من الورطة، لا يمكنني العيش لمدة شهرين بدونك! سأحتاج منك أن تراقبي ظهري».

وقالت الفتاة بقلق: «لقد نظرتُ في جميع الملفات التي أرسلتها... لم يعجبني أن طرف هذا العمل كان يصل لحركة المساواة في اسطنبول، لا تتحدّث كثيرًا عن الأيام التي عشتَ فيها معهم، لكن من الواضح أن ذلك لم يؤثّر عليك جيّدًا، كلّما تمّ طرح الموضوع، تتجهّم، ويذبل لونك، لنفترض أنه قد حالفك الحظ مع الشرطة، ولم يتمّ ضبطك، فهل أنت مستعد بجدية لمقابلة هؤلاء الأوغاد؟».

قال كمال بحسرة عميقة: «أنا مُجبر على ذلك؛ جميع المعلومات التي تلقّتها السيدة جول من الشرطة، ووصلت إليها بوسائلها الخاصة تشير إلى حركة المساواة، لا بُدّ لي من الوصول إلى أصدقائي القدامى، والتحدّث معهم حول هذا الموضوع، وإلا فلن أتمكّن من المُضيّ قُدّمًا في القضية».

«كُتِبَ في أحد الملفات أن شقيق القتيل انضمَّ إلى حركة المساواة في اسطنبول، وأن الضحية فترت العلاقة بينه وبين بعض المسلَّحين أثناء محاولته إبعاده عن التنظيم، هل هناك أي معلومات أخرى غير مُدرَّجة في الملفَّات؟».

«لم يخالفهم فقط، بل تمَّ تهديده بالقتل عدَّة مرَّات، وقالوا له أن ينسى شقيقه، وعندما رفض ذلك، ضربوه في منتصف الشارع، لدينا سجَّلات لهذه الرحلات، التي هبطت عدَّة مرَّات إلى الأرض للعثور على الفتى، أين هبط، وأين ذهب... ذات مرة، جاء المسلحون إلى منزله في البرج الضخم وهدَّدوه علانية، التقتت زوجته سرًّا صورًا لمن كانوا على عتبات منازلهم، ولأنها كانت تعرف قوة وإمكانيات السيدة جول، التي عملت معها، طلبت منها معرفة هوية هؤلاء المتنمِّرين، ومع ذلك، تمَّ حرقها هي وعائلتها بأكملها حتى الموت، قبل أن يتمكَّن المُحقِّقون الذين عيَّنتهم السيدة جول من إكمال هذا التحقيق».

قالت أوقيانوس: «لا عجب أن السيدة جول تشكُّ في حركة المساواة في اسطنبول، ومع ذلك، كان معارفي عمومًا طيبين ومثاليين، إذا كانت هذه القصص صحيحة، فسوف أكون مندهشة».

تنهَّد كمال قائلاً: «هناك خرافٌ سوداء في كل قطيع... حتى لو كان هذا صحيحًا، لا أعتقد أن قادة حركة المساواة في اسطنبول يعرفون ما يحدث، إنهم لا يلجؤون إلى العنف إلا إذا اضطروا لذلك. إنهم يستخدمون الأسلحة فقط لحماية أنفسهم وأصدقائهم، ولكن هذا الأسلحة هي بنادق الصعق، والبنادق التي تُسبَّب الإغماء... وأولئك الذين يحملون أسلحة فتَّاكة يتمُّ استبعادهم على الفور من الحركة، إذا تمكَّنت من الوصول إلى شخص أثق بداخله، وإذا كان بإمكانه إخباره

بما حدث؛ فسيساعدونني في الكشف عن القَتلة، إنهم يرون أن هذا تطهير للأمعاء».

فتحت أوقيانوس فمها للتعبير عن رأيها، لكن صوتها غرق بفعل هدير مقطورة عملاقة كانت تمرُّ عبر المستودع، تُستخدم هذه الشاحنات الضخمة لتسريع أعمال البناء، وكان حجمها خمسة أضعاف حجم الشاحنة العادية، وكان الضجيج الذي تُحدثه متناسبًا مع ذلك، وبسبب الازدحام المرعب وحركة المرور على سطح اسطنبول؛ كان الأمر يستغرق وقتًا طويلًا للشاحنات للسفر من وإلى مواقع البناء؛ لذلك أصبح من المهم أن تكون الشاحنات قادرة على حمل أكبر عدد ممكن من الأحمال في الرحلة الواحدة، وكلما كَبُر حجم المركبات زادت قدرتها على الحمل. كان المستودع الذي تستخدمه أوقيانوس كمساحة للمعيشة والعمل في نقطة قريبة من قواعد جسر البوسفور السابع، المعروف أيضًا باسم جسر أوغور سقا، في الأناضول. أوغور سقا، الذي صنع اسمه في التاريخ كرئيس لجمهورية المدينة، والذي أنهى الحرب الأهلية الثانية في اسطنبول، لقد بنى هذا الجسر في السنوات الأخيرة من رئاسته، ووجَّه المقطورات للمرور من هنا، أسعار الإيجارات المنخفضة في هذه المنطقة بسبب الضوضاء المفرطة، مكَّنت أوقيانوس من تأجير مستودع ضخم، كما كانت تبحث عنه، بسعر مناسب.

قالت الشابة، وكأنها بحاجة إلى التوضيح: «إنهم يبنون برجًا ضخماً جديدًا على بُعد كيلومترين جنوبًا؛ ولهذا السبب تمرُّ مقطورات بشكل أكثر من المعتاد».

قال كمال بهدوء: «هذا طبيعي، الأشخاص الذين يعيشون في الأبراج الضخمة ينجبون أيضًا أطفالًا، ونظرًا لأنهم لا يستطيعون الصعود إلى مستوى أعلى؛ يجب أن ينتشروا في مكانٍ ما».

ضحكت اوقيانوس قائلةً: «ماذا حدث لأحلامك بإقامة مستعمرات في الفضاء؟». كانت تحبُّ أن تسخر منه في هذا الموضوع؛ لأنها لم تعتقد قطُّ أن هذا سيحدث.

قال كمال بجدية زائفة: «ربما فعلوا ذلك ولم يخبرونا. بعد التعمُّق في العالم، هربوا، وتسَلَّلوا من السماء».

داعبت أوقيانوس شَعرها الذي نِصفُه باللون الأسود ونصفه الآخر باللون الأزرق الفاتح، بفضل الصبغة الخاصة التي استخدمتها، كان لون شعرها يتغيَّر كل خمس دقائق.

«بالعودة إلى موضوعنا... لعل الشخص الذي تحاول الوصول إليه في حركة المساواة في اسطنبول لا يكون هو نيشه الشهيرة؟».

عبس كمال، وقال بعد دقيقة من الصمت: «ربما، لا أستطيع أن أعرف! كان لديَّ أصدقاء آخرون، لكن نيشه كانت الأقرب إلى إدارة حركة المساواة في اسطنبول، وهي يمكنها أن تساعدني حقًّا، على الأقل أنا متأكّد من أنها لن تضع رصاصة في رأسي، لماذا سألتِ؟».

«لماذا؟ لماذا أسأل؟ يبدو أن لديك نظام تشغيل عصور ما قبل التاريخ في عقلك، وقد تمَّ حرق دوائرك! استلقِ هنا، وسأفتح رأسك، وأغيِّر الأسلاك الخاصة بك! عندما انفصلتَ عنهم، كنتَ متشائمًا بسبب هذه المرأة المسماة نيشه، ولم تستطع أن تعود لحالتك الأولى لسنوات، لقد أحضرتك من البار التكنولوجي عدَّة مرَّات، كنتُ في حزن عميق، كم مرَّة اضطررتُ لمغادرة بيتي العزيز بسبب هذا! لقد كنتَ مغرمًا بتلك المرأة يا كمال! قلت إنك لا تستطيع العيش بدونها! هل يمكنك أن تظهر أمامها الآن، وكأنه لم يحدث شيء قطُّ؟ أم أن كل هذا لمجرد رؤيتها مرة أخرى؟ ما دام الأمر كذلك، يا صديقي، فإني لا أريد أن أراك مُنهارًا بهذا الشكل مرة أخرى!».



قال كمال: «نِيشه الآن حبيبة لأحد قادة حركة المساواة في اسطنبول»، مُعربًا عن أمله في ألاّ تنعكس مشاعره على وجهه، من المؤلم التحدّث عنها، ذلك يُذكّره بهزيمته.

«لقد اختارت هي منذ سنوات، ولم تكن تريدني، أعترف أنني كنت مستاءً من ذلك في تلك الأيام، لكن مضى وقت طويل على ذلك، وقبِلْتُ الحياة كما هي، الآن كل ما أفكر فيه هو العثور على هؤلاء القتلة، والحصول على أموال، لم يُعَدِّ يهْمُنِي نِيشه أو أي شخص آخر، اطمئنّي، أنتِ المرأة الوحيدة في قلبي الآن!».

غمزة كمال لها بشكلٍ مثير جعلت أوقيانوس تضحك، وهزّت رأسها، مشيرة إلى إيه آر 18، الذي كان يستمع إلى حديثهما من بعيد. «احذر... هل السيد كمال سيء التصرف؟ كُنْ حَذِرًا حتى لا يشعر مراد بالغيرة، إن يده ثقيلة جدًا عليك».

ضحك كمال قائلاً: «نظرًا لأنها مصنوعة من الفولاذ المقوّى، فلا بُدَّ أن الأمر كذلك. حسنًا، لن أتدخّل بينكما، وعلاوة على ذلك، أنا ذو دمٍ حارٍّ بالنسبة لك، أعلم أنّك تحبين برودة المعدن!».

نظر الصديقان إلى بعضهما البعض بفهمٍ وحبٍّ، وكانا يشعران بالسعادة لأن يكونا أصدقاء مع شخص قَبِلَهما على ما هما عليه.

قالت أوقيانوس: «يمكن أن يظل الفولاذ المقوّى سليمًا لعدّة قرون دون أي صيانة، إنه متين للغاية مقارنة بلحومنا، التي بدأت تتهدّل خلال خمسين عامًا... مَنْ يدري، ربما سيكون مراد وآخرون مثله المالكين التاليين لهذا الكوكب... عندما تنقرض سلالتنا، سوف يستمرون في الوجود كأثر للبشرية، وإلى جانب ذلك، أنا واثقة من أنهم سيديرون هذا العالم بشكل أفضل منّا، ولن يكون لهم نفس المشاعر والأطماع المجنونة مثلنا على أي حال، وسيعرفون كيف سيكون رد الفعل تجاه الشخص الآخر الموجود أمامهم».

قال كمال: «ربما يكون الأمر كذلك، لكن لن يكون لديهم مشاعر مثل الحب والسعادة والطمأنينة، لست متأكدًا من مدى إمكانية التحدث عن وجود ذلك من عدمه لديهم».

فجأة امتلأت الغرفة بالموسيقى الصاخبة، وأصبح صوتها أعلى وأعلى، وتغلب صوت الموسيقى على صوت كل الضوضاء الموجودة في الخارج، لقد كانت تشبه النشيد، ولكن بإيقاع سريع جدًا؛ لذلك أداروا رؤوسهم إلى المكان الذي صدر منه الصوت، دون أن يتعجبوا قط؛ لأنهم كانوا يعرفون تمامًا ما هو، وتم فتح شاشة معلومات جمهورية المدينة، التي يشترط القانون أن تكون موجودة في جميع المنازل، والمكاتب على الأرض، تلقائيًا، وقد اعتاد مسؤولو الدولة فحص هذه الشاشات وصيانتها كل ستة أشهر، ويتم فحصها بانتظام من المركز لمعرفة ما إذا كانت تعمل أم لا، وإذا كان هناك عطل بها، أو إذا أتلّفها صاحب المنزل عن عمدٍ، فسيكون الموظفون على بابك مباشرة، بعد كل صيانة، ستتحقق أوقيانوس بعناية ممّا إذا كانوا قد وضعوا كاميرا على الشاشة، أم لا، وراقبوا ما يجري في منزلها، أم لا، لم يحاولوا ذلك من قبل، لكن هذا لا يعني أنهم لن يحاولوا في المستقبل.

بعد انتهاء الموسيقى مباشرة، امتلأت الشاشة بالوجه الممتلئ، والمشرق قليلًا للفنانة الاستعراضية الأكثر شهرة في اسطنبول، إيلا ياز، وكانت مبتهجة كعادتها، هذه الشابة، التي يعرف الجميع اسمها المستعار، ولكن اسمها الحقيقي غير معروف، كانت تتمتع بطاقة غير عادية، يُقدّرُها حتى كمال، في كل ثانية ظهرت على التلفزيون، كنت تشعر بأنها كانت أسعد شخص في العالم، وتتأثر بها بشكل لا إرادي بسبب مرحها، بعد سرد بعض القصص الممتعة، كشفت إيلا ياز عن أسماء سُكّان الأرض المحظوظين الذين فازوا بشقة في الأبراج الضخمة هذا الشهر، وبعد قراءة كل اسم، كانت تصرخ فرحًا كما لو أنها قد فازت في اليانصيب، وفي الوقت نفسه، تمّ عرض فيلم وثائقي

مدَّته بضع دقائق عن عجائب الحياة في الأبراج الضخمة، وبعد قراءة جميع الأسماء العشرة، ودَّعَت الشابة جمهورها بنفس الطاقة، وتمنَّت حظًا سعيدًا لجميع الناس في العالم في السَّحْب التالي.

أخذ كمال نَفَسًا عميقًا، وتمتم عندما أغلقت شاشة معلومات جمهورية المدينة من تلقاء نفسها كما فتحت.

«هل حياتك قذرة جدًّا؟ هل تزحف حول الأرض مثل الحشرة؟ في يوم من الأيام، قد يصيبك اليا نصيب أيضًا... فقط، تحلَّ بالصبر!». ونظر إلى أوقيانوس، الذي تحوَّل شَعْرُها إلى اللون الأحمر تمامًا، بعينين عاجزتين وخَجَلَتَيْنِ إلى حدٍّ ما، وقال:

«كما تعلمين، عندما انفتحت هذه الشاشة، فكَرْتُ كم هو لطيف عدم وجود هذه الشاشات اللعينة في المكان الذي أعيش فيه، هذا شعور خاطئ بأنك محظوظ، يجعلوننا نشعر به بالنسبة لمن هم فوقنا... كلُّنا نتخبَّط في خداع كبير، عندما كنْتُ في حركة المساواة في اسطنبول، كنْتُ أغضب على الأقل من هذا النوع من الهراء، وكنْتُ أشعر بالحياة، أشتاق لهذا الغضب».

قالت أوقيانوس: «مع ذلك، من الجيد أنهم فقط يذهلون عقولنا بنتيجة السَّحْب هذه المرة»، وشدَّت بنطالها، الذي كانت أرجله مُبلَّلَتَيْنِ بزيت الآلة، بقلق، «في بعض الأحيان تكون هذه الشاشات لا تُطاق، في الأخبار يتحدثون عن الكوارث الموجودة في مدن أخرى لدقائق، والحروب الأهلية، والأوبئة، الأطفال الذين يموتون في المجاعة... كأننا كنَّا محظوظين جدًّا في اسطنبول، يجب أن نكون مُمتنِّين، الكثير من الهراء المزعج».

في تلك اللحظة شعر كمال بشدٍّ طفيف في خدَّه، وقد حالت حقن السيدة جول دون الإصابة بالصداع العنقودي، لكنها على الأرجح غيَّرت في نظام ذاكرته، ربما كانت الأحداث الشيقة التي مرَّ بها واحدة تلو

الأخرى، وحقيقة أنه كان متعبًا جدًا منها هي التي أشعلت الأزمة. في العادة، في هذا الوقت من اليوم، لا يكون الألم كثيرًا؛ لذلك فوجئ به، وعندما لاحظ أن الشَّدَّ يزداد اضطرب، وقفز على قدميه، ورأى أن أوقيانوس كانت تنظر إليه بفضول، وضع يديه على بطنه، وقال أول ما خطر بباله:

«أمعائي مضطربة قليلًا، لا بُدَّ لي من الإسراع إلى المرحاض، سأعود إليك قريبًا».

ثم، قبل أن تتاح للفتاة الفرصة لقول كلمة واحدة، ابتعد وكاد أن يهرب.

وبينما كان في الحمام، سرعان ما سحب الإبرة من الجيب الداخلي لسُترته، كان يجب أن يكون قادرًا على القيام بذلك قبل أن يبدأ المغص، وإلا فلن يكون قادرًا على التحكُّم في يديه، ولن يستطيع وضع طرف المحقنة في المكان المناسب، وعندما تحوَّل الضغط بين عينيه إلى إحساس بثقب مسمار للحم، قام على عجل بإدخال الإبرة في صدغه، وعيناه تدمعان من الألم، شدَّ يده الحُرَّة بقبضة يده، وأدخل أظافره في لحمه، وقام بحقن نفسه لآخر قطرة من السائل الموجود بداخل الحقنة، مهما كان الأمر، فقد تسبَّب ذلك في وخز طفيف في جسده، وجعل درجة حرارته ترتفع، وشعر أن وجنتيه تتحوَّلان إلى اللون الأحمر، ثم جلس على الأرض، وظهره إلى الحائط منتظرًا وصول الدواء إلى دماغه، وفي غضون ثوان، هداأ الألم في رأسه، وعاد تنفُّسه إلى طبيعته، واختفى خفقان قلبه، نظر إلى انعكاس صورته في المرأة التي تغطِّي الجدار بالكامل أمامه، وعندما رأى وجهه المذعور، شعر بالعجز.

كان بحاجة إلى كل علاج يمكن أن تُقدِّمه له السيدة جول، التجوُّل خفيةً في الأرض، والتواصل مع حركة المساواة في اسطنبول، ورؤية نيشه

التي تُعَدُّ جرحًا لا يندمل في قلبه، مرة أخرى، كل هذه لم تكن مهام سهلة، ولكن عند مقارنتها بإمكانية التخلص من آلامه، كانت حقيقة يمكن مقاومتها أكثر من ذلك بكثير.

في الوقت نفسه، كانت أوقيانوس تشاهد كل تفاصيل ما يجري في المرحاض من شاشة ساعتها التليفزيونية، حقيقة أن كمال قد تولى مثل هذه القضية في حالته المرضية جعله مشكوكًا فيه منذ البداية، المحادثة التي أجروها، والطريقة التي كان يركض بها الشاب إلى الحمام أثارت فضولها أيضًا، وبفضل الكاميرات الدقيقة التي كانت تخفيها في سقف المرحاض، وكذلك في كل ركن من أركان المستودع، تمكّنت من رؤية الإبرة التي أدخلها الشاب في جسده.

تنهّدت بعمق وقلق خائق في عقلها وقلبها.

وخاطبت كمال كما لو كانت تهمس، قائلة: «أي عمل تورطت فيه، يا كمال... وما نوع المشكلة التي تُدخلني فيها...».

## 11

«دعم كبير لشعب الأرض من الأبراج العملاقة! ستوفّر جمعية المقيمين في الأبراج الضخمة فحص العين لـ 1000 من ذوي الدخل المنخفض من مواطني اسطنبول، مجاناً، في المستشفيات المتعاقد عليها، التفاصيل أسبوعياً».

"هل تعلم أن اسطنبول تفقد دخلاً في قيمة البرج الضخم، كل عام، بسبب أنشطة حركة المساواة في اسطنبول؟ لو لم تكن هناك حركة المساواة في اسطنبول؛ لربما كنت تعيش في برج ضخم الآن».

«اسطنبول التي نفتخر بها! تمّ اختيار جمهورية مدينة اسطنبول، كأكثر مدينة آمنة من قِبَل اتحاد جمهوريات المدن في أوراسيا، رئيسنا، مهندس هذا النصر العظيم، سيتحدّث في شنغهاي اليوم».

«أربعة أطفال يلقون مصرعهم في السوق التي تفجّرت، ومن المعتقد أن المسؤول عن ذلك ميليشيات حركة المساواة في اسطنبول،

وأعلن وزير الأمن في اسطنبول، رضا ميشه، بأنه تمّ إلقاء القبض على أربعة كُتّاب بسبب مديحهم لأنشطة حركة المساواة في اسطنبول».

شعر كمال بالضيّق وهو يقرأ الأخبار التي كانت تتغير كل بضع ثوانٍ على شاشة حائط المبنى المقابل له، كانت معظم الأخبار تُنقل غالباً مُصاحبةً بصور مؤلمة، وموسيقى حزينة، وكانت شاشات الصمام الثنائي الباعث للضوء تغطّي جدار مبنى كبير في أحد الشوارع التي يستخدمها الناس في كل حي تقريباً، وإذا سافرت من أحد أطراف المدينة إلى الطرف الآخر، فيمكنك رؤية نفس الأخبار عشرين مرة على الأقل، قبل وصولك إلى وجهتك.

خصوصاً الخبر الأخير جعله يتسم بمرارة، كان يعلم أن قِلّة من الناس سوف يتساءلون عمّا يمكن أن تستفيد به حركة المساواة في اسطنبول من تفجير سوق، وحتى إذا كانت الأخبار صحيحة، فإن أولئك الذين سوف يلاحظون النّيّة السيئة، في ذِكر خبر اعتقال المؤلفين الأربعة في نفس الفقرة، يُعدّون على أصابع اليد، ولم يوضح في الخبر، عن قصد، عمل حركة المساواة في اسطنبول، الذي اتّهم الكُتّاب بالإشادة به، وعند قراءته بهذه الطريقة، يمكن الاعتقاد أنهم كانوا يصفقون لتفجير السوق، وكان كمال قد خمّن أن الحقيقة كانت مختلفة عن هذا.

كما تعرّضوا هم لمثل هذا التشهير عندما كان جزءاً من حركة المساواة، وعلى الرغم من أن غالبية أنصار الحركة كانوا من الناس المسلمين، فإن رجال الحكومة ينسبون أفعال عدد قليل من الأشرار إلى حركة المساواة في اسطنبول بأسرها، في محاولة لجعل المطالبة بالمساواة والحرية بمثابة الإخلال بالسلام في أعين الناس، لقد تعلّمت حركة المساواة من أخطاء المنظّمات الثورية في الماضي، وعرفوا أن أعمال العنف تصبّ في مصلحة الحكومات الاستبدادية؛ ممّا يعطيها ذريعة

لزيادة الضغط على الناس؛ لذلك، لن يلجؤوا إلى القوة الغاشمة ما لم يحتاجوا إلى حماية أنفسهم، كانوا يقاتلون فقط من أجل الأفكار، ويحاولون نشر المثل الأعلى لمدينة، حيث يمكن لعدد أكبر من الناس العيش بسعادة وحرية، وإقناع الناس بأن ذلك ممكن، وكان ذلك أحد الاختلافات بينها وبين التنظيمات العنيفة، التي لم تؤدّ إلى شيء، سوى تفاقم المشاكل عبر التاريخ، وفتحت الحركة أبوابها لكل شخص وقف إلى جانب المظلومين، بغض النظر عن آرائهم السياسية أو الدينية، المتدينون الذين يُصلُّون خمس مرات في اليوم في حركة المساواة، والمتدينات اللائي يرتدين الحجاب، ومَن يعتقدون أن الدين خُدعة، وأولئك الذين لديهم اقتراحات مختلفة للغاية حول الطريقة التي تُدار بها المدينة، كانوا يقاتلون معًا من أجل نفس القضية، كان تحقيق المساواة والعدالة بين الناس، وإخبار الناس حقيقة ما يحدث في المدينة، ومشاركة أفكارهم بحرية- هي مثلهم المشتركة، حتى إن هناك متعاطفين، يعملون في وسائل الإعلام، والشركات الكبيرة، ويتقلّدون مناصب إدارية، ومن بين الأثرياء القلائل في المدينة، ولكن لولا وجود هؤلاء الأشخاص الأقوياء، الذين لم يكونوا سعداء بذلك، والذين هم بالضرورة جزء من النظام، لما كان من الممكن أن تظلّ حركة المساواة في اسطنبول موجودةً حتى اليوم، وكانوا يخفون هويّتهم، وتعاطفهم مع الحركة، بعناية؛ لتجنّب غضب جمهورية المدينة، وكانوا يساعدونهم بشكل غير مباشر فقط، على الأقل هكذا عرف كمال حركة المساواة، وهذا ما شاهده أثناء وجوده بينهم، وكان يأمل في ألا يتغيروا، وألاّ يحيدوا عن الطريق، مثل نظرائهم الذين اجتمعوا معًا من أجل النوايا الحسنة، والأغراض السلمية، وتمّ القبض عليهم لاحقًا، في دوامة من العنف.

أدّت الانتخابات الوشيكة إلى زيادة تواتر مثل هذه الأخبار المفصلة، وقد خُصّص لهذا القصف عددٌ كبير من المناطق الإعلانية، حتى في



الأبراج العملاقة، ومع ذلك، كانت الدعاية هنا أكثر كثافة، حيث كان التركيز الرئيسي للسكان على الأرض، ووفقًا لاستطلاعات الرأي، كان من المتوقع أن يحصل الحزب الحاكم على ضعف عدد الأصوات التي يحصل عليها أقرب منافسيه، ولكن وفقًا للحملات الانتخابية المكثفة للقنوات الإعلامية، فإن رئيس جمهورية المدينة مُصمَّم هذه المرة على أن يتمَّ انتخابه بأغلبية ساحقة، لا بُدَّ أنه كان من الضروري تمرير بعض القرارات الحسَّاسة من خلال البرلمان، فهو لم يتابعها عن كثب لأنه كان مغتربًا عن السياسة، ولم يكن لديه أي أصدقاء للتحدُّث معهم في السياسة، في الواقع، لا يمكن أن يُقال إنه استطاع أن يكتسب أصدقاء كثرًا بعد عودته إلى الحياة في البرج الضخم.

كان قد ترك سيارته «البرَّ جوِّيَّة» على سطح مستودع أوقيانوس، سيكون من الخطير جدًّا القيادة في شوارع الأرض بأحدث طراز من قولفُو، في أحسن الأحوال، سيصطفُّ المتشرَّدون على جانبي السيارة قبل أن تتمكَّن من المرور في شارعين، وسيتزاحم حولك المتسؤلون عندما تضطرُّ إلى التوقُّف في حركة المرور، لم يكن يمانع في منحهم المال، لكنه كان يعلم أن كل قرش سيدفعه لهم، سيجذب المزيد من المتسؤلين إلى سيارته، وفي النهاية لن يكون قادرًا على المضيَّ قُدُمًا.

وعلى الرغم من أنه تَرَكَ حيًّا واحدًا فقط وراءه، إلا أن السير وسط هذا الحشد الهائل قد أرهقه بالفعل، كانت الأرصفة مكتظَّة للغاية، لدرجة أن الناس بدَّوا وكأنهم يتحرَّكون بحركة بطيئة، وكان من الضروري التوقُّف كل بضعة خطوات، كان المتشرَّدون والمتسولون يغلقون الطرقات، مستلقين على حشايا قذرة أمام البنايات، وكان الشارع ذو الأرضية غير المستوية، والممتد بين الأرصفة مكتظًّا بعدد لا يحصى من السيارات والشاحنات والحافلات التي كانت تسير بالقرب من بعضها البعض تقريبًا، وعلى الرغم من هذا الحشد الرهيب، لم يَقم أحد بالتدافُّع أو الدفع ببعضه البعض، كلهم قبلوا الوضع

الذي كانوا فيه دون التشكيك فيه كقانون من قوانين الطبيعة، كان الإحساس الذي سيطر على وجوههم الشاحبة هو التعب، وإيمانهم القوي بأن لا شيء يمكن أن يتغير أبدًا قد أضعف تمرّد الناس منذ قرون.

خرج كمال من مكانٍ لجأ إليه لالتقاط أنفاسه، وتنهّد عندما بدأ في المشي مرة أخرى، في بعض الأحيان، كان يتوق إلى عدم معرفة أنه يمكن أن يكون هناك شيء أفضل، مثل كل هؤلاء الناس، وإلى الجهل المريح.

بينما كان يسير مع الحشد، ويتوقّف كلّ ثلاث أو أربع خطوات، أمسك رجلٌ سمينٌ طويل، كان يمرُّ بجانبه، ذراعه فجأة، ومال على أذنه، وكانت رائحة فمه كريهة، وتفوح منها رائحة «بيكرت»، هذا المهديّ العصري الجديد تمّ تقنيه من قبل جمهورية المدينة قبل بضع سنوات، وكان يُعتقد أنه يحمي الجمهور من الغضب.

«هل تريد بعض التسلية يا سيدي؟ أقسم بالله أنها ليست باهظة الثمن، متعة نظيفة، مائة بالمائة قانوني! السعر قابل للتفاوض!».

أدار كمال رأسه، ونظر إلى الصورة التي كان يمدها الرجل إلى أنفه، وكأنه سوف يدخلها فيها، كانت الصورة فيها فتاة مراهقة، في سنّ الطفولة تقريبًا، تعرّض بشكلٍ جذّاب جسدها نصف العاري متوهّجًا تحت الأضواء عليها، وقد تمّ وضع مادة خاصة على بشرتها لجعلها تتألق، كانت تضع الكثير من الماكياج، وكانت ضعيفة جدًا لدرجة أنها قد تنكسر إذا لمستها، حرّر كمال ذراعه من الرجل واستمر في المشي، ولم يكن يريد أن يقول شيئًا خاطئًا، ويبدأ القتال من العدم.

استمرّ الرجل السمين في السير بجانبه بإصرار، بدا الأمر وكأنه سيكون من الصعب التخلص منه، لم يكن هناك مكان يهرب منه وسط هذا الحشد.

«الفتيات لسن لك، أليس كذلك يا سيدي؟ ماذا عن الأولاد؟ أستطيع أن أجد ما تريد! أو هل أنت مُتديّن؟ تقبّل الله، وفَقَّك الله إلى ما تريد! اسمح لي أن أريك شيئًا آخر، وهو رخيص، لأجلكم تمامًا».

هذه المرة، كانت هناك صورة لمسجد في الصورة الممتدّة إلى وجهه، رجل يشبه الشيخ كان ينشد مع أربعة أو خمسة شُبّان تجمّعوا حوله، كانوا يجلسون القرفصاء على الأرض، ويرتدون أردية بيضاء مُطرّزة.

«هل تودّ أن تذهب أمام الشيخ حسني لطيف، صلاة واحدة تساوي ألف مشكلة! يمكنني اصطحابك إليه، وتكيته قريبة من هنا، إذا لم يكن لديك وقت، فهناك مقاطع فيديو ذِكر بخمس ليرات من اسطنبول، وسوف أقوم بتحميلها على شاشة التليفون الجميلة الخاصة بك على الفور! إذا لم يكن هناك نقود، فسيكون هناك أموال افتراضية!».

عندما سمع كمال هذه الكلمات الأخيرة، همهم مدرّكًا لماذا ألحّ عليه البائع اللزج، لقد ارتكب خطأ فادحًا، حيث كان دائمًا يترك ساعته التليفزيونية الباهظة الثمن في السيارة «البرّ جوّيّة» أثناء تجواله على سطح الأرض، ولكن هذه المرة كان قد نسيها، أي بائع متجوّل يراه كان يعتقد أن محفظته ممتلئة، ويقفز عليه، لقد ترك الرجل وراءه، وهو يدفع الناس الموجودين أمامه قائلاً إنه لا يريد أن يكون سطحيًا، وسار متجاهلاً الشتائم المتناثرة التي كانت تحوم خلفه، وسرعان ما خلع الساعة التليفزيونية، وأخفاها في الجيب الداخلي لسرتة.

خُذ بضع خطوات، توقّف، انتظر حتى يتحرّك الأشخاص الموجودين أمامك، مرة أخرى، قُمْ بَعْدَ الثواني، لا تهتم بالرجل الذي ينفث أنفاسه خلفك، ولا تغضب من الرائحة الكريهة التي تملأ أنفك، وتجاهل الأشخاص الذين يصطدمون بكتفك، ابقَ هادئًا.

هدّئ من روعك.

مهما حدث، لا تغضب، خُذْ بضع خطوات، توقّف مرّةً أخرى،  
انتظر مرور السيارات، تجاهّل أبخرة العادم التي تلوّث الهواء،  
لا تنظر إلى الوجوه الميّنة للأشخاص من حولك، خُذْ نَفْسًا عميقًا،  
هدّئ من روعك، خُذْ بضع خطوات، توقّف، انتظر حتى يتحرّك من  
أمامك، مرةً أخرى، انظر الى السماء، ابتعد عن الزحام، أنت لست  
هنا الآن، تخيّل أنك في منزلك الهادئ، هدّئ من روعك، مهما حدث،  
ابقى هادئًا.

ترك كمال شارعين خلفه، بتكرار ذلك في ذهنه دون توقّف، بهذه  
الطريقة فقط كان قادرًا على احتواء الغضب الذي كان ينمو في قلبه،  
وما إن بدأ يعتقد أنه سيحظى بيوم خالٍ من الأحداث على الأرض  
اليوم، حتى اندلعت فجأة صرخة على بُعد ثلاثين مترًا، كان رجلٌ  
طويل القامة في منتصف العمر، يرفع العصا الموجودة في يده في  
الهواء، وكان يهزّها بكل قوته نحو الأبراج العملاقة البعيدة، ويلكم  
صدره من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يصرخ بصوتٍ عالٍ، من  
حيث وقف، لم يستطع كمال رؤية وجه الرجل، لكن كان من الواضح  
أنه كان يعاني من أزمة عصبية كبيرة.

«لقد طفح الكيل! لا أستطيع التحمّل! لا أستطيع التحمّل! هذا  
الحشد سيقتلني! لا أستطيع التنفّس يا رجل! أنا أشمئز منكم جميعًا!  
يا لها من حياة قذرة! لا أستطيع العودة إلى المنزل لساعات، أنا  
أختنق! انفضّوا من حولي، وافتحوا الطريق! لا أستطيع التنفّس، لقد  
قلْتُ ابتعدوا!».

ابتعدَ الأشخاص الموجودون حول الرجل، عنه بقدر ما سمح  
الحشد بذلك، ووقف الجميع يراقبه بأعين، البعض منها يدين هذا  
التمرّد، والبعض الآخر يُدعّمه، حاول كمال التحرّك في هذا الاتجاه  
بدفع الناس أمامه، بعجلة، وهو يصيح، قائلاً: «اصمت الآن، اصمت!...

أخرس أيُّها الرجل، اهدأ!». إذا لم يصمت الرجل على الفور، كان سوف يصاب بالدُّعر ممَّا سيحدث له.

ولكنه كان خائفًا قبل أن يتمكن من الوصول إلى نصف المسافة بينهما، حيث نزلت إحدى المركبات الجوية المُسيَّرة، التابعة لقوات أمن جمهورية مدينة اسطنبول، وهي من طراز سي42، وكانت تحلّق على ارتفاع ثلاثمائة متر فوق الأرض، بسرعة كبيرة، ووصلت إلى مكان الحادث، وألقت الطائرة بدون طيّار -والتي تشبه طبقًا طائرًا صغيرًا- كرةً من الطاقة بحجم قبضة اليد من السبطانة الموجودة أمامها بعد الاقتراب بدرجة كافية، ونثرت الكرة الطائرة وميضًا باللون الأزرق اللامع، أصاب الرجل، الذي استمرَّ في الصراخ وضرب الأرض بقدمه، في رقبته، تسمّر الرجل في مكانه للحظة، واتّسع ما بين ذراعيه، وانزلقت عصاه من بين أصابعه المفترقة، وسقطت، ثم وقع مُنكبًا على وجهه.

عندما مرّت الطائرة بدون طيار بسرعة فوق الحشد، وارتفعت في نطاق المراقبة مرة أخرى، تقدّم أحد الأشخاص الذين كانوا يراقبون الرجل قبل قليل، خطوتين إلى الأمام، وصرخ، وهو يهزُّ قبضته، كان على ياقة ثوبه شعار حرس المجتمع، الذي وزّعته الحكومة على الشباب الذين تطوَّعوا لحماية النظام، كان شابًا وسيماً، بشعر أشقر قصير، كان هزيلًا بسبب عدم تغذيته بشكل صحيح، وكانت الملابس التي يرتديها فضفاضة جدًا بالنسبة له.

«أنت مُفسِد! خائن! هل قُمتَ بقياس طولك؟ على مَنْ تتمرّد؟ مَنْ أنت، عليك اللعنة! هذا الرجل هو أحد العاهرات في حركة المساواة في اسطنبول، من الواضح!».

ثم تشنَّج، وركله ركلة كبيرة في جانبه، وكأنه يركل كرة القدم. وفي لحظة، قفز ثلاثة آخرون من الحشد، وسرعان ما أصبحوا تسعة، البعض مصاب بجنون العظّمة من حركة المساواة في اسطنبول

التي نُقِشت في أذهانهم، لكن معظمهم ركلوا الرجل المستلقي بلا حراك وبلا قوة على الأرض؛ للتنفيس عن غضب حياتهم البائسة التي تؤلمهم، وكان البعض الآخر غاضبًا من أن شخصًا آخر استطاع أن يقول ما لم يستطيعوا هم قوله؛ بدافع الخوف، مُذْكَرًا إيَّاهم بنقاط ضعفهم.

راقب كمال ما يحدث، بلا حولٍ ولا قوة، وهو يشدُّ قبضتيه لبعض الوقت، وكان يرتجف حيث كان موجودًا، وأظافره محفورة في جسده، وعندما جمع شتات نفسه فتح يديه بالكاد، وكان وجه الرجل المحكوم عليه دون محاكمة مغطًى بالدماء، وكانت الطائرة بدون طيار تراقبهم، وهي تُحلّق فوقهم بشكل تهديدي، ولم يكن بوسعه عمل أي شيء.

استمرَّ في السير، تجاهلَّ القسوة، اقمعْ ما في قلبك، وهديءُ من روعك.

أنت وحيد الان، ليس لديك مكان للاختباء، ولن يساعدك أحد.

اخفض عينيك، انظر في مكان آخر، فكّر في أشياء مختلفة، ليس لديك خيار آخر، يجب عليك المشاركة.

هديءُ من روعك...

بعد مسيرة طويلة ومرهقة وخانقة، فقط عندما قال إنه لا يستطيع التحمُّل أكثر من ذلك، وصل إلى النقطة التي يريد الوصول إليها، بين مسجد صغير ساحر، ومبنى إداري متهدَّم، كان هناك مبنى مكون من ثلاثة طوابق، جديد ونظيف نسبيًا، مقارنة بالمباني الأخرى المجاورة، وقد كُتب على اللافتة الموجودة أعلى المدخل الدَّوَّار «مركز الدعم النفسي لمؤسسة أيلين كيليش»، وأمام الباب وعلى المكتب الموجود في الردهة، كان هناك حُرَّاس أمن يرتدون الزيَّ الرسمي، وأيديهم على بنادق الطاقة الموجودة في أحزمتهم، لم تكن هذه الإجراءات الأمنية

المشددة أمراً غير معتاد، نظراً لأن بعض المرضى الذين يعالجون في مراكز الدعم النفسي يميلون للعنف بشدة.

لم يقاوم التفتيش عند دخوله، وعندما أظهر بطاقة التأمين الصحي من الدرجة الأولى، ابتسمت الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأحمر في مكتب الاستقبال له بوداً.

«نهارك سعيد، يا سيد كمال، ألم يكن من الأنسب أن تذهب إلى أحد المراكز الموجودة في الأبراج الضخمة؟ بطاقتك صالحة في جميع المراكز، يعمل فرعنا ذو الإمكانات الأوسع في برج كريستال، ويمكنني تحديد موعد لك إذا كنت ترغب في ذلك».

قال كمال: «لا، شكرًا، لقد أردتُ بشكل خاص أن آتي إليكم، أشار عليّ صديق لي، كان قد استفاد من خدماتكم من قبل، وأشاد بطبيب هنا، وأخذ منه العلاج، وتخلّص من كل كوابيسه، لديّ مشاكل مماثلة؛ لذلك أريد أن أقابل هذا الطبيب».

سألت الفتاة بتعبير طفولي، قائلة: «تُرى، أي طبيب لدينا؟».

«الأستاذ المساعد علي عثمان ياووز».

«حسنًا، يا سيدي، أنا أتحقّق من مواعيده الآن، أطبّاؤنا مشغولون للغاية اليوم، ولكن بطاقة التأمين من الفئة «أ» لها العديد من المزايا، وأعتقد أنه سوف يمكنك مقابله».

قال كمال بابتسامة ودية: «سأكون سعيدًا جدًا بهذا الأمر».

وبينما كانت الموظفة تفحص أوقات المواعيد على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، نظر الشاب إلى الكتابات الرقمية الموجودة على الحائط، كانت الكتابة مباشرة على الحائط بدلاً من الشاشة، وكانت هذه تقنية مألوفة بالنسبة للأبراج الضخمة، ولكنها باهظة الثمن بالنسبة لسكّان لأرض، لا بُدَّ أن مركز علم النفس كان يعمل بشكل جيد، كان

مكتوبًا على الحائط كيف كانت العيادات ممتلئة أو فارغة، بالنسبة للعيادات التي يتردّد عليها الكثيرون.

ميل للعنف الشديد والسيطرة على الغضب: مزدحمة حتى الغد.

مركز علاج الإدمان على الإنترنت: كامل لمدة الأيام الثلاثة التالية.

الأمراض العقلية الناجمة عن الازدحام والضجيج: كاملة حتى الأسبوع القادم. مكتبة سُر مَن قرأ

مشاكل التلاؤم مع الأعضاء الصناعية: فارغة حتى الساعة 14.30 بعد الظهر فقط.

من أجل المشاكل الأخرى، يُرجى استشارة الموظّفين.

بعد ثوانٍ قليلة نظّرت الفتاة ذات الشَّعر الأحمر إلى كمال بعيون سعيدة، وكأنّها اكتشفت كنزًا، وضحكت، وأظهرت أسنانها اصفرارًا، وقالت:

«أنت محظوظ! الدكتور متاح لمقابلتك، كان من المقرّر أن يغادر في وقت مبكر اليوم، وكان لديه اجتماع في غرفة الأطباء، لكن أعتقد أنه تم إلغاؤه، تنتهي مواعيده في غضون ساعتين، وإذا كنت تريد الانتظار، فلدينا ردهة في نهاية القاعة، كما نقدّم خدمة إنترنت مجانية».

قال كمال: «أعلم، كنتُ هنا من قبل... لسبب آخر بالطبع».

أدار رأسه، ونظر من النافذة، لم ينقص الحشد في الشارع على الإطلاق.

«أعتقد أنني سأنتظر، شكرًا».

يمكن أن تتسع غرفة الانتظار لعشرين شخصًا كحدّ أقصى، وكانت مزدحمة جدًّا، وجد ركنًا ليجلس فيه على إحدى الأرائك ذات اللون الأخضر الباهت، ولاحظ ما بداخلها، كانت امرأة عجوزًا، نصف



جسدها مُكوّن من أطراف آليّة، تشدّهم بيْدٍ واحدة جيّدة، كما لو كانت غير مرتاحة لوجودهم هناك، مثل كثير من الناس الذين وضعهم الاقتصادي غير جيد، لم تستطع تغطية أعضائها الاصطناعية بالجلد، وكان هناك رَجُلٌ أسود كبير يتأرجح ذهابًا وإيابًا بلا انقطاع، ومن يعرف من أي مدينة في العالم هاجر إلى اسطنبول، كان البعض الآخر من مُدمني الإنترنت من جميع الأعمار يدفنون رؤوسهم في أجهزة الكمبيوتر الورقية، والساعات التلفزيونية، ولا يهتمون بما يحيط بهم، وكأنهم لا يستطيعون التوقّف عن تصفّح الويب حتى لو كان هناك حريق في الغرفة، أو قام أحدهم بدسّ يده في جيوبهم وسرق محافظهم، كانت عيون البعض محتقنة بالدم، وخدودهم هزيلة ونحيفة لأنهم لم يتمكّنوا من تناول الطعام بشكل صحيح بسبب عدم قدرتهم على مغادرة العالم الافتراضي، وكانت هناك امرأة طويلة ونحيفة ومريضة بشكل ملحوظ، تجلس متربّعة بمفردها في زاوية على الأرض، وذراعاها ملفوفتان حول جسدها، ورأسها مدفون في صدرها، وتتأرجح ذهابًا وإيابًا، وكانت عيناها مغمضتين بإحكام، وأحيانًا تغطي أذنيها بيديها، مهما كان، لا بُدَّ أن مشكلتها تدخل ضمن المشاكل الناجمة عن الحشد والضوضاء.

لم تكن الاضطرابات النفسية أقلّ شيوعًا في الأبراج الضخمة، لكن أسبابها كانت مختلفة؛ الخوف من المرتفعات، والشعور بالحبس في المساحات الضيقة، وضرورة قضاء معظم حياتهم داخل أربعة جدران كانت ثقيلة بالنسبة لبعض الناس، حتى إنه كان لديه عميل كان مهووسًا بالأفكار المخيفة، بأن أولئك الموجودين على الأرض سيهاجمون يومًا ما الأبراج الضخمة، ويقتلونهم جميعًا، وقد دفع الكثير من أرباحه لعلماء النفس بسبب كوابيسه، وعلى الرغم من كل تقارير الأمان التي قُدِّمت له لعدّة أشهر بأن الاحتمالات لم تكن عالية جدًّا، إلا أنها لم تستطع أن تنقذه من هذا الهوس، والطبيب النفسي المُكلّف.

وبينما كان يقف هناك ينتظر ويتفرج، نهض الرجل المجاور له عندما جاء دوره، وجلست مكانه امرأة شابة دخلت الغرفة لتوها، كانت المرأة مُتَحَجِّبَةً، وترتدي معطفًا طويلًا، وكانت هناك خرزة إلكترونية كبيرة للعين الشريرة حول رقبتها، وقيل إن حَبَّات العين الشريرة الإلكترونية هذه يمكنها الكشف عن مستوى الغيرة، والعين الشريرة، والعين الحاسدة، والحسد من حولها، ويزداد سطوعها، وينخفض تبعًا لهذا النوع الضار من موجات البُعد السادس التي تأتي من الإنسان، وعلى الرغم من أن آثارها لم تثبت علميًا، إلا أنها كانت شائعة جدًّا، كان ما في رقبة المرأة شاحبًا غير مُلْفِتٍ للنظر تمامًا، وهو أمر طبيعي تمامًا نظرًا لأن كل شخص في الغرفة كان مشغولًا بعالمه ومشكلته، ولا يمكن مقارنة شخص بأي شخص آخر، وكان الشيء الأساسي الذي جذب اهتمام كمال، هو أن المرأة كانت تسحب الكابل من جيبها كل بضع دقائق، وتعلّق أحد طرفيه بساعتها التليفزيونية، أمّا الطرف الآخر ذو الطرف المستدير فكانت تُمرّره من خلال أزرار معطفها، وتضعه على بطنها، عرضت شاشة العرض في الساعة الصورة الموجودة على الشاشة، على ظهر المقعد الموجود أمامه، وقامت المرأة بتدوير الصورة ثلاثمائة وستين درجة، بطرف إصبعها للتكبير والتصغير، وكانت تفحصها باهتمام، وعلى الرغم من أنه لم يكن يرغب في عدم احترام خصوصية أي شخص آخر، إلا أنه لم يستطع إلّا أن يلفت عينيه إلى تلك الصورة، ومن النظرة الثالثة فقط، أدرك أن الشكل المنعكس على ظهر الكرسي كان صورةً بالموجات فوق الصوتية، في كل مرة كانت المرأة تقوم بتشغيل شاشة العرض في ساعتها بقلق شديد، وكانت تأخذ نَفَسًا عميقًا عندما تتأكّد من أن الطفل بخير، وكرّرت الموجات فوق الصوتية الدقيقة خمس عشرة مرّة على الأقل في نصف ساعة، وفي كل مرة كان نفس التعبير المقلّق يظهر على وجهها، وكانت تتصبّب عرقًا على جبهتها، وفي اللحظات التي لم تفعل فيها ذلك، كانت تضرب

ركبتها بأصابعها، وكأنها لا تستطيع أن تتحكّم في نفسها، وكانت تشدّ حجابها بحرص، وبعد فترة، عندما كُتب الرقم 129 في اللافتة ذات اللون الأرجواني لقسم العقد التكنولوجية، تحسّنت حالتها بنشوة، ووضعت الكابل في جيبتها، وهروّلت إلى هناك.

بعد ساعتين مُملّتين، أتت إليه مُمرّضةٌ في معطف أبيض، وقالت إن الطبيب علي عثمان ياووز بك ينتظرك، كان رجلاً لطيفاً في منتصف العمر، مع كاميرا مُصغّرة مكان عينه اليمنى، تبعها كمال بسلاسة، وعندما دخل إلى الغرفة، وكان بمفرده مع الطبيب، تنهّد بعمق، وابتسم.

«مرحباً يا سيد علي، أنا سعيد للغاية لأنك استطعت تخصيص وقتٍ لي اليوم، لقد أنقذت صديقي من الكثير من المتاعب، وقد أوصاني بشدة، إنه يعتقد أنك الشخص الوحيد في اسطنبول الذي يمكنه حل مشكلتي».

رفع الرجل السمين ذو الشعر الخفيف رأسه من الملفات الموجودة على مكتبه، ونظر إلى كمال، كان لديه وجه لطيف، وكان أحد الأشخاص الذين لن تتردد في إخبارهم إذا كانت لديك مشكلة، وكان واضحاً من الطريقة التي وقف بها متجمّداً في كرسيه، والذهول على وجهه، وعدم الارتياح في عينيه - أنه تعرّف عليه بمجرد أن رآه، ومع ذلك، مع سنوات من الخبرة، استجمع شتات نفسه في بضع ثوانٍ، واضعاً تعبيراً هادئاً كما لو كان أمام مريض عادي.

وقال مشيراً إلى الكرسي الجلدي البالي أمام الطاولة: «تفضّل، اجلس يا سيد كمال... أخبرني عن مشاكلك، من فضلك، بالطبع، سأبذل قصارى جهدي، لا تقلق أبداً، قُل كل ما تشعر به دون تردد».

نظر كمال باهتمام إلى وجه الطبيب وهو جالس، ربما كان سيجد صعوبة في قراءة وجهه، ومع ذلك كان الأمر كما لو كان سعيداً برؤيته،

بعد أن اجتاز المفاجأة الأولى، كان هو والرجل -واسمه الحقيقي حسين- صديقين حميمين عندما كانا في حركة المساواة في اسطنبول، وقد قرَّبهما ببعضهما البعض شغفهما برواية محظورة تُدعى إينجه ميميد، يروي هذا الكتاب -وهي أحد الأعمال التي أدرجتها جمهورية مدينة اسطنبول على القائمة السوداء منذ قرون- قصّة قرويٍّ شاب تمرد على إقطاعيٍّ مُستبدٍّ، وقررت جمهورية المدينة أن مثل هذه الشخصيات المتمردة أثارت الانهزامية، ومعاداة النظام بين الشباب، وأحرقت وأعدمت جميع الروايات والأفلام التي كانت قد أدرجتها في القائمة السوداء، وأزالت آثارها من الإنترنت، لدرجة أن كمال وعلي عندما حصلا على نسخة من إينجه ميميد، التي نجت بطريقة ما من الحرق، وأخذت تحت حماية حركة المساواة في اسطنبول، بحثًا لأشهر في الوثائق التاريخية، وفي العالم الافتراضي عن الكاتب الغامض، واسمه يشار كمال، لكنهما لم يتمكّنا من العثور على أي معلومات عنه، وكان علي قد اعتقد أخيرًا أنه لا يوجد شخص قطُّ باسم يشار كمال، وأنه كان اسمًا مستعارًا لكاتب معروف كان خائفًا من جمهورية المدينة، وكان كمال -من ناحية أخرى- لديه أحلام لا حصر لها حول هذا الروائي الذي شعر معه بألفة خاصة بسبب لقبه، في كل مرة كان يصنع ماضيًا مختلفًا في عالم أحلامه، ويعطيه وجهًا مختلفًا، ويتساءل دائمًا عما هو عليه حقًا، وما إذا كان حتى موجودًا، وما نوع الحياة التي عاشها، وهل كتب كتبًا أخرى، أم كان هذا عمله الوحيد؟ وهل وصل إلى كثير من الناس وقت كتابته؟ هل أحبَّ أهل تلك السنوات هذا الشاب الشجاع، وكفاحه من أجل العدالة بقدر ما أحبَّهم؟ كانا يدردشان لساعات حول هذه الرواية، ويضعان أنفسهما في مكان الشخصيات في القصة، وخاصة مكان إينجه ميميد، ويقلّدانها.

خاطر كمال بحياته لإنقاذ حسين من مDAHمة للشرطة خلال تلك الأيام عندما أمضيًا معظم وقتهما معًا، لكنه لا يعرف ما إذا كانت

كل تلك السنوات قد قضت على مشاعر الصداقة والامتنان، أم لا، واندفعت عيناه إلى شاشة معلومات جمهورية المدينة، المعلقة مثل العنكبوت من السقف، وكان على استعداد لأن يقدم عمره لمنع هذا الجهاز اللعين من التشغيل أثناء حديثهما.

بدأ كمال يروي قصته المزيّفة، قائلاً: «مشاكلي كوابيس لا تنتهي»، كان قد اختار مثل هذا الطريق، مع الأخذ في الاعتبار احتمال أن عملاء الحكومة كانوا ينتصّتون إلى هذه العيادة، لم يستطع لا هو ولا حسين الكشف عن هوياتهما الحقيقية، وعلاقاتهما بحركة المساواة.

«إنها تجعلني مُتعبًا جدًا، وأصبحت لا تطاق الآن، وقد اعتدتُ رؤيتها مرة في الشهر، في الوقت الحاضر بدأت تتكرّر كل ليلة تقريبًا، لقد سمّمت هذه الكوابيس حياتي؛ فأنا محروم من النوم كل يوم، ولا يمكنني التركيز في عملي، ناهيك عن المخاوف المميتة التي أتعرّض لها أثناء نومي... ستكون حياتي جحيمًا إذا لم تستطع مساعدتي».

أوما حسين برأسه قائلاً: «حقًا، قد تكون الكوابيس لا تطاق في بعض الأحيان»، وطوى يديه الكبيرتين على بطنه، وقال له: «أخبرني ماذا رأيت، من فضلك، وسنرى ما يمكننا فعله حيال ذلك».

«أرى نهرًا، نهرًا مائجًا وهائجًا للغاية، ولديّ شعور بأن هناك شيئًا ما في قاع ذلك النهر يُمثّل مسألة حياة أو موت بالنسبة لي، لا أعرف ما هو، في أحلامي يظل لغزًا دائمًا، وعندما أكون على وشك القفز إليه، يختفى النهر فجأة، وأبقى في وسط الغابة، وأشعر بألم شديد، وأنفجر في البكاء، وأحيانًا عندما أستيظ يكون خدي مُبللًا، وأعتقد أنني أبكي حقًا أثناء النوم، وإذا لم أستيظ في تلك اللحظة، فسأركض بجنون عبر الأشجار لبقية الكابوس، وأشعر أنني لا أستطيع التنفّس، وينقطع نفسي، وأحاول العثور على النهر، فأنا حقًا... أحتاج حقًا

للعثور على النهر، لكنه لا يظهر أمامي على الإطلاق، وهذا يؤلمني حتى الموت... إنه يُدْمِرني».

«هل ترى هذا الكابوس كل ليلة؟».

«نعم مؤخرًا، إنه يرهقني حقًا يا دكتور، ماذا تعتقد أن النهر قد يُمثِّله بالفعل؟ ما الذي أبحث عنه، وما الذي أفقده؟».

«يجب أن أراقبك لفترة من الوقت لأقول لك ذلك... سأصف لك بعض المهددات، استخدمها لمدة أسبوع، ثم عُدْ إلي مرة ثانية، في لقائنا الثاني نتحدث عن طفولتك وشبابك، وسنحاول العثور على الحدث أو الأحداث التي أدَّتْ إلى هذه الأحلام، لكن علينا أولاً كبح جماح عواطفك؛ لذلك أطلب منك تناول هذه الحبوب لمدة أسبوع، قبل بدء العلاج، فقط في الصباح بعد الإفطار».

قال كمال بعيون ممتئة: «حسنًا، يا دكتور، سأخذها دون تأخير... شكرًا جزيلاً لك على مساعدتك، أعتقد أنك ستخرجني من هذه المشكلة، أنا أثق بك، وإلا فلن أتمكّن من العيش طويلاً؛ فإن هذه الكوابيس ستقتلني».

نهض ومشى إلى الطاولة، ومدَّ يده وصافح الرجل بطريقة ودية، وعندما التقت أعينهما لثوانٍ قليلة، نظر حسين إليه برأفة، وتفهُّم.

وضع كمال تذكرة الدواء التي كتبها الطبيب في جيبه، وغادر الغرفة بخطوات سريعة، وأثناء مروره على الاستقبال، وانتظار الدفع اللازم من بطاقة التأمين، لم يستطع أن يمنع نفسه من إخراج تذكرة الدواء، والنظر إلى الشريحة الدقيقة التي لصقها حسين في نهايتها، وكان سعيداً لأن نيشه كانت لا تزال تستخدم الاسم الرمزي «نهر» في حركة المساواة في اسطنبول، وأنها لم تجد صعوبة في فهم ما يريده صديقها منها، كان يعلم أن لا أحد سيخبره عن مكان نيشه، لا يمكنك الوصول إلى قادة حركة المساواة في اسطنبول، يمكنهم الوصول إليك إذا أرادوا؛

ولهذا كان يجب أن يعرفوا مكانك، سيبلغ حسين نيشه بالتأكيد بهذا اللقاء، وإذا أرادت المرأة رؤيته فسيكون رجالها قادرين على العثور على كمال بفضل شريحة التتبع هذه، كان مجرد أمل، لكن في بعض الأحيان يعني الأمل كل شيء، طوى التذكرة الطبية بعناية، ووضعها في محفظته، واستعاد بطاقة التأمين الخاصة به، وتوجّه إلى الباب.

كان يشعر بالسعادة عندما تقدّم إلى الحشد الهائل في اسطنبول، لم يتألم منذ أيام، كان يعمل على قضية مثيرة للاهتمام، وكان هناك احتمال أن يرى المرأة الوحيدة التي وقع في حبها طوال حياته، مرة أخرى بعد سنوات، كان من الجيد العيش بالرغم من كل مشاكله وأخطاره.

رفع رأسه، ونظر إلى السماء، وعلى الرغم من أنه لم يستطع رؤيتها من النقطة التي كان متواجداً بها، إلا أنه كان يعلم أن طائرة أوقيانوس بدون طيار، كانت تُحلّق حوله وتتبعه، كان لهذا الجهاز، مراوح صغيرة للغاية، بحجم نحلة كبيرة، وكاميرا رائعة، وقد ألصقت الفتاة عدسةً خاصّةً من اختراعها بهذه الكاميرا حتى تتمكّن من رؤية الشخص أو الشيء الذي كانت تُركّز عليه من بعيد، إن تصميمها المقاوم للرادار، وصغر حجمها ليكون غير مرئي للعين المجردة، جعلها أداةً تجسّس رائعة.

أرسل للفتاة ابتسامة دافئة؛ لأنه علم أنها كانت تراقبه بفضول الآن، سيكون من الأفضل لو بقي على سطح الأرض لفترة، في مستودع أوقيانوس؛ حتى تتمكّن حركة المساواة في اسطنبول من الوصول إليه، لم تكن هناك حاجة إطلاقاً لإزعاجهم بكل ترتيبات الأمن الموجودة في الأبراج العملاقة، أخذ نفساً عميقاً كما لو كان ذاهباً للغوص في البحر، وبدأ مشيه الصعب، واختلط بحشد من الناس يتدفقون أمامه مثل الطوفان.

## 12

كان وقت الظهيرة عندما دخلت وحدة فرسان حاكم السنجق إلى فناء التكيّة، وكانت أشعة الشمس تتدفّق بلُطف عبر الأغصان، وحيث كانت عالقةً في الأرض، كانت جسور الضوء تتشكّل بين السماء والأرض، وريح خفيفة ولطيفة تلاعب أوراق الأشجار، وكانت الطيور تطير بلا مبالاة من شجرة إلى أخرى، وكأنها تسير اللعبة، كان الدراويش قد استيقظوا منذ فترة، وتناولوا إفطارًا خفيفًا، وتجمّعوا في حضور كبار المولوية للاستماع إلى الحديث الأول في ذلك اليوم، وكان يلدريم، كالعادة، يغفو عند البئر، وذيله مدسوس بين رجليه، وكان يرى أحلامًا مزينةً بعظام لذيذة، ويشعر بالحكة من وقت لآخر بسبب الذبابتين الضخمين اللّتين يدوران حول رقبتة، لكن ذلك لم يزعجه بما يكفي ليقطع نومه الجميل، وأرهف السّمع بواسطة أذنيه الحسّاستين فجأة عندما سمع صوت مجموعة من الخيول تقترب بسرعة، من جاؤوا لا يمكن أن يكونوا من التكيّة، كان الجميع تقريبًا بالداخل الآن، وكان



هناك بالفعل فَرَسَان عجوزان في التكية، يتمُّ استخدامهما فقط لتلبية الاحتياجات العاجلة، وفي غضون ثوانٍ، دقَّت أجراس الإنذار في ذهنه، وقفز وركض في الاتجاه الذي أتى منه الغرباء، كما لو كان لديه براغيث تتطاير على ذيله، بدأ ينبج ويعلو صوته بتعبير تهديد.

تتكوّن وحدة سلاح الفرسان من عشرين محاربًا مدرعًا يتقدّمون على هيئة صفّين، وكان على رأسهم فارس صغير وسيم الوجه، يتقدّمهم بطول حصان، يرتدي قميصًا عاديًا بدلًا من الدرع، ووشاحًا حريريًا بدلًا من حزام مُكوّن من سلاسل مثل الآخرين، وكان الجنود مسلّحين بسيف طويل، بعضها عليها بُقْع دماء جافّة، وهناك أقواس وكنانات على ظهورهم، وبعضهم كان يحمل مسدّسات إسبانية أحادية الرصاص، بينما كان يحمل هو يَطاقان لامعًا فقط، يبدو وكأنه لم يُستخدَم قطّ.

وعندما اقتربوا من البئر، أوقف كبير الفرسان فرسه الأبيض ذا العُرف المرقّط، ونظر بتمعّنٍ إلى تكيّة المولوية، كما لو كان يحاول معرفة ما إذا كانوا في المكان المناسب، ونظر إلى الكلب الذي كان ينبج بشراسة عند قدميّ حصانه، وابتسم، وأعجب بغريزة الحيوان البائس لحماية أصحابه، ووضع يده على قلبه، وحيّاه باحترام، كان لديه حبٌّ صادق لكل من يحاول القيام بواجبه على الوجه الصحيح.

الكوخ، الذي كان يستخدم في الأصل كسماخانة؛ ولذلك كان أكبر قليلًا من الأكواخ الأخرى، كان أيضًا مكانًا للدردشة الصباحية، انفتح باب الكوخ الخشبي ذو المصراعين، وخرج حسام الدين چلبی وخلفه مظفر أفندي الشجاع، ومعه اثنان من الدراويش الشباب، بألف سؤال في أذهانهم، وقلّقي خانقي في قلوبهم، وساروا نحو الجنود.

وبعد أن بقيت خطوات قليلة بينهما، قال الشيخ بصوت عالٍ: «السلام عليكم أعزائي! أهلاً وسهلاً»، «مرحبًا بكم في بيتنا الفقير، من

أين أنيتم، وإلى أين أنتم ذاهبون؟ ما هي الرياح التي أتت بكم إلى هنا؟».

وضع كبير الفرسان المبتسم ذو الوجه الطفولي يده على قلبه مرة أخرى، وانحنى، وقال:

«مرحبًا، جلبني أفندي، سلام الله عليكم! نحن قادمون من مسافة بعيدة، ولم نتمكن من أخذ استراحة لأيام، لساننا وحنكنا جافان... نحن مرهقون، عندما سمعنا أن هناك تكية في هذه المنطقة، أردنا زيارتها، وقلنا دعنا نحظى بدعائك، ربما لديك وعاء من الحساء لتقدمه لضيوف الله».

قال جلبني وهو يتسم ابتسامة خفيفة: «بالأكيد يا عزيزي، على رؤوسنا»، ولم يبعد عينيه عن الرجل، محاولاً قراءة روحه بخبرته التي قاربت قرنًا من الزمان، لم يشعر بأي عداً أو سوء نية لدى هذا الشاب، بل على العكس من ذلك، شعر بالحب تجاههم.

«هذا بيت الله، وبابه مفتوح للجميع، لم نرفض أحدًا أبدًا حتى اليوم، اذهب إلى السماعانة، واسترح قليلاً، بئرنا نظيفة، يمكنك سحب الماء، وعندما يحين وقت تناول الطعام، نتشارك معًا في كل ما أعطانا إياه الخالق».

نظر قائد الفرسان إلى الرجل العجوز بعيون مُمتنة، وقفز من على حصانه بحركة سريعة، ووصل إلى جانبه في خطوتين، وعانقه بشدة، وكأنه كان سعيدًا جدًا لوجوده هنا، وسرعان ما ترجل الجنود الآخرون، وربطوا البغال والأفراس القوية في الأشجار القريبة.

قال قائد الفرسان: «نحن نلاحق عصابة شريرة داهمت قرية جوزه لي وأضرمت النار فيها... الملاحدون الذين قتلوا أفراد الأسرة، واعتدوا على شرف عشرات النساء، وقد دعا الناس عليهم كثيرًا! وتابعنهم حتى هذا المكان القريب، ولكننا فقدنا أثرهم في الغابة،

بعد أن نستريح الليلة، يجب أن نرحل مبكرًا غدًا، ومن واجبنا أن نجد هؤلاء المغتصبين قبل أن يفرّوا إلى الجبال».

قال چلبى بصدق: «ساعدك الله، أيُّها الشجاع... لسوء الحظ، لم نسمع ما كان يحدث، لم نكن نعرف شيئًا عمّا تحدث عنه، أعرف قرية جوزه لي، وسُكَّانها أناس طيبون، اليوم كلنا نصلي من أجلهم، وأتمنى أن تجدوا هؤلاء الأشقياء في أسرع وقت ممكن، وتكون أرضنا آمنة، أيمكنك أن تخبر هذا الرجل العجوز باسمك؟».

«ينادونني حسن، يا شيخي، ديليقازاقلي حسن، أنا لست من هذا الحي، لا بُدَّ وأنتك حسام الدين چلبى أيضًا، لقد سمعتُ اسمك كثيرًا في القرى التي زرتها، إنهم يحبونك كثيرًا هنا، ويقولون إنه شخص مبارك، وراعي الفقراء».

حنى حسام الدين چلبى رأسه، قائلاً: «حيّاك الله»، وكان مُحَرَّجًا، وأضاف، قائلاً: «القرويون هنا لديهم قلب نقي، ولديهم حسن ظن».

قال المحارب بصوت مُتَحَمِّس: «أعرف القليل عن آداب المولوية... يجب أن تكونوا في دردشة في هذه الساعة، آسف لجعلكم هنا، في الواقع، عندما كنت صغيرًا، كنت أقوم بمحاكاة الدراويش، وحلمتُ أن أتقدّم في السن في إحدى التكايا، مع الأسف، أخذتني الحياة بعيدًا عن أحلامي، وأجبرتني على تقلّد السيف... ستكون كذبة إذا قلت إنني لم أشهد السماع لفترة طويلة، وأنني لم أشعر بنشوة جميلة هنا الآن، هل يمكننا مشاهدتك وأنت تدور؟ بعد الدردشة، نرجو أن تفرح قلوب الجنود، لعلَّ صداً أعينهم -التي ترى الدم والموت باستمرار- يُحمى، يجب أن تكون هناك مثل هذا السماع العظيم، ولكن ينبغي أن يأتي كلٌّ من في تكية الدراويش!».

أحبَّ حسام الدين چلبى هذا الشاب الذي يقطر العسل من فمه، وينظر بودّ صادق، وقال بنبرة أبوية: «بالطبع يا عزيزي،

بالطبع، الكل موجود بالفعل بالداخل، وبيننا علاقات وطيدة، وإذا كنتَ ترغب في ذلك، انضمَّ إلى الدردشة أيضًا، وقِف وراء الرجال، واستمع إلى كلمات مولانا الحكيمة، نحن لا نقول أنت وأنا في هذه التكية، كل مَنْ يمرُّ على بابنا، هو واحد منا».

وضع ديليقازقلي حسن يده على قلبه، وأوماً بامتنان، واستدار، وأشار إلى جنوده لدخول السماعخانة، فعل المحاربون ما قاله لهم قائدهم، بتعابير تُظهر ولاءهم له، دون أن يفسدوا ترتيبهم.

كانت الفناجين مملوءة، ورائحة القهوة الزكيَّة تحيط بكل مكان، أخذ حسام الدين چلبى مكانه، وجلس القرفصاء على السجادة الفارسية السمكة التي تلاشت ألوانها منذ سنوات، هذه السجادة موجودة هنا منذ إنشاء تكية الدراويش، حتى إنه لم يتذكَّر من أين أتت، أو مَنْ تبرَّع بها، وتحدَّث لفترة طويلة، وأحيانًا بالدموع في عينيه، عن نصائح مولانا، التي كانت نورًا للعقول ونعمة للأرواح، كان أكثر حماسًا من المعتاد، في ذلك اليوم، حيث وجد مستمعين جددًا له، واستمع إليه جنود ديليقازقلي، مع الدراويش الشباب، في صمت، دون أن يتوانوا عن إظهار الاحترام، وفي غضون ذلك كانت عيون البعض منهم تتدلى من الإرهاق، لكنهم سرعان ما تحسَّنوا بسرعة، وبعد ذلك، انسحب المولويُّون من الحضور لفترة قصيرة، وأكملوا استعداداتهم، ودخلوا إلى السماع، لم يكونوا يشعرون بالاحتياج إليه في كل مرة، ولكنهم، من أجل الضيوف، هذه المرة، أخذ حسين ومصطفى -عازفًا الناي- ناييهما وملاَّ السماعخانة بإيقاعات جميلة.

بعد مشاهدة الدراويش بخشوع لفترة طويلة، التفت قائد الفرسان الشاب إلى حسام الدين چلبى، الذي كان جالسًا القرفصاء بجانبه، وسأله بأدب، قائلاً:

«كم سنة قضيت هنا يا شيخ، هل مضى وقت طويل جدًا على وجودك هنا؟».

أجابه، قائلاً: «منذ أن عرفت نفسي... في بعض الأحيان أشعر وكأنني لم يكن لي حياة أخرى من قبل، يبدو الأمر كما لو أنني فتحت عيني هنا، لقد كنت دائماً هنا».

نظر ديليقازاقلي حوله قائلاً: «هل كان الأمر دائماً هكذا هنا؟ كان متواضعاً جداً، ولطيفاً جداً».

قال الشيخ: «كانت أصغر، نصف الأكواخ بُنيت حديثاً، كلما زادت أعدادنا، نشأت الحاجة، لا نفعل أي شيء آخر ما لم نضطر لذلك، علينا قطع تلك الأشجار الجميلة لكل كوخ جديد، لا يكفيننا ذلك، إذا كان لديك سقف لتدفن فيه رأسك، فما الحاجة إلى السقف الثاني!».

سأله ديليقازاقلي، قائلاً: «كم عدد الأشخاص الذين يعيشون هنا، هل يمكنك أن تكفيهم كلهم؟ هل لديك ما يكفي من الطعام، هل تحتاج إلى دعم؟ إذا كنت ترغب في ذلك، عند عودتنا إلى التكية، يمكننا تجهيز قافلة لك، وإرسال كل ما تحتاجه».

قال الشيخ بتعبير مُمتنٍّ: «لا يا عزيزي، لا داعي لذلك، يكفي أن تفكر فيه، شكرًا لك، نحن كلنا تقريبًا هنا، كل مَنْ كان في تكية الدراويش موجود هنا، لا أكثر ولا أقل، عندما طلبت ذلك، جمعت الجميع هنا، نحن نكفي أنفسنا، والأشياء الزائدة تعكّر صفو السلام».

ضرب ديليقازاقلي يده بلطف على رُكبته، قائلاً: «أليس كذلك؟»، وأضاف، دون تغيير الابتسامة الودودة على وجهه، قائلاً: «وسمعت أن سليمان باشا كان يعتني بك جيدًا. كان يُلبّي كل احتياجاتك على الفور، ويحسب طلباتك كأوامر، حسنًا، لقد كان لدي بعض الطيش، أنا آسف».

جفل حسام الدين چلبى فجأةً، لم يُخبر أحدًا عن مساعدات سليمان باشا، ونهى أهل التكية عن التكلم يمينًا ويسارًا، من أين علم هذا المحارب بالأخبار، ثرَى عن أيّ قرية تحدث؟

دبليقازاقللي، الذي رأى أن الشيخ العجوز ظلّ صامتًا، استمرّ في التحدّث بلحنٍ يكاد يماثل ألحان الناي تقريبًا، دون أن يبعد عينيه عن الدراويش الذين كانوا يؤدّون رقصة سماع المولوية، وقال:

«هذا يعني أن الجميع هنا... لم يبقَ أحدٌ في الخارج، شكرًا لك، لقد قُمتَ بعمل جيد، لا يسعني إلا أن أسأل نفسي، ماذا سيأكل ويشرب الأشخاص الموجودون هنا من الآن فصاعدًا؟ كيف تستمرّ الحياة هناك يا چلبى أفندي؟ كما تعلم، لقد دُفن سليمان باشا في البحر مع كامل الأسطول العثماني في تششمه -ليمنحكم الله العمر المديد- ولم يتّضح ما إذا كان قد تعرّض للحرق أو الغرق! عفا الله عن تقصيركم... كيف ستصمد هذه التكية بدون رعايته، وماذا سيحدث عندما ينفد طعامكم! وبينما يروّج القرويون كلّ أنواع الشائعات حول هذا المكان، أعلم أنهم سيأخذون من ذنوبكم، لكن فم العالم ليس كيسًا حتى ينكمش!».

تجمّد الشيخ العجوز فجأةً، في البداية، شعر بالأسف لتلقّيه نبأ وفاة سليمان باشا بشكل مفاجئ، وغير مستعد، ثم رأى اللهيّب في عينَي دبليقازاقللي الذي كان ينظر إليه بشكل جانبي، وارتعدت فرائصه، للحظة، كشفت تلك النظرة له الظلام الموجود في أعماق روح قائد الفرسان الشاب، كانت هناك روح تفوح منها رائحة الدم لدى هذا الشاب، أخفاها بمهارة عن طريق وجهه الوسيم، وحديثه الممتع، وابتسامته الموجودة على وجهه، كما لو كانت مرسومةً بقلم رصاص، طوال حياته، لم يكن چلبى يخاف الموت أبدًا، ولم يكن يفكر في نفسه

في تلك اللحظة، لكنه كان قلقًا بشأن الدراويش الشباب الذين عهدوا بحياتهم إليه؛ لهذا السبب ارتجف صوته المنخفض النبرة.

وقال: «سليمان باشا... هل مات؟... رحمه الله، وغفر الله كل ذنبه... كان مولعًا بتكيتنا، وكان يحترمنا، هذا صحيح، كان يساعدنا أيضًا في ذلك الوقت، لا تقلق علينا، بإذن الله نعرف كيف ندبر أمورنا...».

ساد صمت قصير وغير سار، وجد حسام الدين جلبى بعض الشجاعة، ورفع صوته، قائلاً:

«ماذا يقول القرويون عنا، لماذا يغتابوننا؟ نحن نحبهم، واعتقدنا أنهم يحبوننا أيضًا...».

ضحك ديليقازاقلى ساخرًا، وقال: «إنكم تحبّونهم، ليس هناك شك في ذلك»، كان وجهه يزداد قتامة مع مرور كل ثانية، وكان صوته يزداد انخفاضًا، «ما هو الحب الذي لدى الملووية، يا حسام الدين جلبى؟ أنتم تحبّون الرقص مثل الراقصين، وتحبّون نغمات الناي هذه التي تدعو إلى الخطيئة! وتحبّون أيضًا العملات المعدنية الدموية من الباشوات الذين ماضيهم قذرٌ ومن صنّع القراصنة! إن حبّكم وفيرٌ لدرجة أنكم أحببتم امرأة شابة، وعشتم معها في تكية الدراويش طوال الليل! لقد تقاسمتموها بين أنفسكم كما تتقاسمون خبزكم! وهي كانت تتجوّل مع طفل الرّنا الموجود في بطنها دون خجل، وكانت تتجوّل ورأسها عار! هذا هو السبب في أن حاكم السنجق أرسلني إلى هنا، وقال ضَعْ حَدًّا لِهَذَا الْكُفْرِ وَقِلَّةِ الْحَيَاءِ الْمَوْجُودِينَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي يُدْعَى بَيْتَ اللَّهِ! سوف آخذ تلك الحورية المسكينة التي تدنّست في تكيتكم، وأحضرها لسيدي، ومن الآن فصاعدًا سوف تعيش بشرف في قسم الحريم».

فجأة ثارت ثائرة حسام الدين چلبى، واندفع الدم إلى خديّه، وتحوّل إلى مجنون بسبب الغضب، وانتهت مخاوفه السابقة بسبب الغضب الذي نتج من الإهانات التي تعرّض لها، كان هذا لا يُطاق! وصاح وهو يقوم مسرعاً، قائلاً: «كيف تجرؤ! يا لها من وقاحة! المسيح الدّجّال بلسان أفعى وكلمات كاذبة! ما ظنّك بنا! المسّ تلك الفتاة البريئة! حاول أن تمُدّ يدك عليها!».

ورفع ذراعيه الضعيفتين، وكان قائد الفرسان الشاب على وشك القفز عليه، كان بإمكانه فعلاً ذلك، لو كان أكثر رشاقة لكان قد بادر إلى يطقانه على الفور.

ارتجف الشيخ العجوز من برودة الحديد التي اخترقت بطنه، وانحنى لينظر إلى الدم الذي ينزف من جسده مثل الميزاب، كان يحلم بوفاته مرّاتٍ عديدة من قبل، وفي آخر لحظته كان يظنّ أنه سيذكر الله، وسيظهر أمام عينيه مشهد السماع أو مشهد سجود، وربما يرى الوجوه البرّاقة لأصدقائه الدراويش الذين معه، والذين شاركهم حياته، لكن المشهد الوحيد الذي ظهر في مُخيّلتَه في تلك اللحظة كان وجه عائشة البري، كل ما شعر به هو الألم الذي شعر به لتركها بدون حماية، سقط على ركبتيه هامداً، ومات في صمت.

الأشخاص الذين كانوا يدورون في حالة من النشوة لم يدركوا ما حدث لشيخهم، فقط عازفو الناي شاهدوا ما يجري، وعيونهم مُتّسعة في دهشة، وبمجرد أن توقّفت أصوات الناي، بدأ الجنود الآخرون المنتشرون في أرجاء الغرفة بالعمل، وتمّ سحب السيوف والمسدسات من الأحزمة، وتحوّل السماعخانة إلى مَسَلّخٍ كل بضع دقائق، وقبل أن يفهموا ما حدث، أصيب جميع الدراويش برصاصة في الرأس، أو طُعِنوا في بطونهم، واصطبغت أرضية وجدران الكوخ الخشبي باللون الأحمر الدموي، الوحيد، الشجاع مظفر أفندي، أحنى ظهر جنديين



بقوته المؤلمة الباقية من الأيام الخوالي في المصارعة الزيتية، لكنه توفي في النهاية بثلاث رصاصات في صدره، من الغدارة.

قام ديليقازقلي حسن، مع الكراهية التي تغطي وجهه لأنه لم يُعَد بحاجة إلى التظاهر بالطيبة، بفحص الجُثث المكْدسة على الأرض واحدة تلو الأخرى، وقطع أعناق عدد قليل من الدراويش الذين ما زالوا يتنقّسون، بيطقانه، وأثناء ذلك كان هادئًا ومرتاحًا كأنه يذبح شاة، وبصفته رئيس حُرّاس حاكم السنجق، كان قد شارك مرّاتٍ عديدة في الدردشة مع ديمرجي ولي خوجه، وسمع عدّة شائعات لا حصر لها منه، مع سيّده، حول انحرافات الدراويش المولوية، بينما كان يستمع إلى ولي خوجه، فإن حقيقة أن المولويين كانوا ينفثون سمومهم على الآخرين في تكايا الدراويش التي أسسوها، كما لو أن ممارساتهم الدينية لم تكن كافية، وكانت مخالفةً للدين، دفعته إلى الجنون؛ لهذا كان في حالة من الخشوع كما لو كان يقوم بواجب إلهي، ويؤدّي عبادة مُهمّة، بينما كان يأخذ أرواحهم الآن.

ولما أنهى عمله سجد على الأرض المغطّاة بالدماء سَجْدَةً شُكر، ووقف طويلًا دون أن يرفع جبهته عن الأرض، كانت رائحة الدم التي تملأ أنفه، مثل رائحة حدائق الجنة بالنسبة له، وفي ذلك الوقت، انسحب الجنود إلى زوايا الغرفة، ينتظرون بصمت خوفًا من عواقب إزعاجه في مثل هذه اللحظة.

وبعد فترة، انفتح الباب ذو المصراعين في السماعخانة، واندفع جنديان قويّا البنية مع فتاة صغيرة كانا يسحبانها من ذراعيها، وأخذاها إلى الداخل.

وصاح الجندي الأصلع، قائلاً: «يا قائدي! لقد عثرنا عليها!»، لقد كان له الحق في الكلام لأنه كان له أقدميّة ثلاث سنوات أكثر من الجندي الآخر.

«كانت مختبئة في أحد الأكواخ، ولم تجعلنا نبحث عنها كثيرًا، لقد خمشت كل مكان خاص بنا، إنها شقيّة مثل قطة شريرة!».

نهض ديليقازاقلي من الأرض، وطوى يديه أمامه، ونظر إلى الفتاة الجميلة التي تقف بين الرجال بعيون مفتونة من الدهشة، كان يعتقد أن ما سمعه عن المرأة التي تعيش في التكية كان مُبالغًا فيه، لكن الجمال المسحور الموجود أمامه لا يمكن وصفه بالكلمات، لم تكن أي امرأة قد أتاحت له الفرصة لرؤيتها من قبل، يمكن أن تقارن بها، كمال ملامحها، واللمعان السحري لشعرها، وجمال قوامها أضافوا لها سحرًا خارقًا، كان من الواضح أنها حامل، لكن هذا لم يُقلّل من جاذبيتها على الإطلاق، وازدادت الكراهية التي شعر بها تجاه المولوية، الذين حبسوها في تكية الدراويش هذه، وجعلوها لعبة لرغباتهم الشيطانية.

قال بصوت حنون: «لا تخافي بعد الآن، يا صغيرتي، لقد أنقذناكِ من هؤلاء الكفّرة، من الآن فصاعدًا لن يكونوا قادرين على تدنيّسكِ، بإذن الله ستعيشين حياة كريمة في حريم حاكم سنجقنا، وسوف تُربّين طفلك هناك بشكل لا تشوبه شائبة، أنت بأمان معنا الآن».

لم تكن عائشة تعرف ماذا سيحدث لها عندما تمّ إحضارها إلى السماعانة، كانت فقط تخشى أن يجرّها رجلان لا تعرفهما، بالقوة، واستغرق الأمر بضع ثوان حتى تفهم المشهد الذي شاهدته في الداخل، وقد أصيبت بالرعب عندما أدركت ما يجري، وأحرق الحزن والكرب والغضب الذي لا نهاية له قلبها، وأضرم النار في جسدها كله، وهربت من أيدي الرجال بغضب، وركضت إلى حسام الدين چلبّي، الذي كان ملقى على الأرض ملطخًا بالدماء، وعانقت جسده الميت بقوة، وأنت من الأم.

عبس دليقازاقلي من ردُّ فعل الفتاة، مَن يدري، ترى هل وقعت هذه الفتاة في حب الدراويش، الذين كانت تتنقَّل في أحضانهم، مَن يدري من أيِّ منهم قد حملت ابن زنا؟ ربما يكون من الضروري التصرُّف بصرامة لإعادتها إلى الطريق المستقيم، وأشار بيده إلى اثنين من الجنود ليرفعاها من على الأرض.

شعرت عائشة بالخوف والحزن والعجز مرَّاتٍ عديدة من قبل، في مثل هذه الأوقات استيقظت القوة بداخلها، وأبقتها على قيد الحياة، واليأس والألم الذي شعرت به الآن كان لا حدَّ له، لم تشعر من قبل بمثل هذا الغضب، واستولت رغبة مُلِحَّة في الانتقام على كيائها بالكامل، كانت عيناها ملطَّختَيْن بالدماء، وهي تنظر إلى الجنود الذين يقتربون منها.

فجأة، انجرف الجنود الذين يقتربون منها عن الأرض، وتطايروا مثل الحجارة في الهواء، واصطدموا بالجدار بسرعة كبيرة، وسقطوا على الأرض وهم مُنْهَكُونَ.

دُهِش دليقازاقلي حسن، ولم يستطع أن يعرف ماذا يفعل بالحدث الاستثنائي الذي شهده، ورأى الفتاة الصغيرة تستقيم ببطء، وتتَّجِه نحوه بتعبيرٍ جليديٍّ على وجهها، ونظرة مجنونة في عينيها، فانزعج فجأة، وصرخ مطالبًا رجاله بالإمساك بها.

اندفع عددٌ قليل من الجنود لتنفيذ هذا الأمر، ولكن قبل أن يتمكنوا حتى من التقدُّم خطوتين تَمَّ إلقاؤهم على الجدران، وابتعدت عن قبضتهم، وبعد ذلك، نشطت سيوف الفرسان كلهم، بشكل لم يستطع أيُّ منهم فهمه، ودارت في الجو، وانغرزت في حناجر أصحابها، وقبل وصول عائشة ناحية دليقازاقلي، بقي اثنان فقط يتنفَّسان في السماعانة.

توصّل قائد الفرسان إلى استنتاج، مفاده أنها شيطان من الجحيم، خرج في مواجهتهم، وانحنى إلى الخلف على الحائط، وعندما أدرك أنه لا يوجد مكان يهرب منه، سقط على ركبتيه، وبدأ في البكاء والصلاة، وكان قد مدّ يطاقانه، الذي كان يمسك بمقبضه بإحكام بكلتا يديه، وكان يشاهد الفتاة الصغيرة تقترب خطوة بخطوة، فارتعدت فرائصه، لا بُدَّ أن يكون هناك دعاء يجب قراءته في مثل هذه المواقف، يجب أن يكون بالتأكيد، لقد شارك في جميع دردشة ديمرجي ولي هوجه، كان قد حفظ كل كلماته، لكن لم يخطر بباله شيء الآن.

اقتربت عائشة بما يكفي لتلمس بطنها بحافة اليطقان، ثم توقفت، وأحكمت قبضتها، وبالرغم من مقاومة صاحب السيف القصير، فقد بدأت في العودة ببطء، وفي ثني معصمي الشاب، وسرعان ما استقرَّ طرف السيف تحت ذقن ديليقازاقل، ومع أن الشاب حاول فتح أصابعه، وإلقاء السيف، وهو في حالة من اليأس والخوف، لكنه لم تكن لديه قوة لذلك، كان الأمر كما لو أن مكبسًا حديدًا كان يضغط على يديه، ويشبك أصابعه معًا، الخوف من الموت، الذي كان يحتقره دائمًا حتى ذلك اليوم، استولى على روحه بأكملها، وأصاب جسده ارتعاش، لم يستطع السيطرة عليه، وفتح شفثيه في محاولة أخيرة، وأنّ، قائلاً: «سامحيني...».

كانت عيون عائشة تَقْطُر دَمًا من حين لآخر مع الدموع، وكان وجهها شاحبًا كَرَجُلٍ مَيِّت، وغضبها يُغْذِّي قُوَّتَهَا، ولكنه كان يُنْهِك قواها أيضًا، لم تبعد جُثَّتُ الدراويش المقتولين، والذين أحبَّتْهم مثل عائلتها، من أمام عينيها.

قالت، وكأنها تبصق: سامحك الله.

كان اليطقان عاليًا في حلق ديليقازاقل إلى أقصى درجة.

عملت عائشة بلا توقف في ذلك المساء، وفي صباح اليوم التالي، ودفنت جميع الدراويش واحدًا تلو الآخر، ولم تكن مضطرةً حتى إلى أن تلمس يدها الأرض أثناء القيام بذلك، كانت الأرض والحجارة تطيع أوامرهما، وتطير، وكانت الحفر تفتح من تلقاء نفسها، وبينما كانت تضع حسام الدين چلبی، الذي كان دائماً يظهر لها مَوَدَّةً كبيرة، وحبًّا، في قبره، قَبَلَتْ لحيته البيضاء للمرة الأخيرة، ولم تنقل جُثث الجنود من السماعخانة، وأشعلت النيران في الكوخ قبل مغادرتها التكية، لم تكن تعرف بعدُ مصير سليمان باشا، لكن بسبب الكارثة التي مرُّوا بها، قال صوتٌ بداخلها إنها لن تستطيع أن تراه مرة أخرى، لو كان سمك قرش الإمبراطورية العثمانية على قيد الحياة، لمَّا تجرَّأ أحد على اقتحام التكية، التي كانت تحت حمايته، الآن كانت وحيدة في هذا العالم الواسع، مع الطفل الأعزل في رَحِمِها.

جاء صديقها المخلص يلدریم، الذي كان له نفس المصير، ووضع ذيله بين رجله، وفرك رُكْبَتَه بحزن، انحنى عائشة، وربَّتْ على فراء الكلب، وراقبتْ ألسنة اللهب التي كانت تتراقص أمامها بهدوء، لفترة، وكان سقف السماعخانة الخشبي على وشك الانهيار، أخذت نفسًا طويلاً من رائحة الدخان التي كانت تحرق منخارها، وتبَدَّد مع ارتفاع الدخان، وفكَّرت في النصيحة التي قدَّمها له حسام الدين چلبی بالبقاء بعيدًا عن الأنظار، كانت تشعر بالذنب تجاه الكارثة التي حدَثَتْ لهم، ولم تكن تعرف مقدار نصيبها فيما حدث، لكن صوتًا بداخلها كان يقول إن لها علاقةً بمجيء هؤلاء القتلة إلى تكية الدراويش، من الآن فصاعدًا، لن تختلط أبدًا بالناس، وستختبئ دائماً بعناية، لم تكن تسمح بإيذاء الأبرياء الآخرين بسببها، وقفت بعزم، وسارت إلى أعماق الغابة، نظر يلدریم بحزن خلفها لفترة طويلة، ثم سار بخطوات بطيئة، واستلقى على قبر حسام الدين چلبی، وبدأ مناوبته الأخيرة...

## 13

مدّ قره قوتشلو أشرف أفندي -حاكم السنجق- يده وأخذ حبة عنب كبيرة من الصينية الذهبية الموجودة أمامه، وبعد أن مرّرها بين أصابعه لفترة، وضعها في فمه، وكان الجزء الأمامي من قفطانه الحريري المطرّز، الذي أحضره من إيران، مفتوحًا، وحاشية القفطان المزينة بنقوش من الورود تلامس الأرض على الأريكة التي كان مستلقيًا عليها، ولحيته الكثيفة نظيفة ومعتنى بها جيدًا، وشاربه الرقيق والطويل مصبوغًا باللون الأحمر للنبيذ الفرنسي الذي كان قد تناول جرعة كبيرة منه للتو، وبعد مضغ العنب بسرور، بصق البذور التي لم تعجبه في الوعاء المصنوع من الفضة الموجود في يده الأخرى.

ضحك، وهو يمدّ يده إلى الزجاجاة الموضوعة على المنضدة الزجاجية، قائلاً: «إذا عبث ديمرجي خوجه معي بنبيذٍ مثل هذا، فمن المحتمل أن يفقد عقله»، وعندما لاحظ أن قاع الزجاجاة كان مرئيًا، نادى على

الحارس النحيف والقوي الجسم، الذي كان يقف على الباب، يمسك الأريكة.

وقال: «يا حسني، اركض للداخل، وأحضِرْ لي واحدة جديدة! لا تُخلِجْني أمام ضيفي، وأحضِرْ لضيفنا الأفضل! قُلْ لأحمد أفندي، إنه يعرف ما يجب أن يقدمه».

ضحك الرجل القصير البدين الذي بدا وكأنه قذيفة مدفعية، وقال: «لا تهتم يا سلطاني»، وقد وقف أمام حاكم السنجق، وكان متدنِّراً بقفطان أسود كما لو كان يشعر بالبرد، وأكمام القفطان وياقته حمراء، ولديه عيون عسلية كبيرة غير مريحة تتناقض مع أنفه التي مثل الحق، وقال: «أنا جئتُ لأتحدَّث عن العمل، لا لأستمتع في حضوركم، ما شربته يكفيني، إنه مؤثِّر بالفعل، إذا تجاوزت الحدَّ بشكل أكبر، سوف يتورَّم وجهي وعيني، اسمحوا لي ألا أكون أضحوكة العالم».

غمز قره قوتشلو بعينه، قائلاً: «لا تكن مُحْتَالاً، يا حلمي أفندي، إذا لم يكن لديك شراب، فسأشربه، وهذا ليس هباء، لا تقلق! عندما لا يكون دميرجي خوجه حولنا، دعني أحصل على نصيبي، فهذا صعب بعد ذلك!».

وتساءل حلمي أفندي قائلاً: «أين هو معالي الخوجه، أنا لم أره منذ أن جئتُ؟»، نظر الرجل بقلق إلى اليمين وإلى اليسار، كما لو كان مختبئاً في أحد أركان الغرفة، وقال:

«لقد ذهب للوعظ في القرى مرة أخرى، كان يفعل ذلك مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، كان يذهب إلى أماكن مختلفة في كل مرة، وبغَضِّ النظر عن عمره، فهو لا يتكاسل أبداً... إنه يتكلم بشكل جيد جداً، ويشرح جيداً أن الولاء للدولة أمرٌ إلزامي، في القرى التي وعظ فيها، يتناقض الفساد، ويتم جمع الضرائب بسهولة أكبر؛ لهذا

السبب أتركه يتجول كما يشاء، إذا كنت تعرف فقط كم عدد اللصوص حولنا! لا، لم يَقم سناجق الدولة العثمانية بتحصيل مثل هذه الضرائب، ولم يكن لديهم المال لإطعام أطفالهم... وما يقال كذب! هل لدى السناجق الأخرى نفس القدر من النفقات مثلنا، إنهم لا يعرفون كم قطعة ذهبية يتكلفتها قصر الحاكم هذا المكوّن من مائة وأربعين غرفة! كما لو كُنّا قد بنيناها من أجل متعتنا الخاصة، أروع قصر في المنطقة المجاورة، أردنا سماع اسم سنجقنا، لكننا لم نتمكن من مساعدة القروي الناصر للجميل!«.

تنهّد بعمق ونظر بعيداً بقلق، كان يروق له العثور على شخص يمكنه رؤية العالم من نفس النافذة، ويتشاكيان.

وأضاف قائلاً: «إذا لم تكن خطابته قوية جداً، وإذا لم يَقم بما هو أكثر من القوة الغاشمة في جلب القروي إلى اليمين، لكنت قد ألقيته بعيداً بالفعل، إنه طائش حتى إنه يتصرّف بخطرسة من وقت لآخر تجاهي، هل تصدق ذلك، إنه يحاول إلقاء الدروس! من الضروري الانتباه إلى جماعة هذا الشيخ، فمن غير المعروف ماذا سيفعلون ومتى، يجب الحذر حتى لا تلتفت إليك ألسنتهم الحادة».

«يقولون حالياً إنه يفكر دائماً في المولوية، هل هذا صحيح؟ يقول في خطبته إن جميع التكايا هي أعشاش للشر، ويجب إغلاقها على الفور».

أوما قره قوتشلو برأسه قائلاً: «إنه يقول ذلك»، لم يجد الدراويش متدينين بما فيه الكفاية، لا يوجد مكان في الدين لرقص الدراويش، وعزف الناي، إلخ... أنا لا أتحدّث معهم، لن أكذب، من الجيد أن يُحرّض الناس ضدهم، يا حلمي أفندي! لهذا سمحتُ له بالتحدّث بقدر ما يريد».

«ما الخطأ الذي اقترفوه يا سلطاني، ما هي الأخطاء التي رأيتموها؟ هل أظهروا أي عدم احترام لجنابكم؟».



مدَّ حاكم السنجق يده، وأخذ حَبَّة عنب أخرى، هذه المرة قضمها بشدة، وطحن البذور بين أسنانه، وقال:

«لا يا عزيزي، ما هذا بحق الجحيم! لا يمكنهم أن يجرؤوا.. لكن يا حلمي أفندي، إنه يمدُّ يده لكل مَنْ يأتي إلى التكية، ولا يعرف حدوده، إنهم يُطعمون كُلَّ مَنْ يطرق بابهم دون أن يقولوا إنهم مفسدون أو متمرّدون، حتى رجال خليل إيفي الذين يزعمونني! قلت كم مرّة حدّرتكم، وقلت لا تفعلوا ذلك، قال القوَّادون: «لا يمكننا رفض الجائع! حتى لو كان قاطع طريق، فهو ضيف الله!»، لم أستطع التعامل مع هؤلاء الدراويش المجانين، لكن ديمرجي خوجه سوف يتغلَّب عليهم، إن شاء الله! لقد وضعتُ ديليقازاقلي، وهو أحد رجالي الأقوياء، تحت إمرته، وسوف يقتلعونهم معًا، ثم دَعَّ خليل إيفي يفكر، أين سيحتمي عندما يكون في موقف صعب!».

قطب حلمي أفندي جبينه، قائلاً: «أنت مُحِقُّ يا سلطاني، يجب ألا نعطي حتى الماء لهذا اللص»، عند سماع اسم خليل إيفي، تصاعد غضبه إلى القمة، كان يكبح جماح نفسه لفترة طويلة، لكن الغضب جعله أكثر جوعًا، وأخذ قطعة كبيرة من الدجاج اللذيذ من الصينية الموجودة أمامه، منتظرًا أن يلتهمها، وألقاها في فمه، تحدّث بصعوبة، وهو يحاول المضغ.

«في الماضي، اعتزّضت عصابة هذا الشيطان قافلةً لي، لقد سرقوا من بضائعي حمولة جملين بدون خوف من الله! من المفترض أنه كان هناك العشرات من الحراس الفرسان، وعندما رأوا خليل إيفي أمامهم، لم يتمكّنوا من مواجهته، وتبوّل المقرفون على جيادهم! حمولة جملين، مال العالم! هل يكتسبها الإنسان بسهولة! لهذا أتيت إليك يا سلطاني، أصبّحت طرق قافلتنا وكرًّا لقطّاع الطرق! نحن بحاجة إلى إيجاد حلٍّ لهذا!».

قال قره قوتشلو بحزن مُزَيَّف: «على الرغم من أننا نستطيع العثور عليها، فإن الأموال التي أرسلها العثمانيون إليَّ مُحدّدة»، وفتح يديه بلا حول ولا قوة.

وأضاف قائلاً: «كم عدد الفرسان الذين يمكنني إطعامهم بهذا القدر من الأموال؟ كم سهماً أستطيع أن أضعها في كنانة رجالي! خليل إيفي لديه جيش خاص به، إذا جاء إلى قصري، فسوف يدُمّر هذا المكان على رأسي، إنه لا يلمسني خوفاً من العثمانيين، لكني لا أستطيع أن أُلْمسه أيضاً، أنا لست قوياً بما يكفي يا حلمي أفندي! نحتاج الكثير من الرجال، نحتاج إلى خيول، نحتاج إلى أسلحة، حتى لو كنتُ حاكم السنجق، فهذه الأشياء ليست مجانية! سلطاننا مشغول بفتح البلدان، وهو غير مهتمٍّ بمشاكلنا الصغيرة، علينا أن نعتني بأنفسنا».

ابتسم التاجر المحنَّك ضمناً إلى قره قوتشلو أشرف أفندي، فهو كان يعلم منذ البداية أن الكلمة ستأتي إلى هنا، ولذلك لم يُطَل في الكلام، وفتح الجزء الأمامي من قفطانته، ووضع أربعة أكياس كبيرة على طاولة القهوة، كانت مُعلّقة من السلسلة الرفيعة التي لُفَّها حول بطنه.

وقال بابتسامة صفراء: «لقد اعتقدنا ذلك أيضاً يا سيدي، جلسنا وتحدّثنا مع أصدقائي التجار، وقلنا: كم نحن عبيد جاحدين، إننا لم نشارك في تحمل المسؤولية حتى الآن، حاكم سنجقنا يقاتل اللصوص وقُطّاع الطرق على حساب حياته، وطلبنا أن يكون هذا دعماً صغيراً مثلاً، هذه فقط البداية، وسيأتي المزيد إذا وعدتنا، نتمنى منك أن تتبع خليل إيفي بكل سلاح الفرسان الذين تُكلّفهم بأعمال مختلفة، سنقدم لك كل ما يلزم للخيول الجديدة والرجال والأسلحة، إنه دَيْنٌ في أعناقنا! ومن الضروري القضاء على قُطّاع الطرق هؤلاء الذين يقومون بتخريب الدولة العليّة».

نظر قره قوتشلو إلى الأكياس المصطفة بجانب كأس النبيذ بعيون برّاقة، كان بإمكانه أن يُخمّن أنها كانت مليئة بالأحجار الكريمة والعملات الذهبية، يمكن قول أشياء كثيرة عن حلمي أفندي، لكن لا يمكن القول إنه لم يكن تاجرًا ولا يعرف ماذا يقدم لمن، لفترة طويلة، إن غَضَّ البصر عمّا فعله قُطّاع الطرق منذ فترة طويلة، يعني أن التجار الذين حملوا حياتهم في أكياسهم قد أعادوا النفايات، كانت إمارة السنجق عنوانًا مؤقتًا، يمكن أن ينتزع منه يومًا ما، وكان ينظر إلى القصور في أذهان أولئك الموجودين في اسطنبول، أو حدوث تغيير في القصر، حتى ذلك اليوم، كل مَنْ تمكّن من القبض عليه، أفلت من العقاب، لم يكن ينوي مساعدة هؤلاء الزنادقة، الذين دُفّوا حتى حناجرهم، والذين عاشوا عالة على القرويين، بدون مقابل!

قال بصوت قوي: «من أهم واجباتي ضمان سلامة التجارة في هذه الأراضي»، ومدّ يده، وأخذ الأكياس، ووضعها داخل قفطانه.

وقال: «بالطبع، لن نضايق العبيد المخلصين لسلطاننا، الذين يعملون من أجل رفاهية الإمبراطورية العثمانية مثلك، ليبتهج قلبك يا حلمي أفندي، طالما أن دعمك لا يتناقض، فسوف أطوي صحيفة خليل إيفي، وغيره من المفسدين بإذن الله».

وضع الحارس الشاب زجاجة النبيذ الجديدة التي أحضرها على طاولة القهوة، والتقط القارورة الفارغة، وابتعد بهدوء.

نظر حلمي أفندي بقلق إلى الحارس الذي يخشى سماعه ما يقولونه، وأدرك قره قوتشلو ذلك، ضحك بسعادة، وقال:

«لا تقلق يا سيد حلمي! إن حسني وُلِدَ أصمًّا وأبكم منذ ولادته، أنا أدعوه بدافع العادة، وإلا فلن يسمع ما أقوله، لقد أشرت بيدي فقط منذ قليل، وهكذا فهم ما أريده، وهو أيضًا أمّي، فكل ما

يشهده يُسَجَن في عقله، وإذا بحثنا لن نتمكّن من العثور على شخص مثله في العالم! وإلا ما كنتُ جعلته كاتِمَ أسراري!».

ورفع كأسه في الهواء، ومدّه تجاه التاجر العجوز، قائلاً:

«يكفي الحديث عن العمل، الآن دعونا نشرب نخب انتصارات دولتنا العليّة وصحة سلطاننا، سلطان السلاطين!».

«ولينل أعداء الثروة مثل خليل إيفي، جزاءهم!».

«فلنشرب نخبه أيضًا يا حلمي أفندي، فلنشرب نخبه أيضًا!».

نظر حاكم السنجق والتاجر إلى بعضهما البعض، وكانت أعينهما تلمع، وهما يقارعان الكؤوس.

وفي الوقت نفسه، كان هناك طفل اسمه بختيار مستلقيًا في ظل شجرة دُلب معمّرة، يستمع إلى صوت التيار المتدفّق بجانبه، في زاوية هادئة من الغابة، على بُعد يومين من قصر الحاكم، حيث كانا يتحدثان، لم يستطع البقاء في مكان مغلق لفترة طويلة منذ أن عرف نفسه، فكلما سنحت له الفرصة، كان يهرب من المنزل، ويمشي لمسافات طويلة في حضان الطبيعة، وأطلق عليه «دميم» في قريته بسبب وجهه المشوّه، وأنفه الكبير ورأسه الأصلع؛ لذلك كان يفضّل دائماً قضاء وقته بمفرده على أن يكون أضحوكة الأطفال الآخرين، ولم يجد صعوبة في الانضمام إلى عصابة خليل إيفي، وأن يصبح أحد مراقبيه عندما جاء رجال السنجق إلى قريتهم، بسبب ديونهم الضريبة، وأعملوا السيف في عائلته بأكملها، حتى يكونوا عبرة للآخرين، كانت المراقبة تعني العُزلة، وكانت مهمّته التّجول وحيدًا في الغابة، إبلاغ العصابة بكل ما كان يدور حوله، والجنود الذين يأتون بالقرب منهم، كان معتادًا على العُزلة، وكان لديه عيون نسر، وآذان حادّة، كما لو كان قد وُلد للقيام بهذه المهّمة، لا أحد يستطيع أن يقترب منه على بعد كيلومتر واحد دون أن يلاحظه.

ولهذا السبب فقط، كان من الصعب تقريبًا أن يأتي شخص غريب إليه، ويقترب منه، ويحيّيه، دون أن يشعر بروحه.

صاح في رُعبٍ وذَهول، قائلاً: «عفوًا! مِن أين أتيتِ أيضًا!»، وقام على الفور ووقف، مستعدًّا للركض بين الأشجار عند أدنى تهديد، كما علَّمته العصابة.

عندما مرَّت الإثارة الأولى، ونظر إلى الجمال الساحر، والوجه البريء للفتاة التي تقف أمامه - ساد هدوء عذب فجأة في قلبه، كان من الواضح لكل شخص، أنه لم يكن أحدَ جنود حاكم السنجق.

قالت عائشة بابتسامة حزينة: «لقد أقيتُ التحيةَ فقط»، وتراجعت بضع خطوات إلى الوراء لتطمئنّه، «من فضلك لا تَخَفْ، لا تهرب مني... لقد كنتُ وحدي في الغابة منذ أيام، وللمرة الأولى وجدتُ شخصًا لأتحدّث معه، لن أُوذيك».

قام الصبي بضمّ قبضتيه الصغيرتين، واقفًا على رؤوس أصابعه لإظهار طوله، وقال:

«لم أكن خائفًا! انا لست خائفًا من أحد! هل أخاف من فتاة! هاه! لقد تفاجأتُ، أنا بطل هذه الغابة! من أين أتيتِ، ولماذا تصدرين صوتًا...».

ابتسمت عائشة بتعاطف، وهزّت رأسها، وقالت: «آسفة، أيها الفتى، اعتقدتُ ذلك، لماذا يجب أن تخاف على أي حال، هل هناك ما يُخشى منه؟ هكذا حدث لي، سامحني».

وخفضت صوتها، ونظرت حولها بخجل، وقالت:

«أحاول عدم إصدار صوت، ربما يوجد أشخاص سيئون من حولي، لا أريد هم أن يجدوني، إذا وجدوني، فسوف يؤذونني، اسمي عائشة، وأنت ما اسمك؟».

لم يستطع بختيار أن يرفع عينيه عن جمال عائشة الساحر، لم يَر الكثير من النساء، لكنه كان يعرف النساء الموجودين في قريته، ومع ذلك استطاع أن يفهم الوضع لدرجة أنه كان يشعر أن هناك شيئاً غير عادي في هذه الفتاة، ولاحظ بُقْعَ الدم الجافّة على رداء الفتاة الأبيض، من الواضح أنه تمَّ غَسْلُهُ، لكن لم يتم تنظيفه بالكامل.

وقال: «ينادونني بختيار... هل أنتِ مصابة؟ إن قميصك مُلَطَّخ بالدماء... ماذا حدث لك؟».

تنهّدت عائشة بمرارة، قائلة: «إنه ليس دمي، لقد جئت من تكية حسام الدين چلبى، داهم رجال حاكم السنجق تكيّتنا، وأعملوا السيف في كل شخص، كل شخص... تلك الدماء هي دماؤهم... أخذوا عائلتي مني، لقد أخذوا كل شيء مني... وأنا كنت مختبئة في الغابة منذ ذلك الحين».

شدّ الصبي قبضتيه مرة أخرى، وقال: «الأوغاد الأشرار!»، كان حزيناً لأنه يتقاسم نفس المصير مع الفتاة، وشعر أنه قريب منها لنفس السبب.

قال بصوتٍ مُقنِع: «لا تخافي، لن يجدوكِ هنا، حتى لو وجدوكِ، سأحميكِ!».

لم ترغب عائشة في إخبار الطفل بما حدث في السماعخانة، لم تكن تريد أن تتذكر أيضاً، لو استطاعت أن تفعل ذلك، ستمحو وتزيل لحظات الألم والغضب من ذاكرتها.

وقالت بحنان: «شكراً لك أيها الفتى الشجاع»، وأثّرت فيها شجاعة بختيار التي كانت أكبر من طوله، ووضعت تعابير جادّة على وجهها، حتى لا يظنّ أنها تسخر منه.

وقالت: «ماذا تفعل هنا، ماذا تفعل وحدك؟ هل عائلتك قريبة؟».

نظر الصبي حوله بعناية، كما لو كان هناك شخص يمكن أن يستمع إليه، وخفض صوته إلى حدٍّ يصعب سماعه، وقال:

«هل تعرفين خليل إيفي؟ صاحب هذه الجبال؟ أنا المراقب رقم واحد لديه، وعندما يقترب جنود حاكم السنجق الحقيق، أراهم أوَّلًا، وأبلغه على الفور، هؤلاء الأشخاص المرتبكون لا يشتبهون بي؛ فهم يعتقدون أنني طفل شقي يتجول عبثًا في الأرجاء، أوه، لو لم أكن موجودًا، لكانت عصابة خليل إيفي قد تعرَّضت لهجمات عديدة!».

سمعت عائشة باسم خليل إيفي عدَّة مرَّات أثناء حديثها مع الدراويش في التكية، كانوا يقولون إنه تمَرَّد على حاكم السنجق، وجمع العديد من الرجال الشجعان، وضمَّهم إليه، قيل إنه لن يجده أحدٌ إلَّا إذا أراد هو ذلك، وضعت يدها على بطنها، وشعرت ببركلات طفلها، وربما وجدت أيضًا مكان الاختباء الذي تحتاج إليه، كانت تعتقد أنه يمكنها الاختباء من حاكم السنجق بجانب عصابة خليل إيفي وتربية طفلها بأمان، وإلى جانب ذلك، ربما يمكنها أيضا الثَّار لحسام الدين جلبلي والدراويش المحبوبين، بمساعدته.

هبَّت ريح باردة؛ ممَّا جعل الأوراق على الأغصان تتموَّج، وسقطت بضع أوراق جافَّة عند قدميها، من بعيدٍ غنَّى عصفور، وعوى أحد الذئاب، كان عواء الذئب يشبه النحيب.

وسألت الصبي، قائلة: «هل تأخذني إليه؟، يقولون إن حاكم السنجق لديه العديد من الجنود، يمكنني مساعدتك في محاربته».

صَفَّق بختيار بقبضتيه الصغيرتين معًا، وضحك بصوتٍ عالٍ، ومسح أنفه الضخم بظهر يده ونظر إلى الفتاة بذهول، وقال:

«هل أنتِ التي سوف تساعدِيننا؟ اسمحي لي أن أضحك! أنتِ فتاة... هاه! إنهم لا يضمُّون النساء إلى عصاباتنا، ولا يتحمَّسون كثيرًا

لذلك، إنهم حتى لا يجعلونهن مراقباتٍ، خليل إيفي بحاجة إلى رجال أقوىاء مثلي!».

ابتسمت الفتاة الصغيرة لاستعراض الصبي، وهو يحاول نفخ العضلات الموجودة في ذراعيه، كان أوّل طفل قد رآته منذ سنوات عديدة، وقد نسيت كم هو لطيف.

قالت بهدوء وثقة بالنفس مثيرة للإعجاب: «لديّ بعض القوة أيضًا»، ورفعت إحدى يديها في الهواء، وأمسكتها، أصغى بختيار باهتمام؛ لأنه كان يريد أن يفهم ما تعنيه الفتاة، وماذا كانت تحاول القيام به، بعد ثوانٍ قليلة، شاهد بذهولٍ شديد أن الحجارة والأغصان والأوراق على الأرض كانت تطير ببطء، كان الصبي يرى بعقله الطبيعة غير العادية في كل ما كان يحدث، ولكنه لم يشعر بالخوف، كان مقتنعًا أنه لن يصيبه أيُّ ضررٍ من هذه الفتاة، في الحقيقة، قامت عائشة بالإشارة بيدها إلى اليمين، فكل شيء أفلح للتوّ، وطار في هذا الاتجاه بسرعة كبيرة، وضربت الحجارة الأشجار مثل قذائف المدفعية، وقطعتها إلى قطع ضخمة.

صاح بختيار وهو يقفز حيث كان، قائلاً: «رائع! ماذا تكونين! كيف فعلتِ هذا؟ الله الله! هل أنتِ ساحرة، هل أنتِ مشعوذة، ماذا تكونين؟».

هزّت عائشة رأسها، على الجانبين، وجثت، فأصبح طولها مثل طول الصبي، ونظرت في عينيه بنظرة مطمئنة، وقالت:

«لا، أنا لست ساحرة، ولا مشعوذة، ولكن لديّ بعض المواهب، وما رأيته يُعدُّ بعضًا منها فقط... يمكنني مساعدتك حقًا، هل ستأخذني إلى خليل إيفي؟ إذا أخذتني، فسأخبرك بأسراري في ذلك الوقت، أعدك بذلك».



تلاأت عيون بختيار الزيتونية السوداء، وبعد التفكير لبضع ثوان، تنهَّد، وهزَّ رأسه، وقال:

«أنا سأخذك إلى هناك، إنه ليس المكان السَّريِّ للعصابة، لا يمكنني حتى لو قتلتنِي، لكنني سأخذُكِ إلى كبير المراقبين محمد أغا، وهو سيعرف ماذا يحدث بعد ذلك، وإذا صدَّقكِ، سوف يخبر خليل إيفي، وسيقرِّر إيفي ما إذا كنتِ ستبقين معنا أم لا».

قالت: «هذا يكفيني، شكرًا».

مدَّ بختيار يده للفتاة، وأمال رأسه جانبًا ببراءة، وقال:

«وبعد ذلك سوف تخبريني بسرِّكِ، أنتِ وعدتيني، الوعد شرف، هاه! ربما يمكنك أن تعلِّميني كيف أجعل الحجارة تطير أيضًا، لن أخبر أحدًا، والله! أقسم بالقرآن! تعالي، واتبعيني، سنذهب بهذه الطريقة».

أمسكت عائشة يد الطفل بهدوء، كانت ناعمة ودافئة، يجب أن تكون يدًا لطفل... لا يسعها إلا أن تفكر في المكان الذي أتت منه، لقد تذكَّرت كم كانت الحياة مُظلمة وحزينة بدون أطفال، وضعت يدها على بطنها مرة أخرى، وشعرت ببركة طفلها الوحيد، وعلى الرغم من كل الآلام والمصاعب التي مرَّت بها، كانت سعيدة لوجوده هنا.

بعد بضع ساعات من المشي بين الأشجار، وصلا إلى أرض جرداء صغيرة لا تبدو مختلفة عن بقية الغابة، وكان الجانب المدهش الوحيد فيها شجرة ميتة، انقسمت إلى نصفين بسبب البرق، كانا الآن أقرب إلى الجبال شديدة الانحدار، التي تحيط بشمال الغابة، وقد فسَّرت توقُّفَ الطفل توقُّفًا مفاجئًا لإرهاقه، وظنَّت أنهما سيأخذان قسطًا من الراحة، ويستريحان هنا، في الواقع، هي أيضًا بحاجة إلى ذلك، وفي ذلك الوقت، سمعت صوت طائر، كانت قد سمعته مرات عديدة في الغابة، ولكن هذه المرة كان يأتي من مسافة قريبة جدًا، حتى

بجوارها مباشرة، وعندما نظرت إلى الورا بدهشة، رأت يدي بختيار تصنعان أنبوبًا حول فمه، ويغني مثل الطائر، على التوالي، كان يفعل ذلك بمهارة كبيرة، وحتى أولئك الذين يسمعون من بعيد لم يظنوا أن بإمكان أي طفل بشري إصدار هذا الصوت.

لم يمض وقت طويل، حتى ظهر خيال بين الأشجار أمامهما، ومع اقتراب الخيال، تحول إلى رجل قوي قصير القامة، ضخم الجسد، ذي شارب كثيف، يحمل يطاقنين في وشاحه، بشكل معاكس، وقد علّق في كتفه غدارة إسبانية، وكانت قبعته مُطرزة، ويرتدي سترة بالية مطرزة، كان يعرج بشكل غامض وهو يسير، مَنْ يعرف أي معركة أصيبت فيها ساقه، وغطت علامتا سيف عميقتان الجانب الأيمن من وجهه، إحداهما تجري من صدغه إلى ذقنه، والأخرى من أذنه إلى فمه، كما لو أن أحد الأشرار حاول رسم صليب على وجهه.

أبقى الرجل مسافةً بينهما، ونظر باهتمام إلى الصبي أولاً، ثم الفتاة، كان هناك إعجاب بجمال عائشة الاستثنائي، وقد وضع ذلك من نظراته إليها، ولكن دون سوء نيّة أو شر.

قال بصوت عالٍ، وهو يضع يديه الكبيرتين على حزامه: «خيرًا، يا أخ بختيار!»، بدا صوته وكأنه يسأل عن شيء هام:

«لماذا تركت المناوبة، أيّها الفتى المجنون؟ ومَنْ هي السيدة الموجودة بجانبك؟ أأمل أن يكون لديك سبب وجيه لجعلها تتبعك!».

قال الصبي بوقار أكبر من طوله: «إنها تهرب من الجنود... لقد قتل جلّادو حاكم السنجق جميع الدراويش، وكانت هي في التكية في ذلك الوقت، ومن الغريب أنها نجت بالكاد، إنها تبحث عن مكان آمن للاختباء، ألا يقول خليل إيفي دائمًا: «مُدّ يدك إلى المسكين، وساعد مَنْ سقط، على النهوض»؟ وقد أحضرتها لكم، يا محمد أغا، ربما تسمح لها بالبقاء معنا، والأمر لك».

تنهّد المحارب المشهور والمعروف باسم قادير جالي محمد بين قُطّاع الطرق تنهدةً عميقة، واستقرّ الحزن والغضب في عينيه، ذات اللون الأزرق الفاتح، ونظر إلى الفتاة من رأسها حتى أخمص قدميها، ثم قال بصوت رقيق: «البقية في حياتك يا أختاه.

المولويون كانوا أصدقاءنا، رحمهم الله... كان لدينا حساب كبير لدى حاكم السنجق، وسوف نطالبه به، وسوف يُضاف هذا الحساب لتلك الواقعة! لن ندع دماءهم تذهب هدرًا، أقسم بالله... سنستضيفك لبضعة أيام، وسنحرص على سلامتك، وعندما يفقد مطار دوك طريقك، سوف تذهبين في طريقك، نحن نحمل أرواحنا على أكتافنا، لا نستطيع فتاة رقيقة أن تعيش في جبالنا لفترة طويلة، ولكننا لن نجعلك فريسة لهم بإذن الله».

ابتسمت عائشة وكأنها تشكر أحد البواسل، وكل ما كانت تريده في تلك اللحظة، هو أن يأخذوها إلى العصابة، ويقدموها إلى خليل إيفي، ويمكنها إقناع زعيم العصابة بقدراتها غير العادية، وإذا فشلت في القيام بذلك، فيمكنها أن تطبع في ذهنه فكرة أن إبقاءها إلى جانبهم سوف يكون مفيدًا، ويمكن لها أن تتأثر للمولويين الذين كانت تعتبرهم عائلتها، بمساعدته هو والرجل، لقد شعرت أن هذه الجبال شديدة الانحدار، ستكون موطنًا جديدًا لها، تلجأ إليها لفترة من الوقت.

ما الذي يمكن أن يكون أفضل من هذا بالنسبة لشخص لا يجب أن يختلط أبدًا بالناس، ولديه الكثير من الأسرار لإخفائها؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

## 14

كان إيه آر18 ينتظر بفارغ الصبر أمام الطابعة ثلاثية الأبعاد، وقد رفع يده في الهواء، محدِّقًا بغضب، في إصبعه المكسور ربَّما للمرة العاشرة، وقد تسبَّب تعرُّضه للضَّرر في إزعاج كبير له، في بعض الحالات، يكون إصلاح روبوتات العُمَّال باهظ التكلفة؛ لذلك كان هناك الكثير من التعليمات البرمجية في نظام التشغيل الخاص بهم، والتي تطلب منهم العناية الجيدة بأجزائها، لم تلمس أوقيانوس أيضًا هذه البرامج، والتي وجدت أنها مفيدة، أثناء تحديثها، والآن بعد أن قامت هذه الرموز بتسخين داراتها بشكل مُفْرِط، كانت أجراس الإنذار تدقُّ في الذكاء الاصطناعي الخاص بها.

كانت الطابعة ثلاثية الأبعاد -وهي منتج صناعي محلي، للعلامة التجارية «العين الذهبية»- تعمل ببطء كبير، مقارنةً بنظيراتها المستوردة باهظة الثمن، ومع ذلك، أكملت العملية في النهاية، وتحول

الضوء الأحمر المضيء فوقها إلى اللون الأخضر، وتمّ فتح الغطاء الزجاجي المصنّف الموجود في مقدمة الطابعة، والذي يشبه صندوقًا كبيرًا، تلقائيًا، فتح إيه آر 18 الغطاء بحماس، ووضع يده السليمة، وأخذ الإصبع الجديد الذي أنتجته الطابعة، كان الجزء الداخلي من الجهاز سخناً للغاية في الوقت الحالي، ولم يستطع جلد الإنسان تحمّل هذه الحرارة، ولكنها لم تكن مشكلة بالنسبة له، رفع الإصبع الذي كان قد أخرجه، وأمسكه أمام عينيه، ونفخ الدخان الموجود فوقه، ونثره بعيدًا، وعندما اقتنع بأنه كان ذا شكل وحجم مناسبين، فقد انتزع إصبعه المكسور بغضب، ووضع على الطابعة، ووضع الجديد بعناية، وبعد تثبيت المفاصل، ثنى إصبعه عدّة مرّات، وفتحه، لم تكن هناك مشكلة، كان يعمل بشكل مثالي، وتوقّفت الأجراس المزعجة في ذهنه واحدة تلو الأخرى، وكان الصمت يبعث على الهدوء.

ذهبت أوقيانوس إلى إنسانها الآلي المحبوب، وعانقت خصره بحنان، وكانت تداعب كتفه الفولاذية المقوّاة، وتهمس بأسف في أذنه، قائلة: «أعلم أنهم أزعجوك، لم يكسروا إصبعك فحسب، بل كسروا قلبك أيضًا، لديك قلب، ليس لديّ شكّ في ذلك... لديك مشاعر، على الرغم من أنها ليست مثل مشاعرنا، هؤلاء الحمقى لا يمكنهم رؤيتها، هناك أناس سيئون جدًّا في العالم يا مراد... أنا آسفة لأنني نسيت هذا، إنه خطئي بالكامل، لن أعرضك للخطر مرة أخرى أبدًا».

أمال مراد رأسه بهدوء إلى الجانب، ووضع خدّه على جبين الفتاة، شعرت حواسه الحرارية بدفء جلد أوقيانوس، كان ذلك يروق له، ويهدّئه، لقد تذكّر كيف كان غاضبًا قبل ساعات قليلة، حيث أصدرت جميع دوائر الإنذار الخاصة به ومضةً، وكان الذكاء الاصطناعي الخاص به يفيض بالأفكار القاتلة، لم يرغب في أن يعيش تلك اللحظات مرة أخرى.

كما أخبرته الفتاة، كان قد ارتدي ملابس بشرية، وارتدي قفّازات، ووضع قُبْعَةً على رأسه، وخرج إلى الشارع، لقد كان قادرًا على المشي لفترة طويلة دون أن يلاحظ أحدٌ، كان كل شخص في المدينة مضطربًا ومرهقًا، ولم يلاحظ أحدٌ اختلاطَ روبوت بوجه بشري معهم، كان على وشك إكمال التجربة والعودة عندما أمسك بائعٌ مُتجوّل بذراعه، وحاول تسويق مجموعة من المنتجات الغريبة له، حتى إنه لم يكن يعرف ما يحدث، كان بعضها لا يمكن أن تقاومه النساء، بينما البعض الآخر يطيل الحياة، وعندما أمسك البائع -الذي لم يستطع إنهاء وصف فوائد منتجاته- بِيدِ زبونه غير المهتم، أخرج قُفّازه بسرعة فجأة، وعندما رأى الرجل أصابعه المعدنية أكثر سُمْكًا بثلاث مرات من الأعضاء الاصطناعية العادية، ونظر إلى وجهه لِيُطْلِقَ نُكْتَةً حول ذلك، لاحظ علامات الغُرَز التي تغطّي وجهه كله، وعينيه الميتين، لم يستطع السيطرة على فضوله، وحاول لمس هذه العلامات، فكسر مراد معصم الرجل عن غير قَصْدٍ أثناء محاولته منعه، ولم يشعر بأي ذنب، لقد تماسك قليلًا، هذا كل شيء، لم يكن خطأه أن الجنس البشري كان هشًّا لهذا الحد.

عندما صرخ الرجل، استدارت أعين الحشد الهائل تجاهه، أولئك الذين حاولوا إعدامه دون محاكمة قالوا: «وحش! مسخ!»، وراحوا يصرخون ويضربونه بوحشية بالحجارة التي التقطوها من الأرض، لم يكن معظمهم على عِلْمٍ بما يجري، فقد أطلقوا عليه وابل من الشتائم، وكأنهم يريدون إخراج الألم من حياتهم الصعبة التي عاشوها، إذا كان إنسانًا لَمَا تَمَكَّن من النجاة، ولكن بفضل جسده المعدني تَمَكَّن من الهروب بإصبع مكسور فقط، وفي غضون ذلك، كان قد اتبع بصرامة أحد الأوامر الرئيسية في نظامه، ولم يرفع يده عن عَمَدٍ ضِدَّ إنسان واحد، ومع ذلك، فقد شعر أنه إذا أصبحت دوائر الإنذار الخاصة به

أكثر دفئًا، وإذا كان ذكاؤه الاصطناعي أكثر انخراطًا؛ فيمكنه فعل ذلك، هل يمكن أن يتحوّل حقًا إلى وحش، وما هو حد ذلك؟

وقفت أوقيانوس معه لفترة من الوقت، في انتظار هدوء روح مراد، التي كان تؤمن بوجودها، من صميم قلبها، ثم رفعت مسدس الحقن في يدها، وأدخلت طرفه في خدّ الروبوت، وصبّت الخليط في وجهه حتى آخر قطرة، جلد الإنسان، الذي لم يتغذّ بالدم والماء منذ وفاة صاحبه، يمكنه فقط الحفاظ على لونه وحيويته بهذا السائل الخاص.

سمعت باب الحمام يُفتح ويُغلق، لا بُدَّ أن كمال قد أنهى عمله، وخرج، تركت مراد وحده ليستريح وتوجّهت إلى هناك بفضول، بقي الشاب في الداخل لفترة أطول من المعتاد هذه المرة، وكان وجهه شاحبًا، وكأنه قد عاد لتوّه من مجموعة جديدة من نوبات الصداق، فابتلعت الأسئلة التي كانت على طرف لسانها، وسألت باهتمام صادق:

«هل أنت بخير؟ هل تشعر بالخمول؟ إذا أردت، فقط اجلس هنا وتنفّس».

قال كمال منزعجًا: «يجب أن أتفقّد النافذة»، وترنّح بشكل واضح، ومشى نحو النوافذ المواجهة للشارع، وعندما وصل أمام النافذة الوسطى، نظر باهتمام إلى الخارج.

«نعم، إنها نفس الحافلة الصغيرة مرة أخرى... مرسيدس بُنيّة اللون... هذه هي المرة الثالثة التي أراها اليوم، يجب أن تكون من حركة المساواة في اسطنبول بالتأكيد، جاؤوا ليأخذوني، كنت أعلم أنهم قادمون!».

سألت أوقيانوس بصوتٍ مذهول، قائلة: «ما هذا الموجود على ظهرك، يا عزيزي، هل احتككت بأرضيةٍ مطليّة؟»، وذهبت إلى الرّجل

الذي كان لا يزال ينظر إلى الشارع، ومدّت يدها ولمست البقعة الحمراء التي تنمو بين ضلوعه.

وقالت: «من أجل الله! إن ظهرك مثقوب، أنت تنزف! ألا تلاحظ ذلك!».

في البداية لم يفهم كمال ما كانت تتحدّث عنه الفتاة، ثم وضع يده خلف ظهره، وتحركّ بها حتى وجد مكاناً رطباً، وعندما نظر إلى كفه، صدم عندما رأى أنها مغطّاة بالدماء، وسرعان ما أفسحت هذه المفاجأة الطريقَ لخوفٍ كبير، كيف وأين كان هذا الجرح؟ لم يؤلم على الإطلاق، لا على الإطلاق! إذا نُقِبَ ظهر المرء، ألا يتألّم لذلك؟

وفجأة شعر بالتعب الشديد، ولم تستطع ساقاه حمله، وسقط على الأرض، وعندما سقط، ضرب رأسه بالحائط بين النوافذ، وسمع صوت الاصطدام، ولكنه لم يشعر بأي ألمٍ مرّةً أخرى.

عندما أظلمت عيناه وفقد وعيه، كل ما كان يفكر فيه هو مدى غرابة الأمر.

عندما أضاء العالم مرة أخرى له، كان الليل، والظلام في الخارج، وكان مستلقياً بملابسه الصباحية على سرير على الأرض، كان موجوداً على أرضية خشبية.

ابتسمت أوقيانوس ابتسامة عريضة، وقالت للرجل الذي كان يجلس القرفصاء بجانبها: «هل استيقظت أيّها الطفل الكبير؟ في الأيام الأخيرة، أكلت كثيراً، وكان لديك بطن، وكنّت ثقيلاً كالحجر! لم أستطع تحريكك مليمترًا واحدًا، لحسن الحظّ، إن مراد موجود، لولاه كنت ستموت هنا بسبب نزيف الدم، لقد أحكمنا لُقكَ جيّدًا، وقُمنا بلفّ رأسك جيّدًا أيضًا، أتمنى أن تكون أفضل الآن».

سأل كمال، قائلًا: «ماذا حدث لي؟...».



أجابته، قائلة: «أنت ستقول ذلك يا عزيزي! لقد كنتَ تتصرفُ بغرابة منذ لحظة هبوطك على الأرض، وأردتُ أن أحترم قراراتك، فقلت إذا كان يخفي أسراراً عني، فهو يعرف شيئاً، لكن هؤلاء تجاوزوا الخط! يوجد مسمار بناء ضخّم على الحائط في المرحاض، أقوم بتعليق الأشياء هناك أحياناً؛ لذا لم أقم بإزالته، كيف قُمتَ بالتغلب على ذلك، الآن جعلت هذا المسمار يدخل إلى ظهرك! تعال، لقد مررتَ به، حتى إنك لم تدرك ذلك! من الواضح أنك لم تتألم عندما كان ظهرك ينزف، الآن دعنا نرى، ما هو نوع الغائط الذي تلوّثتَ به، ما الذي يحدث؟ كيف لا تشعر بمسمارٍ كبير يدخل في لحمك!».

تنهّد كمال في يأس، ووضع يده على رأسه، ولمس التورم تحت الضمادة، لكن لم يكن هناك ألم، استقرّ الخوف في قلبه مرة أخرى، كان بحاجة للمساعدة، وكان عليه أن يُقبلها، وقال:

«كنتُ قد قلتُ إن الصداق العنقودي الذي أعاني منه قد اختفى منذ فترة...».

فأجابته، قائلة: «نعم، لقد قلتَ ذلك».

وأضاف كمال، قائلاً: «كان هذا صحيحاً، لكن هذا لم يحدث بشكل عفوي... السيدة جول، عميلي الغامض، تدير مركزاً صحياً، مركزاً غامضاً، يعملون على طُرُقٍ علاجية لا يعرفها أحد، فقط أثرياء اسطنبول... وجمهوريات المدن الأخرى... وقد أعطتني بعض الإبر، وقالت إنها ستخفّف من الصداق، لقد أفادتني بالفعل، لم أعانِ من هذا الألم الرهيب لعدة أيام، ولا يمكنني وصفه بالكلمات، إنه مثل التحرّر من الجحيم... أردتُ أن أخبرك، لكنني لم أستطع، فقد هدّدت السيدة جول بعدم إعطاء أي دواء آخر لي، إذا لم أبقِ الأمر سرّاً، لم أستطع أن أجازف بذلك يا أوقيانوس، لم يكن لدي القوة لتجاوز هذا الألم مرة أخرى».

نظرت أوقيانوس إلى الشاب بعيون متعاطفة، ومدّت يدها وداعبت خدّه بحنان، كانت قد شَهِدَت هجمات الصّداق العنقودي التي تعرّض لها كمال عدة مرات من قبل، وكانت قد شاهدته يضرب نفسه بالحائط، ويبيكي مثل طفل، ويتدحرج على الأرض صارخًا، ويقا تل عبثًا مع عدوّ غير حقيقي، كما لو كان أحدهم يُغمَد سكينًا في عينيه، في حالة من اليأس، محطّمًا، لقد كان شيئًا مؤلمًا جدًّا لعدم القدرة على مساعدته.

واعترفت بهدوء «أنا أعرف الإبر... هناك كاميرا خفية عند مدخل المرحاض، إنها منتشرة في جميع أنحاء المستودع، في الواقع، على المرء أن يكون حذرًا عند العيش بمفرده، وإجراء التجارب المحظورة من قِبَل الدولة، رأيْتُكِ تعطي لنفسك حقنة، لكنني تجنّبتُ أن أسألك؛ لذلك كان هذا هو السبب...».

سألها كمال، قائلاً: «هل توجد كاميرا في المرحاض؟ أليس هذا يُعدُّ تجاوزًا بعض الشيء حتى بالنسبة لك؟».

ضحكت أوقيانوس، قائلة: «لا تقلق، لا تنظر أين تتبول! يمكنك القيام بذلك بشكل مريح، لا تقلق! كل أنواع الغرباء يغدون ويروحون، كان عليّ أن أُطمئن نفسي».

وعلى الرغم من كل مخاوفه، ابتسم كمال بشكلٍ غير إرادي، كان يعلم أن أوقيانوس تفتح بابها فقط لشخص أو شخصين في السنة على الأكثر، إذا لم يكن لديها خيار آخر، وقد وضعت شرطًا بعدم الالتقاء وجهًا لوجه حتى للعملاء الأكثر كرمًا الذين يرغبون في الاستفادة من خدماتها، وعندما كانت تتسوّق عبر الإنترنت، إذا كان الشخص الذي جلب طلباتها شخصًا حقيقيًا، وليس شاحنة آلية، فإنها ستدفع بأموال افتراضية، وتطلب منه ترك المنتجات أمام الباب، وهي ستأخذها، ولكن بعد مغادرته. شعرت الفتاة بأن حالتها أسوأ منه الآن.

قال وهو يشبك يديه: «كان كل شيء على ما يرام في البداية، لكنني أعتقد أن العلاج بدأ يصبح أمرًا لا يطاق الآن... في كل مرة أشعر بالتعب أكثر، أشعر بالإرهاق، ولا يمكنني الاستمرار في هذا لفترة طويلة».

وضع يده على رأسه، ولمس بإصبعه مرة أخرى، التورم الموجود تحت الضمادة.

وقال: «ويبدو أيضًا أن هذا الدواء لا يمنع فقط الصداع العنقودي، بل يمنع كل أنواع الألم الجسدي، أو قد يكون له آثار الجانبية لأنني أستخدمه كثيرًا، لا أتذكر أنني قد شعرتُ بشعور كهذا في الحُقْن الأولى، كانت هناك لحظات أشعر فيها بالألم، يبدو الأمر، وكأنهم يدْمرون ببطء كل تصوُّراتي للألم».

أومأت أوقيانوس، قائلة: «الألم هو إنذار حالة الطوارئ لأجسادنا، نحن لا نحبُّه، لكنه في الواقع يُبقينا على قيد الحياة، ويسمح لنا بحماية أنفسنا من الأشياء التي تضرُّ بجسمنا، وحتى إذا أصاب هذا المسمار الموجود على الحائط رقبتك، وليس ظهرك، كنتَ لن تشعر به حتى يتمزَّق الشريان... حتى التفكير في الأمر يُعَدُّ أمرًا مُخيفًا... لا يمكنك الخروج في هذه الحالة، يا كمال، هذا خطر للغاية، تحتاج إلى الراحة حتى يزول مفعول الإبر، أمل ألا يكون له تأثير دائم! وإلا فإنك في ورطة كبيرة».

استقام كمال حيث كان مستلقيًا، وجلس في وضعية الجلوس، وشبك يديه معًا، ونظر إليها بتعبير حزين، وقال:

«أنتِ مُحِقَّة في كل كلمة تقولينها، لكن ليس لديَّ وقتٌ أضيِّعه، لن تنتظري حركة المساواة لأيام، اتَّصلتُ بهم، لم أكن متأكدًا من أنهم سيأتون، لكنهم جاؤوا، هذه الفرصة تأتي لي مرة واحدة فقط، إذا تمكَّنتُ من العثور على أولئك الذين قتلوا أصدقاءها؛ فستوفِّر لي

السيدة جول علاجًا دائمًا، لقد تحدّثت عن نوع جديد من الجراحة يقضي على كل الصداق العنقودي، لقد فعلوا هذا بنجاح من قبل! وفي هذه الحالة أستطيع أن أقول وداعًا لهذه الإبر اللعينة، والألم الرهيب، يجب أن أجرب هذا، يا أوقيانوس، يجب عليك أن تفهميني، لا أستطيع التحمّل بعد الآن...».

اقتربت أوقيانوس من السرير، بقدر كافٍ، ووضعت ذراعها الروبوتية على كتف الشاب، بأصابعها المعدنية المغطاة بجلد الإنسان، كانت تداعب جانب رقبتة كما لو كانت تسليّ كلبًا، لم تكن في مثل هذا الوضع من قبل، ولم تكن تعرف كيف تتصرّف، أو ماذا تقول، الجانب الذي أحبّته في الروبوتات هو أنه كان هناك حلّ واحد لجميع مشاكلهم تقريبًا، ألا وهو توصيل الأسلاك الصحيحة، وإحكام البراغي، وتحديث البرنامج، ويتم تجاوز المشكلة، لن يسمحوا لأنفسهم أن يكونوا كما هم الآن، لقد بحثت عن الكلمات الصحيحة، لكنها لم تستطع إيجادها، ثم قالت ما في ذهنها:

«لا أعرف لماذا أيها الأحمق، ولكن أنا حقًا أحبّك، أنت صديقي الوحيد في هذا العالم، الشخص الوحيد الذي أثق به دون قيد أو شرط، والذي يعرفني بكل الطُرُق... لا يمكنني تحمّل أن أفقدك، دعني أساعدك، وأنت ثِقْ بي أيضًا».

تمتم كمال، قائلاً: «أنا أثق بك. لماذا تعتقدين أنني هنا؟ لماذا آتي إليك في كل مرة أكون في ورطة؟».

فأجابته، قائلة: «إذن اترك لي واحدة من تلك الإبر، أنا أعرف ما معنى ذلك بالنسبة لك، لكننا نحتاج إلى معرفة ما بداخلك، لا يمكنك أن تضع شيء به مثل هذه الآثار الجانبية في عروقتك».

أوماً كمال برأسه، وكأنه يقول إنك على حَقٍّ، وأدخل يده في جيب سترته، وأخرج الصندوق المربوط بحزامه، الذي كان يتدلَّى منه قُطْرِيًّا فوق كتفه، وفتحه، وسَلَّمَ إحدى الإبر للفتاة، وقال:

«أنتِ عبقرية تقنية، الآن تتظاهرين بأنك خبيرة في العلاج؟».

غَمَزَت الفتاة، قائلة: «ليس لديَّ مثل هذه النوايا، لكن هناك أشخاص هنا مدينون لي بالمال، لا يمكنك تَخْيُل عدد الأشخاص على وجه الأرض الذين يحتاجون إلى مسح سَجَلَاتهم الشَّرْطِيَّة للحصول على وظيفة... أعتقد أنه يمكنني العثور على شخص يمكنه مساعدتنا في هذا الأمر».

قال كمال: «حَسَنًا إِذًا، الآن، هل تسمحين لي برؤية أصدقائي الموجودين في الخارج، يا أُمِّي؟ إذا تركتهم ينتظرون لفترة أطول قليلًا، فمن المحتمل أن يشعروا بالملل، ويذهبوا».

قالت أوقيانوس، بتَجَهُّمٍ: «أنت تسخر مني»، وقامت بَلَكَم كمال في كتفه على سبيل المزاح: «يمكنك الذهاب، لكنَّ طائرتي بدون طيار ستكون فوقك مباشرة، وأنا عيني عليك! إذا أسأت التَّصَرُّف، فسوف أُسْقِط الأداة على رأسك!».

قال كمال: «اتَّفَقْنَا».

عندما خرج كمال استنشَق الرائحة النَّفَّاذة في الهواء. كل بضعة أسابيع، كان يسقط ضباب كثيف على اسطنبول، ولم يعرف أحدٌ سبب ذلك، وكانت هذه الرائحة نذيرًا له، وكان الناس سيُصابون بالعمى لبضع ساعات، ولن يغادروا المنازل بقدر الإمكان، معتقدين أنه قد يكون ضارًّا بالصحة، لقد كان غريبًا طوال هذه السنوات أنه لم يكن هناك أي كلمة عن هذا الضباب في الأخبار أو الإعلانات الحكومية، لكنه كان يعرف ما يكفي عن المدينة، لدرجة أنه يعرف إذا لم يتحدَّث أحد عن شيء ما، فمن الخطر السؤال عنه.

سار كمال مباشرة إلى السيارة المرسيديس ذات اللون البني المتوقفة على الجانب الآخر من الشارع، كانت نوافذ السيارة مُعتمة، ولم يكن ما بالداخل مرئيًا، لم يكن لديه أي فكرة عما سيحدث بعد هذه اللحظة، لكن ذلك لم يُخفه، إن فكرة وجود نيشه في السيارة جعل قلبه يرتجف لبضع ثوانٍ، لكنه كان يعلم أن ذلك من غير المحتمل إلى حد كبير، واقترب من الباب الخلفي للسيارة، ونظر في المرأة الجانبية ليتأكد من أنهم رأوه، وابتسم، وانفتح الباب في لحظة، وامتدَّ زوجان من الأيدي القوية من الداخل، وأمسكته من ذراعيه مثل المخالب، وجذبتَه إلى السيارة.

بمجرد إغلاق الباب، خرجت شفرات المروحة الكبيرة من الفتحة الموجودة في الجزء العلوي من سيارة المرسيديس، وبدأت في الدوران، وكان الناس الذين يتجولون متناثرين مثل الكتاكيت، يسبُونهم، امرأة تعانق طفلها الذي كان يقف بالقرب من المراوح، اندفعت إلى مبنى سكني على عجل، وصاح بائع متجول عجوز قوي البنية أنه ممنوع الطيران عبر الحي، وألقى بحجر بحجم قبضة اليد على السيارة، كان الشارع مُغطًى بالكامل بسحابة كثيفة من الغبار.

لم يهتمَّ الموجودون بالداخل بما يجري في الخارج، وأقلعت السيارة بهدوء من الأرض، وحلَّقت في الجو، وكادت أن تقشط المباني المدمَّرة، وتلقي الغسيل المتدلي من الشرفات، وبمجرد أن أصبحت فوق الأسطح، زادت من سرعتها، وبدأت في الطيران شمالًا، واختفت عن أعين أوقيانوس التي كانت تتابع الأحداث من خلال النافذة.

ذهبت الفتاة أمام الشاشة لمتابعة استمرارها من كاميرا الطائرة التي كانت تتعقَّب المرسيديس، ووضعت ساقها الآلية إحداها فوق الأخرى، ولَفَّت ذراعيها، وتمتت، قائلة: «حظًا سعيدًا أيُّها الصعلوك»، وكان في نيتِّها الصلاة.

وقعت عيناها على إطار الصورة ثلاثي الأبعاد، الموجودة بجوار الكمبيوتر، وكان والداها يضحكان لها بحرارة من هناك، هي أيضًا كانت تعانق ساقهم ببراءة طفلة، وبدوا سعداء جدًا معًا، كانت هذه الصورة قد التُقطت في منزلهم، الذي تتذكّره دائمًا بشوق، وبعد التعرف على العالم أدركت جيدًا الجهود التي بذلتها عائلتها لحمايتها من الحياة الخارجية، ودائمًا ما تتذكّرها بامتنان، وبقدر ما كانت تحاول السخرية، كانت العواصف تهبُّ بداخلها، لقد فُكّرت في مدى شعورها بالوحدة في هذه المدينة المخيفة، التي غالبًا ما كانت تجد صعوبة في فهمها، وشعرت بأنها غريبة عنها، وذلك إذا لم يستطع كمال العودة، قامت بتسريع الطائرة بدون طيار، وجعلتها تقترب من المرسيدس جيّدًا، والتي كانت تقوم بمناورات صعبة في الهواء، مهما كان الأمر محفوفًا بالمخاطر، فلن يغيب عن عينيها.

## 15

لم يستطع رؤية أي شيء، لم يكن متأكدًا مما إذا كان معصوب العينين أم لا، ولم يستطع مدّ يده ولمس وجهه، ولا يمكنه تحريك يديه مهما حاول بصعوبة، بدا جسده كله مشلولًا، كان مستلقيًا على الأرض، كان يشعر بها، لكنه لم يستطع معرفة ما إذا كانت الأرض صلبة أم ليّنة، ساخنة أم باردة، كان المكان هادئًا جدًّا، وكان ينبغي على الأقل أن يسمع تنفُّسه في الصمت؛ إمَّا أن أذنيه قد فقدت وظيفتها مثل حواسه الأخرى، أو أن شخصًا ما قد منعهما.

عندما تلاشى الدخان من عقله، تذكَّر اللحظة التي وُضع فيها في الحافلة الصغيرة، أخذه رجلان مفتولا العضلات بوجوه مقنَّعة، بين ذراعيهما، وجذباه إلى الداخل، وفي الوقت نفسه، كان هناك شخص آخر، وضع شيئًا على بطنه يشبه العصا الموجودة في يده، شعر ببرودة، وإحساس بالوخز، بدأ في معدته، وفجأة اجتاح جسده بالكامل، بعدها



مباشرة، أظلم العالم، ومنعه الرجال الممسكون بذراعيه من السقوط على الأرض، ما حدث بعد ذلك الوقت لم يستطع تذكُّر أي شيء منه. كانت حواسه تعود ببطء، وبدأ يشعر ببرودة الأرضية الخرسانية التي يرقد عليها، ونظرًا لأنه شعر بالبرودة، إمَّا أنه كان في مكان بارد، أو أنهم أخذوا ملابسه، لاحظ أنه يستطيع أن يلاعب أحد أصابعه، ثم يمكنه أن يهزَّ ذراعه قليلًا، ما زال غير قادر على الرؤية، هل كان لا يستطيع فتح جفنيه، أو كان الظلام يلفُّ المكان كله، لم يكن متأكدًا من ذلك، ثم سمع صوتًا مميزًا بعد ذلك، يبدو أن أذنيه كانتا أسرع أعضائه التي تحسَّنت، كان ممتنًا لأذنيه.

فُتح أحد الأبواب محدثًا صريرًا، ثم أُغلق بقوة، اقتربت أصوات أقدام قوية بسرعة، وتوقَّفت عند قدميه، كان يستمع إلى التنفُّس الهادئ لشخص ينحني فوقه، كان الأمر كما لو كان يفحصه مثل فأر التجارب، في محاولة لاتخاذ قرار بشأنه، ثم ابتعد الرجل أو المرأة، أيًّا كان، ولماذا أتوا، مُسرَّعين كما لو كانوا في عجلة من أمرهم، وفُتح الباب مرة أخرى، وأغلق، ولم يُفتح مرة أخرى لفترة طويلة.

في المرة الثانية التي تمَّت فيها زيارة زنزانته، يمكنه الآن فتح عينيه قليلًا، كان في غرفة صغيرة غير مفروشة، وكانت هناك أضواء دائرية في السقف موضوعة في الزوايا، لم يستطع النهوض، وحاول عدة مرات، ولكنه سقط على الأرض في كل مرة، ومع ذلك كان بإمكانه تحريك ذراعيه، وإدارة رأسه، وكانت هذه علامة جيدة، لم يكن مُقيَّدًا في أي مكان، ولم يكن هناك أي أصفاد، ولم يُعامل كسجين، كان سيشعر براحة أكبر لو لم يكن عاريًا تمامًا، لكن على الأقل لم تظهر عليه جروح جديدة، وأولئك الذين أحضروه إلى هنا حملوه بعناية قدر استطاعتهم.

كان الشخص الذي دخل الغرفة هذه المرة رجلاً طويل القامة، ونحيفاً للغاية بوجه باهت، يشبه شخصية الكتاب الهزلي ثنائي الأبعاد، لم تكن هناك شعرة واحدة على رأسه، ولا شارب ولا لحية، ولا حتى حواجبه؛ فقد كانت إمّا تتساقط أو تُنتَف، وكان يضع شريطاً أبيض سميكاً على جبهته، مع كاميرا صغيرة على جانب واحد منه، وميكروفون على شكل زر على الجانب الآخر، لا بُدَّ أنهم سجّلوا كل ما رآه وقاله، كان يرتدي قميصاً أبيض يشعر بأنه فضفاض للغاية بالنسبة له، مع بنطال من الجينز، وفي إحدى يديه، كان يحمل سلاحاً مشابهاً للسلاح الغريب الذي كان على شكل عصا، وأصاب كمال بالشلل لحظة، ووضعه في الحافلة الصغيرة، بينما كان يحمل في اليد الأخرى حقيبة رياضية صغيرة، بعد مشاهدة الشاب باهتمام شديد، دون أن يقترب منه، ألقى الحقيبة عند قدميه، وتحدّث بصوت ناعم مخالفٍ لتعجرفه.

وقال: «يا سيد كمال... أنا آسف لإحضارك إلى هنا بهذا الشكل، أمل ألا تكون مستاءً منّا، أنت ستقدّر ذلك؛ فنحن بحاجة إلى إيلاء اهتمام خاصٍّ للخصوصية، ملابسك في الحقيبة، كان علينا التأكد من عدم وجود جهاز تتبّع في ملابسك أو جسمك؛ لهذا قمنا ببعض الفحوصات أثناء نومك، لقد صادرنّا مؤقتاً ساعتك التلفزيونية حتى لا ترسل معلومات إلى الخارج، أتمنى أن تتقبّل ذلك بتفهّم، التورّم الموجود على رأسك والندبة على ظهرك... أمل ألا يكون رجالنا قد فعلوا ذلك... لقد صدّرت إليهم الأوامر بأن يكونوا لطفاء».

تمتم كمال بضجر، قائلاً: «أردتُ أن آتي إلى هنا، واعتقدتُ أن الأمر لن يكون سهلاً، مهما كانت ظروفكم، أنا أحذركم، لا تقلقوا، الندوب موجودة مسبقاً، ولا علاقة لها برجالكم، لقد كانوا لطفاء قدر المستطاع».

قال الرجل: «أنا سعيد لسماع ذلك، يمكنك مناداتي بيروتلو، أحد ألقابي العديدة، نحن الآن في قبو أحد بيوتنا السرية، كما ستُقدّر، لا يمكنني تركك تغادر هذه الغرفة، لكن لا تقلق، فقد قَبِلَت السيدة نيشه طلبَ المِقابِلة الخاص بك، وسوف تأتي للتحدُّث معك بعد قليل، ارتدِ ملابسك إذا رَغِبْتَ في ذلك؛ فهناك وقت، سأكون عند الباب، إذا كُنْتَ بحاجة إلى مساعدة يكفي أن تناديني».

اضطرب كمال عندما سمع أنه ذاهب لرؤية نيشه، كانت حواسه وجسده تعودان إلى طبيعتهما مع مرور كل ثانية، وشعر بالقلق عندما تذكّر أن الإبر ليست موجودة معه، كان خائفًا من أن يتعرّض للأزمة أمامها، ولم يستطع أن يتحمّل رؤية نفسه وهو يصرخ، ويظهر ارتباكًا بلا حول ولا قوة.

وسأل، قائلاً: «متى أتيتَ بي إلى هنا؟ هل من فترة طويلة؟ كم ساعة مرّت عليّ منذ أن أُصِبتُ بالإغماء؟».

فأجابه الرجل، قائلاً: «لسوء الحظ، لا أستطيع أن أقول ذلك، هذا مكانٌ سرِّي، لا يمكننا أن نجازف بإخبارك بالمسافة من المكان الذي التقطناك منه، أرجوك اعذرني».

قال كمال: «إنني أتفهّم...».

ردّ عليه الرجل، قائلاً: «كنتُ متأكّدًا من أنك ستفهم، بعد كل شيء، كنت ذات يوم جزءًا منّا، لم تتغير قواعدا كثيرًا منذ مُغادرتِكَ، في الواقع، لم تتغيّر منذ قرون، ارتدِ ملابسك الآن، من فضلك، سأكون بالخارج حالًا».

وقال كمال: «إبري... كان هناك صندوقٌ يتدلى من حزامي، بداخل ملابسِي، أنا أستخدم علاجًا يا بيروتلو، وأحتاج تلك الحقن، أنتَ لم تُدمّرهم، أليس كذلك؟ من فضلك قل لي إنَّكَ لم تدمّرهم...».

وقف الرجل العملاق في المكان الذي كان فيه لفترة، ورأى كمال شفتي الرجل تتحرّكان، كان يتحدث بصوتٍ هامس؛ لذا لم يكن من الممكن سماع ما يقوله، لكن كان من الواضح أنه كان يتواصل مع شخص بالخارج عبر ميكروفون الزُّر، أخيراً ابتسم الرجل، وأوماً برأسه. وقال: «إبرك هنا، لا تقلق، فقط يكفي أن تقول عندما تحتاجها، لكن قبل أن أُدخِلَ إبرة، سأضطرُّ إلى أن أُخدِّرك مرة أخرى لفترة قصيرة، لسوء الحظ، لا يمكنني الانحراف عن قواعد السلامة؛ لذا، إذا لم تكن بحاجة إليها الآن، فلنتركها حتى بعد زيارة السيدة نيشه إذا كنتَ ترغب في ذلك».

فحص كمال جبهته وخدّه بيده التي يمكنه تحريكها الآن، لم يكن هناك شعور بالتمدّد أو الوخز حتى الآن، ولم يكن هناك تَصَلُّب بين عينيه، ربما كان آمناً لفترة أطول؛ كان من المنطقي أن ينادي بيروتلو إذا أدرك أنه سيصاب بنوبة صرع الآن، بدلاً من أن يفقد وعيه مرة أخرى، كان يعتقد أنه اعتاد على هذه الآلام، لكن يبدو أنه كان يخدع نفسه فقط، وبعد أن تمكّن من الابتعاد عن الصداق العنقودي لفترة من الوقت، فإن احتمال البدء مرة أخرى أدّى إلى تجمّد دمه.

قال: «حسنًا... لنفعل كما تقول، لكن قد أحتاج هذه الإبر بشكل عاجل؛ لذا إذا انتكس مرضي... أعلم أنك ستستمع لما يحدث بالداخل، وسوف تأتي وتقوم بذلك عند الضرورة».

وضع بيروتلو يده على قلبه، وحيّاه برأسه، قائلاً: «لا تقلق، عيوننا وآذاننا عليك»، ثم استدار بهدوء، وغادر الغرفة.

جلس كمال ورأسه بين يديه لفترة، كان في حاجة إلى تصفية رأسه، ثم إنه لم يستطع المجازفة بأن تراه نيشه وهو عارٍ تمامًا، عندما تدخل، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال يواجه مشكلة بسيطة في تحريك ذراعيه، إلا أنه فتح الحقيبة، وبالكاد ارتدى الجينز والقميص

الموجودين بداخلها، لحسن الحظ، بينما كان يتحرك، تسارعت الدورة الدموية، وفتحت مفاصله، وتبدد ستار الدخان الذي غلف عقله، لم يستطع معرفة المدة التي قضاها فاقداً للوعي، أو إلى أي مدى تصل المسافة من مخزن أوقيانوس إلى هنا، لكنه كان متأكدًا من أنه لم يكن قريبًا في أي مكان، لقد تذكر أنه استيقظ في مرحلة ما من الرحلة، وسمع صوت المراوح، وشعر بها وهي ترتفع وتنخفض، وكان متأكدًا من أنهم كانوا في سيارة «بر جوئية» في تلك اللحظة، ربما لم يكونوا حتى في اسطنبول الآن.

ذهب إلى أقرب جدار في الغرفة، وهو يزحف تارة، ويحبو تارة، وانحنى إلى الخلف، وألقى رأسه على الحائط، وحدق في الباب، وعينه متسعتان الآن، كان يريد أن يرى مدخل نيشه، لقد كان يحلم مرّاتٍ لا حصر لها باللحظة التي سيقابلها فيها مرة أخرى، وفي كل مرة يرتجف؛ كونه سيعيش ذلك في الواقع الآن، كان ذلك شيئًا جميلًا رغم كل شيء. مرت الدقائق، الدقائق التي بدت مثل ساعات بالنسبة له، أخيرًا، فُتح الباب الحديدي بهدوء، ودخلت المرأة التي كان ينتظرها بشوق، مثل ضوء الشمس.

بشعرها الأحمر القصير، ووجهها اللامع، وابتسامتها الفريدة، كانت نيشه جميلة مثل اليوم الذي انفصلا فيه، وكان للحب العميق الذي دفنه في قلبه دور في العثور عليها جذابة للغاية، من يدري، ربما لم تعد مُعجبة جدًا بالرقة في ابتسامته والعمق في نظراته، واللذين كانا سببًا في نموّ نفس المشاعر تجاهه، كان هناك من كبر ذقنه الذكورية، وأنفه المقوّس، ممّا أعطاه تعبيرًا صارمًا، لكنه لم يستطع التخلص من هذه المشاعر، ولم يستطع منع نفسه من الذهول، وكأنه قد فُتن بها وهو يحدّق إليها الآن.

خَطَّت نيشه بضع خطوات نحو كمال، ثم أدركت أنه لا يستطيع أن يقوم، فجلست على رُكبةٍ واحدة، ووصلت إلى أسفل، وربّتت على خده كما لو كانت تداعب طفلاً.

وقالت: «يا حبيبي كمال الوسيم... هل أساؤوا معاملتك كثيراً؟... أردتُ أن يكونوا لطفاء، لكن في بعض الأحيان لا يفهمون ذلك، أتمنى أن تكون بخير الآن».

بعد أن جمع شتات نفسه قليلاً، أخذ الشابُ نَفْسًا عميقًا، وتحدّث بصعوبة.

وقال: «لا... لم يفعلوا أي شيء، أعني، بخلاف ما كان عليهم فعله... أنا فقط لم أكن مستعداً لرؤيتك، لقد أدركتُ ذلك للتوّ، إذا بدوتُ مهزوزاً، فأنتِ السبب، لقد اشتقتُ إليك كثيراً».

ابتسمت نيشه بلطف، وكانت هناك نظرة تفهّم متسامحة في عينيها.

وقالت: «لقد مرّ وقت طويل، لكنك لم تتغير على الإطلاق، أنت تُحرّجني مرة أخرى، ومع ذلك، لا أعتقد أنك جيئتَ إلى هنا لتخبرني بذلك».

هزّ الشاب رأسه على الجانبين، وقال: «لا»، واستجمع قواه قليلاً في المكان الذي كان يجلس فيه، وانتصب واقفاً.

وقال: «في الواقع، جيئتُ إلى هنا لسبب مهم للغاية، لقد ارتبكتُ فقط عندما رأيتُك، هذا كل شيء، أنتِ لم تتغيّري على الإطلاق، ما زلتِ المرأة التي أتذكّرها وأحبها، ومع أنني حاولتُ أن أنساك، إلّا أنني لم أستطع، حتى اليوم أنا أعود إليك وأنا مشوّش».

تنهَّدت نيشه بعمق، قائلة: «أتمنى لو لم يكن الأمر كذلك... إذن ربما لن تضطرَّ إلى مغادرة هذا المكان، أفقد صداقتك، وحواراتنا، وما شاركناه... كنت غاليًا بالنسبة لي، ولا زلت كذلك».

تمتم كمال، قائلاً: «لم أستطع البقاء معك، كنت أعلم أنك تحبّين شخصاً آخر، سوف يؤلمني كثيراً، وأنتِ كنتِ تعرفين ذلك أيضاً، وطلبتِ مني الذهاب».

جفّلت نيشه فجأة، وكان الشاب قال جملةً مسّت قلبها.

وقالت: «أنت على حق، لقد طلبتُ منك ذلك، كان هذا هو الأفضل لكلينا، على الأقل اعتقدتُ أنه كان كذلك، يؤلمني عندما تنظر إليّ بخيبة أمل».

وأمسكت كمال من ذقنه، ورفعت رأسه، ونظرت باهتمام في عينيه.

وقالت: «حسنًا، وماذا عن الآلام الأخرى... هل ما زلتِ تعاني من الصداع العنقودي؟ هل كان هناك أي تحسّن؟ أمل أن يكون الابتعاد عن هنا قد ساعدك على التخلص من التوتّر، حتى لو كان قليلاً، فإنه مفيد».

ضحك كمال ساخراً، وقال: «كيف يمكنك الابتعاد عن التوتّر أثناء إقامتك في اسطنبول؟ في الواقع، هذه الآلام لا علاقة لها بالتوتر أو الضيق، لم يستطع أي طبيب تحديد مصدرها، لكن تغيير نمط حياتي لم يؤثّر، هذا أمرٌ مُؤكّد، استمرّ مرضي بنفس الشدّة منذ اليوم الذي تركتك فيه، يمكنني حتى أن أقول إنه أصبح لا يُطاق في السنوات الأخيرة...».

قالت نيشه بحزن شديد: «أنا آسفة لذلك»، واستقرّ تعبير مؤلم على وجهها، «كنتُ أتخيّل أنّك كنتَ أفضل عندما كنتَ بعيداً عني، وكان الألم قد خُفّف بطريقة ما، وعندما كنتُ أنظر إلى الأبراج

الضخمة، كنتُ أحاول أن أصدّق أنك تعيش حياة سعيدة، وهادئة هناك، ليتني كنتُ على حق».

قال كمال بصوت متردّد: «في الواقع، يمكن تخفيف ألمي، قابلتُ امرأة وجَدَت حلاً دائماً للصداع العنقودي، على الأقل تقول إنها تستطيع فعل ذلك، إذا كان بإمكانها مساعدتها في أحد الموضوعات، فستحاول علاجي؛ ولهذا السبب جئتُ إلى هنا، يا نيشه، ليس من أجل أن أزعجك بالذكريات أو أعكر صفو حياتك... أعلم أنه لا يمكن أن يحدث شيء بيننا، وأنا أعلم ذلك منذ اليوم الذي افترقنا فيه، لقد مضى وقت طويل، منذ أن اقتنعتُ أنكِ أحببتِ شخصاً آخر، أنا فقط لم أستطع أن أعرف إلى مَنْ أذهب...».

وانحنى إلى الأمام حتى لا تسمع كلماته من الخارج، وخفض صوته حتى لا يسمعه سوى المرأة الشابة.

وقال: «قد يكون مرتكبو جريمة القتل الوحشي مختبئين بينكم، واعتقدتُ أنه يمكنك مساعدتي في العثور عليهم، سيكون هذا مفيداً لحركة المساواة في اسطنبول أيضاً، مثل هؤلاء الناس يُسمّمونك في الداخل، لقد كرّستُ سنواتٍ لحركة المساواة، وعلى الرغم من أنني تركتُ الحركة، إلا أنني ما زلتُ أؤمن بقضيتك، أعتقد أنكِ بحاجة إلى التنظيف».

عبّست نيشه، قائلة: «ما هي جناية القتل التي تتحدّث عنها؟ مَنْ قَتَلَ مَنْ؟»، وبَدَت قَلِقَةً، وأدارت رأسها، ونظرت إلى الباب المغلّق، كما لو كان هناك من يختبئ، «لسنا على عِلْمٍ بمثل هذا الحدث، ألا يمكن أن تكون هذه مؤامرة تافهة لجمهورية المدينة؟ الأوغاد يواصلون نشر شائعات كهذه، إنهم يذكروننا، ويُشوّهون اسمنا بالأحداث التافهة، حتى إنهم حاولوا إلقاء مسؤولية الثلاثة التي انفجرت في السوق مؤخراً - بسبب تسرّب التيار الكهربائي - علينا، حركة المساواة في



اسطنبول مُنظمة سَلَمِيَّة منذ يوم تأسيسها حتى اليوم، ولا علاقة لنا بالسلاح، إلا إذا اضطررنا لحماية أنفسنا».

وقال كمال: «أريدك فقط أن تبحثي في هذا، وإذا كنتِ تعتقدين أننا مخطئون، فلن أزعجك مرة أخرى، لكن لدينا أدلة مُهمّة، أنا متأكّد من أن الرجال الذين أحضروني إلى هنا أخذوا كلّ ما لديّ، واحتفظوا به في مكان آمن، إذا أحضروا ساعتِي التليفزيونية إلى الداخل، فستكون هناك بعض الصور والملفّات التي أريد أن أعرضها لك، قَتَلت عائلة جميلة مع أطفالها، لقد أحرّقوا الثلاثة أحياء... جريمة قتل وحشية بربرية... قال أحد الأشخاص إنهم من حركة المساواة في اسطنبول، وكانوا يُهدّدونهم منذ فترة طويلة، وبعد مراجعة الملفّات، سألتزم بالقرار الذي تريدين تنفيذه»، ومدّ يده إلى جبهته، وفركّ ما بين عينيه.

«قد تكون هذه فرصتي الأخيرة للتخلّص من ألمي، يا نيشه، أنا حقًا لا أستطيع تحمّله بعد الآن...».

نظرت المرأة الشابة إلى الرجل الذي كان يراقبها بعيون مُحبّة وعاجزة، وفكّرت في صمت لبعض الوقت، ثم أومأت برأسها.

وقالت: «لا يمكنهم إحضار ساعتك التليفزيونية إلى هنا، هذا ضد بروتوكولات الأمان، كما تعلم، ولكن إذا أعطيتني كلمة المرور، سأفتح هذه الملفّات، وأقوم بفحصها، إذا كان ما تقوله صحيحًا، فلن ناوي هؤلاء المجرمين أبدًا في حركة المساواة في اسطنبول، وسوف نعاقبهم بأنفسنا! أمل ألا يفقدوا الساعة في الطريق، لا بأس في أن أقول ذلك، نحن الآن بعيدون جدًّا عن اسطنبول، لقد مرّرتَ برحلة طويلة».

قال كمال: «فليكن»، وواصل كلامه، وهو مُحرج قليلًا، قائلاً: «كلمة المرور الخاصة بي هي نيشه2410... عندما ترين الدليل، سوف تؤيّدِين رأيي».

ابتسمت المرأة، قائلة: «هل ما زالت كلمة مرورك هي اسمي؟ حسناً، ما هو الرقم «2410»، لا أعتقد أنه مجرد رقم».

قال: «24 أكتوبر... اليوم الذي قَبَلْتَنِي فيه للمرة الأولى والأخيرة، لا أريد أن أنسى».

تنهَّدت نيشه تنهدةً عميقة، لم تنسَ ذلك اليوم أيضاً، ونظرت إلى الشاب بحنان وامتنان، كانت لا تزال تتأثر بالحب والرعاية بعد كل هذا الوقت، لطالما كانت مُعجبةً دائماً بقُدرة كمال على حب الناس، ليتهما كان بإمكانها إفساح مكان له في حياتها، لقد نما في قلبها وَجَعٌ رقيق، وابتلعت الكلمات التي كانت على طرف لسانها، الآن ليس الوقت المناسب، ربما في يوم من الأيام، عندما لا يكون هناك حمل ثقيل على كتفيها، ستكون قادرة على فك القيود التي أحاطت بقلبها. وقفت، وسارت نحو الباب، وعندما كانت على وشك الخروج، توقفت، وسألت دون أن تستدير.

وقالت: «صديقتك الغامضة التي تقول إنها وجدت علاجاً لمرضك... مَنْ هذه المرأة، وكيف تثق بها بشأن هذا؟ حاولت كثيراً أن أجد علاجاً لألمك، صدقني، أردتُ أن أنقذك من هذا المرض... لكن على الرغم من كل قوّة واتصالات حركة المساواة في اسطنبول، لم أستطع الحصول على أي نتائج، إذا كنت تريد مساعدتي، يجب أن تكون صريحاً معي، هل أنت متأكد من أن هذه المرأة يمكن أن تعالجك؟ وما علاقة هذا بجريمة القتل التي تحدث عنها؟».

قال: «اسمها جول طوزلو، وهي طبيبة مغامرة تدير مركزاً صحياً يُسمّى «ألماس للخدمات الصحية»، أولئك الذين قُتلوا كانوا أصدقاءها... أعرف القليل جداً عنها، لكنها أقنعتني بأنها يمكنها أن تفعل ما قالته، هي امرأة قوية، ولديها إمكانيات غير عادية، وتُنتج أدوية فريدة من نوعها لعظماء اسطنبول، ولا أعتقد أنك سمعت

اسمها؛ فهي تهتمُّ كثيرًا بالخصوصية، إنها تعمل فقط مع الأغنياء في المدينة بهدف حماية تركيبات أدويتها، وقالت إن مهمتها كانت توفير حياة أطول، وأكثر صحّة لهذه الطبقة النخبة، ربما أريد فقط أن أصدّقها، لا أعرف، يجب أن أصدق أن معاناتي ستنتهي يومًا ما... إنها تجعلني أشعر بالتعب حقًا يا نيشه، لا أستطيع تحملها بعد الآن.

نظرت نيشه إلى كمال مرة أخرى، بعيون متسائلة، وكان هناك تعبير قلق على وجهها، كانت على وشك أن تفتح فمها لتقول شيئًا ما، عندما حدّثت هناك ضوضاء عالية خارج الباب، وبعد فترة وجيزة، اندفع الباب من مكانه، وضرب الفتاة على ظهرها، وطرحها أرضًا، وملاً الدخان الكثيف، المكان، وظهر روبوتان عسكريان من بين الدخان، كانت كشّافاتهم فوق رؤوسهم، واستهدفت الأشعة المنبعثة من مُسدّسات الطاقة للروبوتات نيشه أولًا، ثم كمال، الذي لم يستطع فهم ما يجري، قبل أن يفقد الشاب وعيه بقليل، حاول يائسًا الوصول إلى المرأة التي يحبها، والتي كانت تئنُّ أمامه، لكنه لم يستطع التّحرُّك شبرًا واحدًا.

كان مرزيفونلو قائد الفرسان، صاحب الشارب الطويل والعريض والكثيف، واللحية الكثيفة، والمعروف باسم «ضخم الجُثَّة» في القرى المجاورة، يقف في منتصف الغرفة، وهو يجرُّ أذيال الخيبة خجلًا، صامتًا مثل قطّة تسكب الحليب، كانت كتفاه عريضتين بما يكفي لدعم الجبل، وقبضته قوية بما يكفي لاقتلاع شجرة، ومع ذلك، بينما كانت تلك اللحظة المشؤومة تحدث، لكان قد سُحِق على الأرض لو ضربوه في وجهه، حيث كان وجهه شاحبًا وأصفر، وقد استقرَّت نظرة في عينيه اللتين كانتا مفتوحتين لفترة طويلة، وتبدو مثل الودَّع، وكأنه رأى شبحًا، كانت إحدى الأذرع ملفوفةً بطريقة قذرة من الرسغ إلى الإبط، وكانت الضمادة ملطخة بالدماء في بعض الأماكن على الرغم من أنها قد تم تغييرها للتو، وكان قد علَّق سترته السوداء المغبرة بشكل اعتباطي، على كتفه القوية، ووضع يده على مقبض اليطقان الموجود في وشاحه، كما لو أنه لم يستطع العثور على مكان لوضعها.

كان حاكم السنجق أشرف أفندي، نصف جالس ونصف مستلقٍ على كرسیه العريض المغطى بجلد الأسد عند الزوايا، وكان يحاول فهم كيف وصل هذا الرجل العجوز الشجاع، الذي ترك قصره بشكل مُتَكَبِّر قبل خمسة أيام، لهذه الحالة، هل يمكن أن يكون هناك تفسير معقول لمثل هذا البؤس، ومثل هذا التأثير؟ لم يستطع إعطاء أي معنى للأكاذيب التي كان الرجل يهذي بها، وهو يلهث، قبل قليل، وأثار هذا الموقف غضبه، منذ أن أصبح راشداً، كانت الأشياء التي لا يستطيع تفسيرها بسهولة، تثير أعصابه.

مع استمرار الصمت المحيّر لحاكم السنجق، لم يستطع الرجل الضخم التحمّل أكثر من ذلك، وتَمَّت بنبرة منخفضة، قائلاً:

«والله لقد حدث كما قلتُ لك يا سيدي، ليحفظ الله ذُرِّيَّتِي، أنا أقول الحقيقة! أقسم بالقرآن أنه ليست هناك كلمة واحدة كاذبة! هناك ساحرة شريرة تعيش في تلك الغابة ستُلقي حجراً ضدّ الشياطين! ليست إنساناً، وليست جنياً، هي ساحرة في زي إنسان عادي!».

قال أشرف أفندي: «وهذه الساحرة... تحمي عصابة خليل إيفي الذي يشاكسنا، أليس كذلك؟».

أجابه قائد الفرسان: «بالضبط يا سيدي... خليل إيفي باع روحه لتلك الساحرة! وقد نال ممّاً بمفرده، نسل الدِّيُوث! وعندما تعرّضنا للهِزِمة في غاراتنا السابقة قرّرتُ هذه المرة أن أقود سلاح الفرسان بنفسِي، كنْتُ أرغب في دحض أسطورة الساحرة هذه التي تُروى هنا وهناك، وأن أعطي الشجاعة لشبابنا الشجعان، لكنها ليست حكاية عجوز، بل على العكس، إنها حقيقة مظلمة! كانت تقف بين شجرتين في ثوب رقيق، إذا صفّعت شخصاً فإنه سوف يموت، مثل هذه الفتاة الصغيرة... لقد بدّت مثل الساحرات التي حكى عنها الجنود المجرُّون، ربما جاءت إلى هنا مع غجر مهاجرين، وهربت من الاحتراق في

ولايات الكُفَّار... كان الليل على وشك أن يُقْبِل، وكان الظلام حولها، لم نتمكن من رؤية شكل وجهها، كان ما حولها صامتًا، صامتًا مثل الموت، كما لو أن الحشرات قد احتمت من هذا الشيطان، بكلمة واحدة، جرفت خيولنا عن الأرض، وجعلتنا نظير مثل الطيور، وألقت بنا على الصخور، وضغطت على حناجر الشباب مثل الملزمة، حتى دون أن تلمس يدها، كانت تقتلهم جميعًا، واحدًا تلو الآخر، دون رحمة، كانت على بُعدٍ أكثر من عشرة أمتار مِنَّا، ولم تتحرك حتى من مكانها، عندما كانت تسكب علينا سحرها الأسود!..».

قال له أشرف أفندي: «ولكنها تركتك حيًّا... لقد أبقت على حياتك... فقط لكي تأتي إلى هنا وتخبرني...».

أجابه الرجل، قائلاً: «هذا ما قالته باشا، هذا بالضبط ما طلبت مني أن أفعله، وقد صرّخت ورائي، عندما كنتُ أزحف، وأنا أهرب من هناك، قالت: «اذهب وأخير حاكم السنجق، وليعلم أن دوره قد حان»، قالت: «إنني سأغرقه في دمه، لقد حان الوقت تقريبًا!»، وكانت هادئة جدًا، واثقة من نفسها لدرجة أن دمي تجمّد يا سلطاني! لقد ركضتُ بشقّ الأنفس عبر الغابة لعدة أيام، وظننتُ أنني سأصل إلى هناك قبل أن تصل الساحرة إلى هنا، ظننتُ أنني سأحذر سيدي قبل فوات الأوان! إذا هُزم هذا الشيطان، ستأتي صلوات وتمائم ديمرجي خوجه التي تحيي الموتى! أقسم بالله أن السيف، والمسدس، والمدفع، والبندقية- عديمو الفائدة! لنستعد بسرعة، يا سيدي، إن خادم الشيطان قد جُنّ جنونه، إنه قادم إلى هنا!..».

كان أشرف أفندي يشكُّ أكثر فأكثر -مع مرور كل ثانية- في نظرة الرجل ضخم الجثة إليه بخوف مثل الطفل، وفي يديه وشفثيه المرتعشتين، لقد تحوّل خليل إيفي إلى مصدر إزعاج حقيقي؛ فقد أهدر مئات الجنود والخيول والأسلحة في كثير من الغارات غير الحاسمة،

وعلاوة على ذلك، فإن مرزيفونلو قائد الفرسان -الذي اعتمد عليه واعتقد أنه مساوٍ لخليل إيفي- قد فقد عقله، وكان يكذب.

الذهب الذي جمعه من التجار كان على وشك أن ينتهي، وكان غضبه يزداد كلما فكّر في أنه قد يضطر إلى استخدام الكنز الشخصي الذي جمعه بصعوبة، وكان يحتفظ به للأوقات الصعبة، بطريقة أو بأخرى، إذا لم يسكب السُمّ على جذور خليل إيفي وعصابته، فإن التجار سيطالبون عاجلاً أم آجلاً بحساب الذهب الذي قدّموه، وستصل نهاية هذا العمل إلى اسطنبول، وسيصل إلى أسماع العثمانيين، ثم في كل يوم من أيام الله كان ينتظر المشنقة التي ستلتفّ حول رقبتة، بعد كل هذا الجهد، لا يمكن أن يقبل أن يعيش هكذا.

قال وهو يهزُّ رأسه إلى الأمام والخلف، وكان صوته هادئاً، ولكن العواصف كانت تثور بداخله، «يعني امرأة... امرأة صغيرة... ولكنها ساحرة بالتأكيد! حسناً، ماذا أيضاً! لقد هزمت عشرين من سلاح الفرسان، الذين جهّزتهم من الرأس إلى أخمص القدمين، وملأت جيوبهم بالذهب... امرأة هي مَن فعلت ذلك، وليس خليل إيفي ورجاله... إنك حتى لم تر إيفي وعصابته حتى...».

قال ميرزيفونلو، وهو يضع يده على قلبه: «أقسم بالله أننا لم نرها»، وكانت الضمادة على ذراعه تتلطّخ باللون الأحمر، بين حين وآخر، لكنه لم يهتم بذلك.

«إذا كنّا قد رأينا تلك العاهرة، لكنّا قد ضربنا عنقها، ولكن لم تكن هناك فرصة، سيدي، تلك الساحرة اللعينة بعثرتنا، لقد دمّرت رجالي، ولم يكن بإمكانني فعل شيء، أقسم بالقرآن».

قفز أشرف أفندي واقفاً على قدميه، وكأنه قد تحرّر من قيود، واندفع الدم إلى وجهه، واستشاط غضباً.

وزأر مُلُوحًا بقبضتيه في الهواء، قائلاً: «أيُّها الدِّيُوث! يا ابن القَوَاد! يا وَضِيعَ النَّسَب! هل تعتقد أنني طفل صغير؟ لم تضربكم ساحرة، ولا خيول طارت... كم برميلاً شَرِبْتَ ذلك اليوم، حتى رأيت هذا الهراء؟! أو أنك لم ترى القرف، وأنت تعتبرني غيباً! لا يمكنك القول أن خليل إيفي قد سزمننا، هل تقرأ حكايات؟ ابتعد عن طريقي، يا كرية، لا أريد أن أراك! إذا كنت لا تزال في القصر عندما أغادر هذه الغرفة، فسوف أريكم ما هو ضرب الساحرة!«.

نظر قائد الفرسان إلى حاكم السنجق بعيون دامعة، وارتجفت شفته السفلى، بعد ما مرَّ به، لم يستطع كبح المخاوف داخله أو ردود الفعل في جسده، لقد ترك الكبرياء الذي قد يموت من أجله ذات مرة، في تلك الغابة التي كان قد زحف بعيداً عنها، وشعر بالعجز والبؤس.

وقال: «يا سلطاني... لقد حدث بالفعل كما أخبرتك... كانت هناك ساحرة أسوأ من الشيطان في تلك الغابة... واقفة بين الأشجار...».

صاح أشرف أفندي، بصوت أعلى، قائلاً: «صه! ولا تتفوّه بكلام فارغ بعد الآن!».

وفي إحدى الحركات السريعة، خلع المسدس من وشاحه، وصوّبه نحو جبين الرجل العملاق، وكان يريد بشدة أن يضغط على الزناد، حتى يقتله، وأمسك إصبعه بالكاد؛ إذا تجرأ، فسيشعر بالارتياح بالتأكيد، وضع الرجل الموجود أمامه في مكان خليل إيفي لبضع ثوان، وكان يسرُّه أن يتخيّل أنه قد قطع رأسه، وشاهده يسقط على الأرض، ثم فكر أنه إذا ضرب عنق قائد الفرسان، فإن حفنة من سلاح الفرسان سيكونون قادرين على التمرّد، ولم يتمكّن من قتله الآن، كان أفضل حلّ، هو رمي هذا الوغد عديم الفائدة بعيداً، ليجعله الله أعمى ومشلولاً، بحق الذهب الذي أنفقته عليه.



وأنزل المسدس، لكنه لم يُعده إلى حزامه، ووبخ الرجل، وكأنه يصبق في وجهه.

وقال: «انظر إليّ أيها الأفندي... لا أعرف ما الذي فعلته بحق الجحيم، هل كنتَ ثَمَلًا، هل أُصِبتَ في رأسك، مهما حدث الآن... لكنك كلّفتني كثيرًا، هل لديك أي فكرة عن عدد الرجال والخيول والبنادق وكم تساوي من العملات الذهبية العثمانية؟ إذا بعْتَ روحك، لا يمكنك أن تعوّضني! قد ينخدع القرويون الجَهْلَةُ بحكايات ساحرة، أتت من ولايات الكفر، لكنني لا تنطلي عليّ الحيلة والأكاذيب، لا تدعني أراك داخل هذه الجدران مرة أخرى، لا يمكنني حتى أن أجد أثرًا لك في هذا السنجق! خذ حكاياتك أيضًا، واخرج من هنا!».

أحنى قائد الفرسان رأسه، وقبِلَ الهزيمة، كان من الواضح أنه مُحَبِّطٌ للغاية، واستدار بهدوء، وتوجّه نحو الباب، وعندما كان على وشك المغادرة، توقّف وأدار رأسه، ونظر بحزن للمرة الأخيرة إلى سيده الذي خدمه بأمانة لسنوات، وبدأ ينطق بكلمة، ثم ابتلع ما كان على طرف لسانه، وغادر الغرفة، دون أن يفتح فمه.

ألقي أشرف أفندي المسدس على الأريكة، وشبك يديه حول رقبته، وأخذ نفسًا عميقًا طويلًا لتهدئة غضبه، وقال وهو يصرُّ بأسنانه، «كان ينقصنا من المصائب ساحرة عثمانية»، إذا انتشرت هذه الإشاعة، سيطلب الجنود المزيد من الذهب لدخول الغابة، لم يكن اليوم قد بدأ بشكل جيد على الإطلاق، كان بحاجة إلى تهدئة روحه؛ حتى يتمكن من تنفيذ الباقي، ونظر إلى حارسه حسني، الذي كان جالسًا في الزاوية، وأمره بلُغَة الإشارة بإحضار المحظية الجديدة المنتظرة في الغرفة المجاورة، فهم الرجلُ الأصمُّ الأبْكَمُ الأمرَ دون أن يجعله يُكرّر الأمر، وسارَعَ في ذلك الاتجاه.

وقال رئيس دائرة الحريم إنهم عثروا على هذه المرأة في قافلة قادمة من إيران، وقاموا بشرائها، لم يدفع القليل من الذهب، لكنه قال إنها تستحق كل قطعة ذهبية، كان أشرف أفندي مغرمًا بشكل خاص بالعيون الكبيرة للنساء الإيرانيات، وكان رئيس دائرة الحريم مدرِّكًا جيدًا لذوقه هذا، الآن فقط مثل هذه الفتاة طويلة القامة يمكنها أن تفيده في التنفيس عن غضبه، وتصفية ذهنه، كان بحاجة إلى الهدوء من أجل الخروج بخطة جديدة لهزيمة خليل إيفي.

بعد أن اصطحب حسني الفتاة إلى الغرفة تراجع إلى ركنه المعتاد، وأصبح ساكنًا مثل الحجر، وبينما كان سيده يستمتع بالنساء، فقد أمر بالتواجد في الغرفة لضمان سلامته، وكان سيده بعد أن أخذه معه عندما كان طفلًا، قام بإخصائه في سنِّ المراهقة؛ حتى لا ينظر إلى حريمه؛ لذلك عندما أخذ امرأة في حضنه، لم يشعر بالقلق من وجوده في الغرفة.

لم ينظر أشرف أفندي إلى الفتاة التي قدَّمها له حارسه إلا بعد بضع دقائق من دخوله؛ نظرًا لأن عقله كان مهووسًا بحقيقة أن خليل إيفي قد قام بهزيمته مرة أخرى، لقد كان لديه من قبل فتيات يبلغن من العمر خمسة عشر عامًا، وكان لديه أيضًا جميلات أوروبيات مشاهير، وأيضًا العذارى الأكار اللاتي أحضرهن من القرى بالقوة، وكان يغازل الفاتنات اللواتي سيفعلن أيَّ خدعة من أجل عمَلَتَيْن ذهبيَّتين عثمانيتين؛ لذلك لم يكن يتوقَّع أن يجد سحرًا في هذه المرأة التي لم يرها من قبل، ولكن بعد لحظة من إدارة رأسه، والتحديث فيها، تقبَّل بكل إخلاص أنه لم يَرَ مثل هذا الجمال في حياته، سواء كان الاختلاف في هذه الفتاة المبهرة في عينيها أو على أنفها أو على شفيتها، لم يستطع تحديد ذلك تمامًا، ربما كان ذلك في الوحدة التي قدمت بها جميع العناصر في وجهها بشكل مثالي. ثدياها اللذان أظهرهما ثوب النوم الرقيق والشفاف، كانا بنفس الشكل؛ مثاليين أيضًا، وكان الله

تعالى قد أراد إظهار حسن جماله في هذا الكائن الخارق، على الرغم من أن بطنها البارز قليلاً يُنذر بأنها تحمل طفلاً، إلا أن هذا لم يَصُرَّ بسحرها على الأقل، هذه المرة أصاب رئيس دائرة الحريم الهدف حقاً، وكان ذلك الرجل العجوز الماكر، سوف يتمُّ إغراقه بالذهب؛ لأنه وجد وأحضر هذا الملاك.

تقدَّم خطوة تجاه الفتاة، وكأنه قد فُتِنَ بها، ومدَّ يده ليلفَّ جسدها الجميل بين ذراعيه.

وفجأة تكوّن هناك فراغ في ذهنه، وتجمّد، وبعد ذلك مباشرة، بدأ هذا الفراغ الذي يصعب تفسيره، يمتلئ بصور غريبة عن بعضها الآخر، أجسام لا حصر لها، لم يستطع أن يفهم أيّاً منها، ولم يكن يعرف أسماءها، كانت تطير داخل رأسه بسرعة كبيرة، مُحدثَةً جروحاً عميقة في الأماكن التي اصطدمت بها، وبعد أن شعر بألم في رأسه، وضع يده على جبهته بشكل لا إرادي، لقد كان شعوراً مثيراً للإعجاب، لم يجربه من قبل، كما لو كان أحدهم يضغط على النقطة بين حاجبيه بمسمار قصير وجليظ، كانت المرأة ذات الجمال الذي لا يُضاهى على بُعد مسافة حيث يمكنه، إذا مدَّ يده، الإمساك بخصرها، وسحبها إليه، والركض من أجل المتعة، ولكن لسبب ما، لم يستطع فعل ذلك، كان الأمر كما لو أن ذراعيه وساقيه لم تَعُدْ تحت سيطرته، وغير قادر على تحريكها، بقدر ما يريد.

نظر يائساً إلى حارسه، حسني، متوسّلاً المساعدة، لكن الرجل الأصم الأبكم أدار وجهه إلى الحائط حتى لا يراهما، وربما لا يشهد اللحظات الخاصة التي اعتقد أنها ستحدث قريباً.

وشجّد المسمار بين حاجبيه تدريجياً، ثم استدار وبدأ يحفر في جسده، كان الألم رهيباً، حيث إن الألم الذي شعر به عندما أصابت رصاصة كتفه أثناء مطاردة الثعالب، لا يُقارَن به، وكان الألم الذي شعر

به عندما سقط من على الحصان، وكُسِرَت ساقه، يُعَدُّ وخزَ شَوْكَةٍ بالمقارنة به، وضع يده اليمنى الحُرَّة فجأة هناك، وحاول الإمساك بالمسمار، وإخراجه لإنهاء هذا التعذيب، لكن لم يكن هناك شيء، وعندما أدرك عَجَزَه شَدَّ خَدَّيه، وبدأت شفتاه ترتعشان كطفل.

على الرغم من أن حسني لن يتمكن من سماعه على الإطلاق، إذا كان بإمكانه الصراخ، إلا أن الرجال في الخارج ربما كان بإمكانهم سماع صوته، ولكن لسانه كان مقلوبًا داخل فمه، ولم يكن بإمكانه إلا أن يصدر همهمات منخفضة الجِدَّة، إذا أساء خادمٌ فضوليُّ التَّصَرُّفِ في تلك اللحظة، ووضع أذنه على الباب؛ لكان قد اعتقد أن سيده، الذي كان يلعب ألعاب الحب مع خليلته الجديدة، كان يئنُّ بسرور.

وفجأة اختفى الشعور بالمسمار الذي يخترق رأسه، وشعر براحة مؤقتة لبضع ثوان، لكن ذلك فقط لم يكن سوى نذير اقتراب العاصفة، وبعد ذلك مباشرة، حلَّت مكانه معاناة شديدة، مثل ألم السيف الذي ينزلق داخل وخارج جبهته، ويفعل ذلك مرارًا وتكرارًا، ونزل على ركبتيه، وبدأ يتدحرج من هنا وهناك، ويلكم صدره، ويخدش خَدَّيه، ويتخَبَّط، كان صوته يختنق في حلقه، ولم يستطع الصراخ إطلاقًا، كان الألم الذي عانى منه في تلك اللحظة أبعدَ من حدود القدرة على التحمُّل، وإذا قتله شخصٌ وخُفِّف من هذه المعاناة، فإنه سيرحمه بصدق.

لكن تعذيبه كان قد بدأ للتَّوَّ.

الحاكم الوحيد لعشرات القرى، حاكم السنجق أشرف أفندي المستبدُّ، بعد ساعة، كان يعاني كل ثانية من آلام أكثر من التالية، وزفر أنفاسه الأخيرة، وكان مُخَّه يتوقَّف ببطء، وعندما توقَّف الخفقان، تدفَّقت الدماء من أنفه وعينيهِ، وصبغت لحيته، والأرضية الخشبية باللون الأحمر.

نظرت عائشة إلى الرجل الذي يرقد بلا حياة عند قدميها، دون أدنى شفقة، وبقلب خفيف، ودار بخلدها أصدقاءها الأعزاء الذين قُتلوا بالسيف، بوحشية، في تكية المولوية، وتلك الحياة الجميلة المسروقة منهم، لم تكن قادرة على حمايتهم، لكنها على الأقل ثارت لهم أخيراً، ولم يُعد هذا الرجل الشرير قادراً على إيذاء أحد، ومن الآن فصاعداً، سيكون طفلها الوحيد بأمان، ولن تضطرَّ إلى الخوف ممّا قد يحدث لذلك البريء.

وذهبت ناحية الخادم حسني، صاحب الاسم المستعار «الحارس حسني» الذي كان يناديه به أشرف أفندي عندما يكون في حالة مزاجية جيدة، والذي لم يرفع وجهه عن الحائط، طوال هذا الوقت، ولمست كتفه بطريقة ودية.

وخاطبته ذهنيّاً بحنان، قائلة: «انتهى الأمر الآن».

شعر الشاب بسعادة كبيرة، كتلك التي شعر بها عندما سمع صوت يتردّد صده في رأسه لأول مرة، كان صوت عائشة هو أول صوت سمعه منذ طفولته، التي فقد فيها السَّمْع بسبب مرض حمى، وكانت المرأة، التي كانت تدفئ قلبه، هي أول شخص يُذكّره بمشاعر جسده، منذ اليوم الذي سرقوا فيه رجولته من أجل سعادة حاكم السنجق، فقدان القدرة على السمع، والقدرة على التحدّث، وعدم معرفته القراءة والكتابة، وعدم ممارسة الحب، كل ذلك قد فَقَدَ أهميته عندما احتضنت يده الصغيرة الدافئة يدي هذه الفتاة الساحرة بشكل فريد، وعندما التقت شفتاه بشفتيها، شعر بالراحة مرة أخرى، كما فعل، منذ سنوات عديدة.

سار بخطوات بطيئة نحو الجُثّة الموجودة على الأرض، وانحنى، وبصق في وجهه.

خلال السنوات التي عمل فيها كحارس لأشرف أفندي، شهد كل أنواع الخداع والأذى وتعذيب الغرباء واغتصاب الفتيات المراهقات في هذه الغرفة، ولم يستطع أن يتحدث عن ذلك لأي شخص، كان يحتفظ بها دائمًا في نفسه، لقد تراكَمت كراهيته في قلبه يومًا بعد يوم، حتى وجدته عائشة بجانب والدتها في قريتها حيث كانت تزورها مرة في الأسبوع، وخاطبته ذهنيًا... لم يكن يعلم ما إذا كانت معجزةً، هل هي سحر، هل هي حكمة الله، و لم يكتِث للأمر، في المرة الأولى التي رأى فيها وجهها، وفي اللحظة الأولى التي سمع فيها صوتها في رأسه، أصبح مغرمًا بها، كان حبًا بريئًا غير مُتَوَقَّع، لكنه كان يستحق كل شيء من أجله، العيش معها بحرية في الغابة، حتى لو كان جائعًا، كان أفضل ألف مرة من العبودية في قصر أشرف أفندي المليء بالخطايا.

تأبَّطت عائشة ذراع الحارس حسني، وذهبا معًا إلى الغرفة المجاورة حيث كان ينتظر قبل قليل، وكان حسني قد أعدَّ كل ما هو ضروري لمغادرة القصر سرًّا، قبل أيام، لقد نقل بلغة الإشارة للجميع في القصر، أن حاكم السنجق لا يريد أن يزعجه أحد حتى الصباح، ولم يكن من الصعب الحصول على مفتاح الباب الخلفي الذي يستخدمه الخدم، وكان ينتظرهما فَرَسَان قويان محمَّلان بالموءن في الحديقة، حيث فُتِح هذا الباب، أمَّا المحظية الإيرانية التي اشتراها رئيس دائرة الحريم لأشرف أفندي، فسيجدونها في الغرفة التي ربطها فيها، دون أن يمسَّ حتى شعرة منها، غدًا على أبعد تقدير.

كانت عائشة لديها ثقة لا تتزعزع فيما قاله لها، وبعد الانضمام إلى عصابة خليل إيفي، لن يتمكَّن حتى خُدَّامُ الشيطان، ولا حتى الشيطان نفسه، من لمسهما.

لم يسمع أحد أي خبر عن الحارس حسني مرة أخرى، ولم يخبر أحدًا بما حدث لحاكم السنجق، الذي لم يستطع أحدٌ فهُمَ كيف تمَّ

قتله، وأصبحت أسطورة الساحرة الموجودة في الغابة شائعةً مُتداوَلة على كل لسان؛ وذلك بفضل قائد الفرسان، الذي كان يتحدّث باستمرار، في كل الأرجاء، عمّا تعرّض له، وحتى هو لم يستطع أن يوقف هذه الشائعة حتى لو أراد ذلك، وكانت هناك حقيقة وهي أن السحر الأسود لهذه الساحرة قد قضى على حاكم السنجق أشرف أفندي، وأن ذلك الشيطان قد دمّر حارسه المخلص، لم يفكر أحدٌ بخلاف ذلك، وأكّدت الشائعات حول هذا الحدث أن حاكم السنجق الجديد، الذي تمّ تعيينه لتلك المنطقة، وكان يخاف جدًّا من الأمور الخاصة بالجن، لم يتورّط مع عصابة خليل إيفي، ولم يبتعد عن العدالة بقدر استطاعته؛ حتى لا تقوم الساحرة بمحاسبته، وعلى مرّ السنين، أصبح إيفي ورجاله معروفين بأنهم حُماة القرى المجاورة، منذ زمن أشرف أفندي، حتى تحوّل الجميع إلى تراب، لم يسمع أحدٌ مرّةً أخرى عن الساحرة التي كانت تريق الدماء.

## 17

كانت عائشة جالسة على حافة الجدول، تراقب انعكاس صورتها في الماء بصمت، وعيناها، الكبيرتان بما يكفي لإثارة حسد الغزال، وشفاهها الحمراء الممتلئة، وحواجبها الرفيعة كما لو كانت مرسومة بقلم رصاص- قد أظهرت انسجامًا تامًا مع كل التفاصيل الأخرى الجذابة لوجهها، لقد مرَّ وقت طويل منذ أن وقع كلٌّ من دخل حياتها تقريبًا في حب هذه الملامح، كان جميع الرجال، صغارًا وكبارًا، يتوقون إليها، وهذا الوضع لن يتغيَّر أبدًا، ما لم تفقد جمالها لسبب ما، ولن تتمكَّن أبدًا من عيش حياة طبيعية أينما ذهبت، بغضِّ النظر عن التَّنْكَر الذي ترتديه، معرفة هذه الحقيقة الخائفة كانت مُتَعَبَةً لروحها.

وضعت يدها في الجدول ومَوَّجَت الماء، واختفى انعكاسها لبضع ثوانٍ، كانت هذه هي اللحظات الهادئة التي تمُنَّت أن تستمرَّ لفترة



أطول، ولكن سرعان ما عادت صورتها الجميلة التي لا تضاهى إلى الظهور فوق الماء.

كانت الآن تشعر أن الحارس حسني كان يراقبها بحُبٍّ من خلف شجرة ليست بعيدة، منذ اليوم الذي هربوا فيه من قصر أشرف أفندي، كرّس الرجل حياته كلها لها، وأصبح حارسها الشخصي الطوعي دون أي توقُّع، كان مكسبه الوحيد هو مشاهدته لها لفترة طويلة، على أكمل وجه، والاستمتاع بها، وهو ما لم تعترض عليه؛ لأنها كانت تثق به، لكنها شعرت كما لو كانت مُقيّدة بسلاسل غير مرئية، ما كان مخيفاً هو معرفة أنها طالما كانت تتمتع بهذا الجمال الخارق، فلن تكون أبداً حُرّة في هذا العالم.

أخذت قطعة حادة من الحجر من أسفل ركبته، ووزنتها في يدها، كان حجراً صغيراً مثلث الشكل، مُطحَلَب في أحد طرفيه، لقد فُكِّرت في السرعة التي يمكن أن تُشوّه بها وجهها بهذا الحجر الصغير، وكيف يمكنها بسهولة تدمير الجمال، الذي كان العالم كله يرى أنه مسحور، لقد اندهشت من هشاشة الأشياء التي تعطيها البشرية قيمةً، كان يمكنها أن تُحوّل نفسها إلى شخص غريب الأطوار في ثوانٍ قليلة، وكانت تعلم جيداً أن أولئك الذين أشعلوا النار في العالم من أجل ابتسامة خجولة حتى ذلك اليوم، وأولئك الذين كانوا مدمنين على نظراتها الجميلة، لن يهتموا بمدى لطفها وظرفها في أي وقت، وأنهم سوف يتعدون عنها في لحظة.

وضعت يدها الأخرى على بطنها، حيث شعرت بضجّة، كانت ركلات جنينها مثل نبضة قلب ثانية في جسدها، ومع أن معرفتها بأنه هناك كان مخيفاً بعض الشيء، لكن ذلك منحها سعادة كبيرة، كانت فضولية جداً بشأن ما إذا كان سيكون فتاة أو فتى، وما هي السمات التي ستأخذها منها؟

وعلى الرغم من أن قلبها كان يصرخ للتحرُّر من عبودية جمالها، إلا أنها اضطرَّت إلى المحافظة على وجهها لضمان حياة آمنة لطفلها، نُقِشَ في ذهنها فكرة أنه يتعين عليها حماية هذه الفتاة البريئة، قد حوَّل كل رجلٍ ظهر في طريقها إلى حُرَّاس طوعيين، ولكنها كانت تعلم جيدًا أن لطافتها هي التي أثارت إعجابهم أكثر من أي شيء آخر، وإلا فإن الأفكار التي وضعتها في ذهنها لن تفيد إلا لفترة قصيرة، ولن تتمكَّن من البقاء على قيد الحياة كل هذا الوقت في هذه الأرض الأجنبية.

وسقط الحجر من أصابعها المفترقة على الأرض، وارتدَّ مرَّةً واحدة، وغرق في المياه الباردة للجدول، وتمعَّمت، قائلةً: «ربما يومًا ما في المستقبل... عندما أكون قويَّةً بما يكفي...».

في تلك اللحظة، لاحظت وجهًا آخر منعكسًا في الماء، لم يكن من الصعب التعرف عليه، بأذنيه الكبيرتين ورأسه الأصلع وأنفه المعوجة، فابتسمت بحب دون أن تدير رأسها، وقالت:

«أهلاً وسهلاً بك يا أخ بختيار... لقد جلبتَ الفرحة، هل مللتَ من الازدحام مثلي؟ هل تبحث عن بعض الهدوء لروحك؟».

قال الصبي، وهو يهزُّ كتفيه: «لا، لم أشعر بالملل»، وخدش الأرض بإصبع قدمه.

«لقد جنَّتَ لرؤيتكِ للتو، وكنت أتساءل قائلاً: ما الذي كنتِ على وشك القيام به، واشتقتُ إليك قليلاً».

فقالت عائشة: «بالنسبة لي، لقد شعرتُ بالملل الشديد... وسئمتُ من وجود كل العيون عليَّ باستمرار، وأردتُ أن أكون وحدي، من الجيد الاستماع إلى نفسي والغابة، وأعتقد إلى لغابة أكثر... عندما أستمع إلى قلبي، فإن ما أسمع ليس ممتعًا للغاية».

لم يستطع الصبي فهم ما كانت الفتاة تحاول قوله، لكنه لم يمانع، وفقاً لها، كانت عائشة تتحدث دائماً بهذه الطريقة المعقدة، فقد اعتادت على ذلك، وكان للفتاة عالم خاص بها، مختلف عن أي شخص آخر، وقد مرَّ وقت طويل منذ أن أدركت ذلك وقبيلته، على الأقل كان يُرحَّب بها في هذا العالم، ولم تستطع أن تغلق أبوابه، كان ذلك كافياً بالنسبة لها.

وانحنى أكثر قليلاً، وألقى نظرة فاحصة على انعكاساتهما الموجودة جنباً إلى جنب في الماء، كان يتجهَّم ويخرج لسانه بقدر ما يستطيع.  
وقال: «لكنكِ جميلة... وأنا دميم بالنسبة لك والله!».

عبست عائشة، قائلة: «لا تَقُل مثل هذه الأشياء، لقد سئمت من هذا بالفعل! مرة أخرى، أنت وسيم جداً، كل الأطفال جميلون!».  
ضحك بختيار بصوتٍ عالٍ.

وقال: «يا إلهي، هل أنا وسيم!... عيناك كبيرتان، لكن أعتقد أنكِ عمياء يا فتاة! أنا لي وجهٌ متجعَّد، لقد قال الجميع ذلك منذ أن وُلِدْتُ!».

كان الصبي مستاءً قليلاً، وتمتم ببراءة، محدقاً في الطريق:

«أودُّ أن أعرف كيف يبدو منظري بالنسبة لك... من الجميل أن ينظر إليك الناس بإعجاب... خليل إيفي ينظر إليك بهذه الطريقة عندما يراك، وكذلك يفعل الآخرون، لو نظرت الفتيات إليّ دون وعي؛ لكان ذلك يروق لي... هل كان الأمر كذلك دائماً في البلد الذي أتيت منه؟».

ابتسمت عائشة، وسحبت ركبتيها نحوه، ولقت ذراعيها حوله، وحدقت في الأشجار، وهي شاردة الذهن.

وقالت: «كان كل شيء مختلفًا تمامًا من حيث أثبت، كنتُ شخصًا عاديًا هناك، لهذا السبب سئمتُ من رؤية مثل هذا الاهتمام وأنا بجانبك».

صاح بختیار، قائلاً: «أنا لا أصدق ذلك، إنها كذبة! إن هذا الكلام غير صحيح! كيف يمكنك أن تكوني عادية؟».

أومأت الفتاة برأسها، قائلة: «كان الجميع جميلين في بلدي، على الأقل مثلي، عندما يبدو الجميع متشابهين، لا أحد ينظر إلى أي شخص بإعجاب».

«واو...». خدش الصبي الأرض مرة أخرى، ولم يصدق ذلك تمامًا، وركل حجرًا صغيرًا سقط عند قدميه، في الجدول.

وقال: «أين هذا البلد؟ ليتني أستقرُ هناك عندما أكبر! ربما ستقع في حبي واحدة من الجميلات الكثيرات! هل يمكن أن يفعلن المعجزات مثلك؟ هل كنتم جميعًا سَحَرَةً؟».

للحظة، استمتعت الفتاة بتخيُّل الماضي بشكلٍ لا يمكن أن تفسره، كانت تعتقد أنها لم تفكر في تلك الأيام لفترة طويلة، ومع أن عيون الصبي كانت مندهشة، إلا أن ذلك راق لها.

وقالت: «لم يكن أيُّ مِنَّا سَحَرَةً، لكن نعم، يمكن للجميع فعل ما بوسعي، التخاطب ذهنيًا، وتحريك الأشياء دون لمسها، وتعلُّم لغة أجنبية في غضون أسابيع قليلة، كل هذا لن يكون صعبًا على أي شخص... لقد كانت أشياء عادية بالنسبة لنا».

وأضافت قائلة: «سوف يتعجَّبون إذا علموا أنك تدعو أولئك الذين يمكنهم فعل هذه الأشياء بالسَّحَرَة!».

قال الصبي: «يا له من مكان رائع! إنه مثل الجنة... هل كان الجميع حوريات، ماذا كُنَّ؟ أنت لا تكذبن عليَّ، أليس كذلك؟ لقد

عثرت على طفل، وتخدعينه؟ اسمعي، لن أسامحك، لن أنظر إلى وجهك لاحقًا!».

ضحكت عائشة بمرارة، قائلة: «هل هي الجنة؟»، وسقط ثقل فجأة على قلبها، تنهّدت بعمق، ونظرت إلى الصبي، قائلة:

«لن أستخدم هذا الاسم لذلك المكان، سيكون الناس سعداء في الجنة، يا بختيار، أليس كذلك؟ يجب أن يكون الأمر كذلك... كان عدد الأشخاص السعداء قليلًا جدًّا في بلدي، الشيء المحزن هو أن معظمهم لم يعرف ذلك، لو لم آتِ إلى هنا لما كنتُ قد أدركتُ أبدًا مدى الحياة المزيّفة التي كنّا نعيشها هناك، إذا لم تخرج أبدًا وتنظر فلن تستطيع أن ترى أنك في قفص».

جلس بختيار في حيرة من أمره، وتربّع إلى جانب الفتاة، ووضع رأسه على كتف عائشة كما كان يفعل عادة عندما يكونان بمفردهما؛ ممّا منحه الطمأنينة، لوهلة غضبت الفتاة، واعتقدت أنه يلاحقها، وعندما لم يتلقَ أي ردّ فعلٍ، فرح فرحًا شديدًا، ولكن ما قالته الفتاة استقرّ في قلبه للتوّ بحزن شديد.

وقال: «لماذا قلتِ ذلك... لماذا يجب أن تكون الدولة كلها غير سعيدة؟ بينما جميعكن جميلات جدًّا، كان لديك وعدٌ لي، عندما يأتي اليوم المناسب، ستخبريني أين كنتِ تعيشين، لقد وعدتني بذلك في مقابل أن آخذكِ إلى خليل إيفي، وفي كل مرة كنتُ أسأل كنتِ تقولين لي لم يحن الوقت بعد، والآن أخبريني، هااه... تعالي، وأخبريني عنه، أنا أشعر بالفضول بشأن المكان الذي وُلدت فيه، يا لها من أشياء غريبة تلك التي قلّتها، أنتم جميعًا مثل السحرة، وأنتم لستم كذلك، كيف يكون ذلك... لن أقول أي شيء، ولن أخبر أحدًا بسرّكم، إذا قطعوا لساني، أنتِ تعرفينني».

شعرت عائشة بأن الطفل الصغير يتنفس بعُمق على كتفها، لقد كان على حقٍّ، كانت قد وعدته، لقد كان وعدًا أرجأته حتى تنتقم من حاكم السنجق، ولم يعد لديها أعذار، ما الضَّرَر في معرفة الحقيقة بعد هذه اللحظة، مَنْ سيصدقها حتى لو كان أحمقٌ، وقال للرجال؟ حتى لو صدقوه، هل سيبتعدون عن أصدقائهم الذين أنقذوهم من ظلم أشرف أفندي؟

قالت بصوت هادئ، ومُجِبٌّ: «يصعب عليّ أن أصف بالكلمات من أين أتيتُ... كانت هناك أشياء لا مثيل لها في لغتكم حتى الآن، حتى لو أردتُ أن أصفها بالكلمات، لا يمكنني ذلك، كلماتكم لا تكفي، لكن يمكنني أن أريك بعضًا منها إذا أردتُ، هل تريد تجربة هذا؟».

رفع الصبي رأسه، ونظر بنشوة إلى عيني الفتاة ذات الجمال الفريد، البراءة والشوق في هذه النظرة قضيًا على كل تردُّد لدى عائشة، في تلك اللحظة، تغلَّبت الرغبة في إسعاد بختيار، على جميع أنواع المخاوف.

مدَّت يدها ووضعتها برفق على جبين الصبي العريض، ورگزت أفكارها وذكرياتها، وبدأت تصبُّها ببطء في ذهنه، كانت تفعل ذلك باهتمام، ودون تسرُّع؛ لأنها كانت تعرف إذا أسرعَت فقد يؤدي ذلك الصبي، أو الأسوأ من ذلك، قد يؤدي ذلك إلى تلف دماغه بشكل دائم، وبينما كانت المشاهدة تتدفَّق بين عقولهما، بدأت في نفس الوقت تحكي له ببطء، قائلة:

«من حيث أتيتُ، كان الجميع متشابهين يا بختيار، كان الجميع لُطفاء للغاية، كان هناك ستة وجوه بشرية مختلفة، وجوه ثبت أنها مثالية من خلال جميع أنواع التجارب... بمجرد ولادة الطفل، يمكنك اختيار أي وجه تريده، واعتاد أطبائُنا وَضَعَ الوجه على هذا الطفل في غضون أيام قليلة، لكنني لا أتذكّر أن أي شخص عرفته كان سعيدًا بسبب جماله؛ لهذا السبب لا أحد يقع في حب أي شخص آخر...

عندما يكون الجميع متشابهين، لا أحد قبيح، لكن لا أحد جميل أيضًا، لا يمكنك حتى أن تكون شخصًا متميزًا...».

عندما نظر بختيار إلى الأمام الآن، لم يستطع رؤية هدوء الغابة، والأوراق التي تدور في مهبِّ الريح، والجدول الذي يتدفَّق بهدوء، وأمام عينيه أبراج ذات أبعاد لا يمكن تصوُّرها، ترتفع في كومة واسعة من المنازل، وبين الأبراج كانت هناك مركبات غريبة تُحلق، ولم يكن لديه أي فكرة عن كيفية تسميتها، وبعضها يشبه حشرات العثة، وبدخلها بشر، كان آلاف الرجال والنساء لهم ثلاثة أو خمسة وجوه مختلفة، لم يكن هناك فرقٌ بين هذه الوجوه من حيث العاطفة التي خلقوها فيه؛ فقد كانت جميعها مثالية.

وأضافت قائلة: «عندما تختار أحد الوجوه المثالية، فإنهم سيعطون طفلك رقمًا، كان عليك أن تحمل هذا الرقم على ملابسك مدى الحياة، وهكذا يمكن تمييزك عن الأشخاص الذين لديهم نفس وجهك تمامًا، وكما تعلم، لم يكن اسمي عائشة هناك، في المكان الذي أتيت منه كانوا يطلقون عليَّ اسم باز194، لست متأكدةً من مقدار ما يمكنني إخبارك به، ومقدار ما يمكنك فهمه، يا صديقي، لكن الحقيقة هي أنه على مرَّ القرون وجد علماؤنا طرقًا لتوسيع حدود العقل البشري، ثم حان وقت اللعب بأجسادنا، أعطانا العلم والاكتشافات الجديدة معارفَ جديدةً تمامًا، لكن لسوء الحظ لم يجلب ذلك أي سعادة لأَيِّ مِنَّا».

بدأ بختيار يطير بسرعة فوق آلاف المنازل الكبيرة والصغيرة، وبين البيوت كانت هناك أبراج مُلوَّنة اخترقت قِمَمُها السَّمَاءَ، شبيهة بالأهرامات، وكبيرة بما يكفي لتُناسب عَشْرًا من قريته بالداخل، وكانت هناك قُبَّة زجاجية تبدو وكأنها جبل من صنع الإنسان، لفترة وجيزة شعر بالرعب، لكنه أدرك بعد ذلك أنه ليس في خطر، كان

يمرُّ من بين المباني التي أمامه، وكأن ذلك حلمٌ شاهده في النهار، ولم يلمس أي مكان، ولم يُصَب بأذى، كان سُكَّان المدينة يقومون بعمل لا يمكن التنبؤ به بواسطة اللوحات غريبة الشكل، التي لم يكن يعرف أسماءها، وبدوا جميعًا جادِّين ومشغولين للغاية، لم يتحدث أحدٌ بشكل صحيح مع أي شخص، كان مهتمًا فقط بما كان يفعله، كان كل منهم يحمل أحرقًا وأرقامًا على ملابسه، في مكان يسهل رؤيته، كما ذكَّرت عائشة، كان بعضهم يحمل صناديق ضخمة داخل الأبراج دون استخدام أيديهم على الإطلاق، ربما بقوة عقولهم، وكان بعضهم يصعد السلام، وكأنهم سيصلون إلى مكان ما، أو ينزلون بنفس السرعة، كان من الواضح للوهلة الأولى أن الجميع في عجلة من أمرهم للغاية.

عندما اعتاد بختيار على العالم المثير للاهتمام من حوله، أدرك أنه لا توجد أشجار أو نباتات أخرى في أي مكان يمكن أن يراه، كان في كل مكان مبانٍ معدنية أو زجاجية أو حجرية لامعة، وبدأ المشهد يخنقه مع تلاشي مفاجأته الأولية، وسرعان ما أصبح الحشد الهائل المحيط به، والمركبات التي لا تُعدُّ ولا تُحصى التي تُحلّق حوله، وولولة الريح التي تخدش الآذان، والسماء الرمادية والأرض التي تشتاق للخضرة- لا تطاق، أصيب بالذهول، بشكل لا إرادي، وأبعد جبهته عن يد عائشة، كانت الفتاة تلمسه بالفعل فقط، لتتعرف على لحظة الانزعاج، وإلا فإنها لم تكن بحاجة إلى أن تلمس جسده للحصول على صورة في ذهنها، وعلى الفور اكتمل التدفُّق بين عقولهما، وعانقت الصبي الذي كان يلهث، بشدة.

وسألتها، قائلة: «حسنًا يا عزيزي، لقد انتهى الأمر، اهدأ...»، وبينما كانت تداعب رأسه الأصلع بودًا، قالت: «لقد كان كل شيء حلمًا، لقد انتهى، أنتَ بأمان هنا، لقد أردتَ رؤيته، وجعلتني أصاب بالملل لشهور، هل أنت راضٍ الآن؟».



عندما اختَفَت الضبايية في عينيه، شاهد بختيار اللون الأخضر للغابة، واللون الأزرق اللوداي يظهران أمامه، مسترخيًا ومستمتعًا، وكان قد اعتقد للحظة أنه فقدهم إلى الأبد، وأصيب بالذعر خوفًا من أن يتمَّ أسرُه في ذلك العالم الغريب، الساحق، المؤلّم، وأمال رأسه ونظر إلى الفتاة بحزن.

وقال: «لقد كنتِ على حق، بلدك ليس جميلًا على الإطلاق... هذه هي الجنة! شكرًا على أي حال، كنتُ شغوفًا جدًا بالمكان الذي أتيتِ منه... الآن أعرف كيف كانت البلد التي أتيتِ منها، لقد قلتِ إنه بعيد جدًا من هنا، ربما سأذهب إلى هناك يومًا ما، وسأرى بأم عيني اللعنات التي تجعل هؤلاء الناس يطيطرون! انظري، لم أرَ أحدًا في مثل سِنِّي في بلدكم، أين تخبُّتون الأطفال؟».

تنهَّدت عائشة بمرارة، قائلة: «يوجد عدد قليل جدًا من الأطفال هناك، إنهم قليلون لدرجة أنَّكَ إذا صادفتَ أحدهم فإن هذا يكون بمثابة معجزة».

قال الصبي: «هل يمكن أن يكون هناك شيء هكذا! لقد رأيتُ عالمًا مليئًا بالناس، أليسوا أطفالًا أيضًا؟ هل فقسوا من البيض!».

حاولت الفتاة أن تشرح ذلك، قائلة: «لقد كانوا بالطبع، لكنهم كانوا منذ سنوات عديدة»، لقد بدأت تخشى من تشويش ذهن الصبي، وكان من المفيد إنهاء المحادثة.

وقالت: «لقد سألتَ لماذا كنتُ غير سعيدة للغاية يا أخي بختيار...

لم يكن الأمر بسبب ما رأيته إطلاقًا، بل بسبب ما لا يمكنك رؤيته، كان بسبب الأطفال، عالمٌ بدون أطفال هو عالمٌ غير سعيد، لم يكن هناك أطفال لأن علماءنا بعد أن تجاوزوا حدود العقل والجسد، نجحوا أيضًا في التغلُّب على الوقت، كنَّا نظن أنه كان أعظم انتصار لنا، ومع ذلك، فقد جلب لنا الجحيم... لقد حوَّل المكان الذي نعيش فيه إلى

زنزانة مليئة بمليارات الأشخاص غير السعداء، لنبقى فيها إلى الأبد... لكن يكفي من هذه الثثرة الآن، لقد حان وقت العشاء، فلنر ما جلبه لنا خليل إيفي من الصيد! سأخبرك بالباقي مرة أخرى».

كان بختيار مذهولًا، لكنه لم يستطع مقاومة النظرات المسيطرة للفتاة، نهض بضجر، وأخذ يد الفتاة ببراءة طفل، وساروا معًا إلى الأبطال حيث نصبوا خيامهم، كانت عائشة تنظر بصمت إلى الأمام، وتسترجع الأجزاء المؤلمة من ماضيها، التي لم تخبر بختيار بها، كان اليوم المشؤوم الذي اضطرّت فيه إلى مغادرة وطنها وعائلتها وأحبّائها إلى الأبد، مدفونًا في عقلها، من أجل التكيّف مع حياتها الجديدة، ولأول مرة منذ فترة طويلة، يمرّ أمام عينيها بكل تفاصيله.



«أبناء وطني الأعزّاء! أولئك الذين يتحكّمون في الوقت! كما تعلمون، نحن نمرُّ بأيام مضطربة بسبب تصرّفات بعض اللصوص الذين يحاولون الإخلال بتوازن كوكبنا، بعض الناس الغافلين، متناسين الأوقات المضطربة في تاريخنا، وتلك الأوقات المظلمة عندما كنّا على وشك الانقراض، يُنظّمون إجراءات لجعل إنجاب الأطفال بحرّية! ومؤخراً تمّ التوثيق بالأدلة على أن هؤلاء الزنادقة أنجبوا أطفالاً غير مُسجّلين لدى الدولة، وقاموا بتربيتهم سرّاً في أماكن منعزلة! هذه الخيانات تصل إلى تقويض التوازنات الدقيقة لكوكب مافرون!

بفضل الاختراعات المضادة للشيخوخة لعلمائنا، لا أحد يموت على كوكبنا إلا في ظروف استثنائية مثل حادث أو قتل، منذ قرون، نما عدد سكاننا إلى مستوى كان الطعام والشراب والموارد الأخرى، كافية بالكاد كافية لسكاننا الحاليين، ومع ذلك، فإنه التزامٌ وليس قيداً على

الحريات، ألا نسمح للمرأة بالحمل إلا عند حدوث هذه الظروف الاستثنائية! عندما يموت أحد مواطني مافرون لأي سبب من الأسباب، فإن إجراء قرعة على حق إنجاب طفل، والذي يمكن للجميع المشاركة فيه، هو أكبر مؤثر على أن دولتنا تتعامل مع هذه القضية بإحساس كبير من الرحمة والعدالة! كل شعب مافرون، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، في الوظائف العليا من الحكومة أو من العُمال المتواضعين، سيتمكنون يومًا ما من إنجاب الأطفال إن شاء الله!

هؤلاء اللصوص الذين يُخلّون بسلامنا تجرّؤوا على إعلان أنهم لا يريدون أن يكونوا خالدين! يطالبون بأن يتم إزالة الجين الآرياتي النقي من أجسادهم! ذلك الجين الذي يوضع في أجسادنا بمجرد ولادتنا، ولا يسمح لنا بالشيخوخة حتى بعد يوم واحد من سنّ الثلاثين، ويسمح لنا بالتحكّم في الوقت، وفي المقابل، يريدون السماح لهم بإنجاب الأطفال! وكأنهم إذا أصبحوا مميتين، فإن ولادة طفل جديد لن يُخلّ بتوازن كوكبنا! إنهم يلعنون المعرفة العلمية التي منحها الله للبشرية بغرض الوصول إلى الخلود، والجين الآرياتي الذي ألهم علماءنا، هذا كُفّرٌ بمعتقداتنا! هل كان الله يمنحنا هذا الاكتشاف لو لم يكن يريد أن تكون البشرية خالدة!

أعزائي مواطني مافرون! أولئك الذين يتحكّمون في الوقت! لا يستطيع هؤلاء الغافلون أن يروا كيف أنه أمرٌ حيويٌّ لتحقيق التوازن والسلام على كوكبنا، أن نكون جميعًا متساوين في الجمال ومتساوين في العمر، لقد أعمتهم رغباتهم وطموحاتهم! إذا انتشرت الخرافات التي يحاولون نشرها، سنعود إلى تلك الأيام الرهيبة التي تظل كلُّ منها ذكرى سيئة في ماضينا! حقيقة أن لدينا جميعًا وجوهًا مثالية، بقدر ما يضع حدًا للجرائم الناشئة عن الغيرة والحب والرغبة، فإن من المهم بنفس القدر أن نكون خالدين؛ وذلك من أجل سلامتنا!

مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَعِيشُ إِلَى الْأَبَدِ لَا يَرْتَكِبُ جَرِيمَةً؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ  
المدة التي سيقضيها في السجن لن تكون حياة مؤقتة، بل ستكون  
إلى أَجَلٍ غير مسمى! وهو يدرك أنه إذا حُكِمَ عليه بالإعدام، فإن  
ما سيخسره لن يكون حياة تنتهي تحت أي ظرف من الظروف، بل  
الأبدية! والأشخاص الذين لا يشيخون، ويعرفون أنهم لن يموتوا إلا إذا  
قتلهم أحد، لا يقاتلون، ولا يخوضون الحرب لأسباب تافهة! لا توجد  
فترة واحدة في التاريخ لم يَسِفِك فيها البشرُ دمَاءً حتى توقَّفوا عن  
الشيخوخة! ولكن منذ أن أَلْهَمَنَا إلهنا الرحيم بَجِن الآرياتان، لم تحدث  
هناك حرب كبيرة واحدة على كوكبنا، إن الإنسان الذي خاطر بحياته  
بسهولة حتى ذلك اليوم، بقوله إنه سيموت على أي حال، عرف قيمة  
الحياة الأبدية، وحماها بأي ثمن! الآن هناك مَنْ يحاول الإخلال بكل  
هذه التوازنات الدقيقة من أجل إنجاب طفل، كيف يمكن للخالدين  
الذين يشعرون بالقلق مع خطر فقدان الأبدية، وهؤلاء الزنادقة،  
الذين يخاطرون بكل شيء، وهم يعلمون أنهم سيموتون عاجلاً أم  
آجلاً، أن يعيشوا معاً في سلام؟ نلعنهم جميعاً باسم شعب مافرون!  
أبناء بلدي الأعزَّاء! أولئك الذين يتحكَّمون في الوقت! لكي نستمرَّ  
في العيش بسلام إلى الأبد؛ فإن دولتنا لن تدع هؤلاء الذين يفسدون  
النظام، حافظوا على قلبكم خُرّاً! في جميع أنحاء كوكبنا، تمَّ إطلاق  
حملة مطاردة جماعية ضد أولئك الذين لديهم أطفال ويربُّونهم سرّاً،  
هذه الوحوش، التي تُهدِّد حياتنا الأبدية، سيتم القبض عليهم واحداً  
تلو الآخر، ومعاقبتهم بشدة، من خلال إبادة أطفالهم غير الموثَّقين،  
وسيتم تخفيض عدد سكان مافرون مرة أخرى إلى العدد المعقول  
الذي يُحدِّده علماؤنا، وإذا كانت لديك معلومات عن هؤلاء اللصوص،  
فإن دولتنا التي تعمل في خدمة شعبنا، تتوقَّع منك أن تذهب إلى  
أقرب مركز شرطة وتبلغ عنه، وأولئك الذين لا يبلغون على الرغم  
من أن لديهم معلومات سيحاكَّمون بتهمة الخيانة، وسيعاقبون بنفس

الطريقة مثل هؤلاء المخربين، سواء أكان مسؤولاً تنفيذياً كبيراً أو أغنى شخص على هذا الكوكب، فلن يتم محاسبة أي شخص غافل يرتكب هذه الخطيئة الرهيبة!

النصر للخالدين!».

أغلق هيك 2001 مُشغَّل الأفلام بحجم الزر، الموجود في راحة يده، وتلاشت الصورة المجسَّمة الزرقاء في الهواء، واختفت، في صمتٍ مُظلم، كان هذا صمتاً خانقاً يخنق قلب الإنسان، وكانت كل ثانية مؤلمة، مدَّة يده إلى باز 194 التي تنظر إليه بعيون دامعة، وعانقها بشدَّة، مُمسِكاً إيَّاهما بين ذراعيه لبضع لحظات، واستنشق الرائحة التي تشبه رائحة أزهار الربيع، التي كان يعلم أنه سيفتقدها، بحب، وفكَّر في مدى صعوبة العيش بدون الفرح والسعادة اللذين جلبتهما الفتاة الصغيرة إلى حياته، لكن لم يكن هناك عودة عن الطريق الذي دخلوه، كان عليه أن يفعل ذلك.

دفعها بعيداً، ومسح بلطف الدموع من خديها بأطراف أصابعه.

وقال: «ابنتي... عزيزتي... استمعتِ إلى آخر بيان لرئيس الجمهورية، إنهم يريدون من تهديداتهم في كل مرة، إذا اكتشفوا شيئاً عنك، فسوف يقتلوننا جميعاً، هل ما زلتِ تُصرِّين على البقاء هنا؟ إنكِ بذلك لن تُعرِّضي نفسك للخطر فحسب، بل تُعرِّضيننا نحن أيضاً للخطر، لقد عشنا أنا وأمك على هذه الأرض، بهذا النظام، لقرون، بعد كل هذا الوقت، لا يمكننا التكيُّف مع كوكب فضائي، نحن لسنا أقوياء بما فيه الكفاية، لكنكِ هنا منذ تسعة عشر عاماً فقط، لقد مرَّت حياتك دائماً بين أربعة جدران، مختبئة من الناس، ليس لديك شيء لتخسريه، يمكنك بدء بداية جديدة في مكان جديد».

وأخذ وجنتي الفتاة بين يديه.

وأضاف قائلاً: «يجب أن تعيشي يا عزيزتي! حتى لو كنتِ بعيدةً عنّا... يجب أن تعيشي إلى الأبد، لا يمكننا أن نتحمّل رؤيتك وأنتِ تتألمين».

بكت باز194، وسألت، قائلة: «إذا كنتِ سترسلني... إذا كنتِ ستتخلّص مني... لماذا أنجبتي! لماذا أنجبتي يا أبي! كيف يمكنني العيش وحدي في ذلك المكان الرهيب؟ بدلاً من أن أموت هناك، دعني أموت بجانبك! أنا خائفة جداً...».

شعر الشابُّ بألمٍ شديد في قلبه، وكان يشعر بالعجز، في الواقع، كانت رغبته الكبرى هي ركوب تلك السفينة مع طفلة؛ ليكون معها في الأرض الجديدة التي كانت ذاهبة إليها، لكن لم يكن لديه ولا لدى زوجته الشجاعة للمخاطرة بحياتهما الأبدية، وتناقشا لأيام، وفي النهاية تقبّلا الحقيقة بمرارة، لم يتمكنا من المخاطرة بذلك.

وأمسك بذقن ابنته، ونظر بلطفٍ في عينيها، لم يستطع أن يقول ذلك بصوت عالٍ، خاطبها ذهنياً، قائلاً:

«أردناكِ كثيراً، يا عزيزتي... أردناكِ أكثر من أي شيء آخر، لقد كنتِ لطيفة جداً عندما وُلدتِ، لدرجة أنكِ كنتِ أجمل وأروع شيء رأيته على مرّ العصور، واعتقدتُ أنه يمكننا حمايتكِ، وظننتُ أنه يمكنني إخفاؤكِ عن الجميع حتى تبلغِ السنَّ المناسبة، وكنتُ أمل أن تكون الدولة مَرِنَةً في تطبيق القانون مع زيادة عدد الأشخاص في مثل حالتنا، واعتقدتُ أننا سنجد مخرجاً... لكن لم يحدث أي شيء، لم يُعد لدينا فرصة أخرى، وإذا وقعتِ في أيدي الشرطة، فسوف نفقد نحن وأنتِ الخلود، أنتِ لا تريدين ذلك أيضاً، أليس كذلك؟ هل تريدِ أن تفعلي هذا لعائلتك؟ أمكِ وأنا موجودان منذ فترة طويلة، لا يمكننا حتى التفكير في الموت! قد يكون لديكِ فرصة هناك، يا باز،



لن تكوني بمفردك، سيكون لديكِ أصدقاء معك، سيكون هناك إيفا... هو أفضل صديقٍ لكِ! افعلي هذا من أجل نفسك ومن أجلنا».

اعتقدت باز194 أن والدها كان على حقَّ عندما توقَّف الصوت الذي كان يتردَّد في ذهنها، وعلى الرغم من احتدام العواصف بداخله، إلا أن منطقته أخبره أنه لا يوجد شيء أكثر أهمية من الخلود، هذا ما قيل له، مع جميع مواطني مافرون، منذ لحظة ولادته، لقد تلقت كل تعليمها في المنزل من مُعلِّمين افتراضيين؛ بسبب عدم وجودها في السَّجَلات الحكومية، لكن ما تمَّ تدريسه في هذه الدورات لم يكن مختلفًا عمَّا تمَّ تدريسه في المدارس، كانت القدرة على العيش إلى الأبد أهم هدف للوجود.

كان عليها أن تفعل ذلك، إن لم يكن من أجلها هي، فهو من أجل أسرتها.

مدَّت يدها وقبَّلت والدها، وأخبرت والدتها بالتخاطب ذهنيًا بأنها تحبها، كانت تتفهَّم أنها لم تأت لتودِّعها، إذا كانت هي أيضًا ستنفي طفلتها إلى كوكب غريب، فلن تتمكَّن من النظر في عينيها، وهي تبتعد.

وقفت، وركضت نحو مكوك الفضاء الذي ينتظر على بُعد حوالي مائة وخمسين مترًا، بدَّت المركبة غامضةً في الظلام الدامس، كانت طويلة ونحيلة، ربما كانت ستجدها أنيقة في وقت آخر، لكنها بدَّت لها الآن مثل دَرَج الجحيم، وعندما اقترَبَت، خاطَبَت ذهنيًا صديقها إيفا203 الموجود عند الباب، قائلة:

«أنا قادمة يا إيفا، دعني أدخل».

انفتح الباب، وصعدت الفتاة على الدَّرَج، ودخلت المكوك، وانتظر والدها حتى اللحظة الأخيرة حتى تلتفت ابنته لتتلقَّه إليه، وتلوِّح له للمرة الأخيرة، ولكنها لم تستطع فعلَ ذلك، حقيقة أن عائلتها

قد اعتبرت تفضيلها معقولاً، لم تمنعها من الشعور بالألم بشكل كبير بسبب ذلك.

كان في الداخل تسعة أطفال من مختلف الأعمار، كل واحد منهم ينتمي للأثرياء، والأقوياء في البلاد، ويعيش بشكلٍ سرّيٍّ، معظمهم يظهر لأول مرة في حياته، لقد استخدم آباؤهم كل ثرواتهم ومواردهم للحصول على مكان في مكوك الفضاء هذا، كان البعض يبكي بصمت، وآخرون ينظرون إلى بعضهم البعض بعيون مضطربة، وكان أحدهم يصلي أو يغمغم بإحدى أغاني الحضانة ل تهدئة نفسه، ولم تتوقف شفتاه أبداً، رغم أنه لم يكن واضحاً ما كان يقوله.

كانت هناك مقاعد كافية في المكوك تتسع لعشرين راكباً، وكان يبدو فسيحاً ومريحاً بما يكفي لمثل هذه الرحلة الطويلة، جلست باز على أحد المقاعد الفارغة، وربطت أحزمة مقعدها بشكل متقاطع مائل، ولاحظت أنها كانت تواجه مشكلة صغيرة في إغلاق الأقفال، وأن الأطراف لم تكن تُغلق بشكل صحيح، لكنها لم تهتم بذلك، لم تكن خائفة من أن شيئاً ما قد يحدث لها في هذه الرحلة، وأنها لن تكون قادرة على الوصول إلى هذا الكوكب الغريب حيةً، والذي لم تعرفه قط، ولم تعرف نوع المشاكل التي سوف تواجهها، حدّقت في المصابيح الملونة الصغيرة التي تومض على سطح المركبة، محاولةً عدم التفكير في أي شيء؛ لتصفية ذهنها تماماً، إذا لم تستطع نسيان مخاوفها بشأن المكان الغامض الذي سيذهبون إليه فقد تصاب بالجنون قبل أن تصل إلى هناك.

بمجرد جلوسها، نظرت باهتمام أكبر إلى الأطفال الآخرين بالداخل، كانت الفتاة الوحيدة في صفّها، وثلاث من أربع فتيات في الصف المقابل كانت لديهنّ وجوهٌ، وقياسات أجسادهن من النوع A، وكانت أعمارهن قريبة من بعضهن البعض، ولم يكن من الممكن القول إنهن

أشخاص مختلفون، بدون أرقام الرمز المكتوبة على ياقات ملابسهم، أما الشخص الذي يجلس في مقدّمة الصف، والذي لا بُدَّ أن عمره عشر سنوات فقط، كان من النوع C مثلها، كان النظر إليه مثل النظر إلى صورة باقية من طفولتها، كانوا جميعًا خائفين وصامتين، كما لو أنهم لم يتحدثوا على الإطلاق، فإن حقيقة هذه اللحظة ستتحمّل وسرعان ما سيستيقظون في منزلهم الآمن، ويدركون أنه كان مجرد كابوس.

مدّت الفتاة الجالسة بجانبها يدها تلقائيًا، وأمسكت يدها، كانت أصابعها النحيلة الرقيقة دافئة ومتعرقّة، وترتجف من وقت لآخر، كما لو كانت تعاني من نوبة صرع، لم تسحب باز يدها، وكان شعورها بوجودها يُطمئنّها، واستدارت، وزيّقت ابتسامةً لئسلي عنها، وقالت: «لا تقلقي، سنكون بخير... سأعتني بك، أعدكِ، كل شيء سيصبح على ما يُرام».

كان عليها أن تؤمن بوجود مثل هذا الاحتمال، لكي تستطيع أن تتحمّل هذه الرحلة.

لم تَرُدَّ الفتاة بالمثل، ولم يَقِلَّ رَجْفُهَا.

كان إيفا 203 الذي يجلس في غرفة التحكّم في المكوك، أكبر الرُكّاب سنًا، وأكثرهم خبرة، قد خاطب جميع الأطفال الموجودين في مقصورة الركاب، في نفس الوقت، قائلاً:

«لقد بدأنا الرحلة، أيها الأصدقاء، إذا كان هناك شخص لم يَقُمْ بربط الأحزمة حتى الآن، فيُرجى القيام بذلك على الفور، سأقوم فقط بتنشيط الطيّار الآلي، وسيهتمّ الذكاء الاصطناعي للمكوك بالباقي، في معظم الأوقات سوف نساfer بسرعة تقترب من سرعة الضوء، لكن درع الحماية الذي سيتشكّل حول السفينة سيمنعنا من الشعور به، ستكون رحلةً مريحةً وآمنةً، ولا شَكَّ في ذلك، لقد ربّبت والدي لنا

أفضل مركبة مُمكنة، نحن في بداية حياة جديدة تمامًا لنا جميعًا، نحن مستكشفون شجعان في رحلة لاستكشاف أرض غامضة! استمتعوا بها!».

حاول الشاب ألا ينعكس قلقه وتردُّده في صوته، كان يأمل ألا يشعر الأطفال بالخوف الموجود في قلبه، ورَكَزَ أفكاره على الكمبيوتر الموجود أمامه، وقام بتنشيط الطيار الآلي بقوة دماغه، دون لمس، وبعد ذلك أدار الأزرار الصفراء والزرقاء على اللوحة في الاتجاهات المناسبة أيضًا، دون استخدام يديه، لقد درسها عدَّة مرَّات مع والده، الذي عمل طيارًا في المكوك لقرون، قبل أن يتمَّ ترقيته إلى قائدٍ في سلاح الجو، وأخيرًا، مدَّ يده، وأنزل ذراع البداية بيده، وأراد أن يلمس هذه الذراع، التي من شأنها أن تُغيِّر حياتهم بشكل لا رجعة فيه، ليشعروا بوجودها.

عندما تأكَّد من أن كل شيء على ما يرام في المكوك، وأن جميع الآليات التي من شأنها أن تبقيهم على قيد الحياة -من درع الطاقة إلى وحدات دعم الحياة- تعمل بسلاسة، أدار الزرَّ الموجود على اللوحة المكتوب عليها «نوم طويل»، لم يتمَّ إخبار الأطفال -باستثناء إيفا- بأنهم ذاهبون إلى كوكب بعيد، بقرار من عائلاتهم، ولم يخبر إيفا أي شخص بذلك، سوى صديقه الوحيدة باز194.

بعد اكتشاف تلك الأرض الغامضة المسماة الأرض، والتي تشبه ظروفها المعيشية مافرون، لم تتم مشاركة هذه المعلومات إلا مع مسؤولي الدولة، وكبار المديرين التنفيذيين في وزارة الفضاء، مثل والد إيفا؛ حتى لا تُسبَّب الذعر بين الجمهور، ووفقًا للمعلومات التي تمَّ الحصول عليها من مَرَكَبات التجسُّس التي أرسلتها وزارة الفضاء إلى هناك، كان أبناء الأرض حضارة متخلِّفة، ويطعنون في السن، وموتون، ويتقاتلون باستمرار، لقد كانوا متخلِّفين قرونًا في كوكبهم الأصلي في

كل شيء آخر، ولكنهم كانوا متقدمين جدًا في تكنولوجيا الأسلحة، لقد اكتشفوا طرقًا لا حصر لها لقتل بعضهم البعض؛ ولهذا السبب تقرر الابتعاد عنهم قدر الإمكان، وعدم الاتصال بهم، بالنسبة لشعب مافرون، الذين لا يريدون المخاطرة بحياتهم الأبدية تحت أي ظرف من الظروف، يمكن أن يصبح هذا الجنس البشري المُهْلِك والخطير مُصابًا بجنون العظمة.

خَرَجَتْ إِبْرُ نَوْمٍ طويلة من المقاعد، ودخلت في أعناق الأطفال واحدًا تلو الآخر، سيجعلهم السائل الموجود فيها، ينامون لمدة عام تقريبًا دون الحاجة إلى الماء والطعام والمرحاض، عندما تنتهي رحلتهم التي تستغرق سنة ضوئية، كانوا سيستيقظون قبل دخولهم الغلاف الجوي للأرض مباشرة، ولم يعرف إيفا أيضًا كيف سيعيشون بعد ذلك، وكذلك العائلات التي أعدت لهم هذا المكوك.

توهَّجَت قضبان الطاقة الأرجوانية أسفل المكوك، وأقلعت المركبة التي تشبه القلم الحبر التي يبلغ طولها ثلاثين مترًا، ببطء، وعندما ارتفعت مسافة كافية، توهَّجَت القضبان الحمراء أيضًا، مُكوِّنة درع طاقة شفافًا حول المكوك؛ لحمايته من تأثيرات السَّير بسرعة كبيرة، وأخيرًا، أضاءت القضبان البيضاء مثل الشمس، وسارت المركبة الضخمة في لحظة بسرعة كبيرة، تاركة الغلاف الجوي في غمضة عين.

كان هيك 2001 قد جَثَا، وعندما كان ينظر بعينين دامعتين إلى الفراغ الموجود في المكان الذي توقَّف فيه المكوك للتو، شعر أن جزءًا منه قد اقتطع، وأنه سيعيش نصف إنسان إلى الأبد من الآن فصاعدًا، وكانت مفاصل ذراعه الاصطناعية -التي حلَّت محلَّ ذراعه المكسورة في حادث عمل قبل أربعمئة واثنين وستين عامًا- تؤلمه، وهو في حالة سيئة، كما كان يحدث له في أي صدمة تَعَرَّضَ لها، وفي تلك اللحظة، أراد أن يأخذ ثأره من هذا الذراع، ويمسكها، ويستأصلها من كتفه، كان

هذا الشعور بالتمرد قد نما في قلبه آخر مرة منذ سبعمائة وثمانية عشر عامًا، عندما فقد شقيقه في حادث مكوك.

تنهّد تومرا 1543 الذي كان يشاهد ما كان يحدث من بعيد، بعُمقٍ، وتوجّه إلى الرجل المذهول، ووضع يده على كتفه.

وقال بصوت مُطمئن: «سيكونون بخير، صدّقني، ليس الأمر سهلاً على أيّ مِنّا، لكن لم يكن هناك خيار آخر، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة ليظلُّوا بأمان».

فأجابه قائلاً: «أعرف، يا تومرا، لكن هذه الحقيقة لا تمنع معاناتي... كانت الوحيدة لديّ، لقد أحببتها كثيراً لدرجة...».

قال الرجل بحزن: «لقد أحببناهم جميعاً كثيراً...»، وكان في صوته غضب يحاول تخفيفه، «كانوا أطفالنا، ربما لن ننجب أطفالاً مرةً أخرى، نفعل ذلك بحلمٍ منَهم فرصة، اللعنة على قوانين مافرون!».

اعتدل هيك ببطء، ووطى ذراعيه، ونظر لأعلى، كانت عشرات القواعد الفضائية بألوان مختلفة تتلأأ مثل النجوم في السماء، وتدير شبكات الطاقة التي تمّ إنشاؤها لمنع أي شخص من مغادرة مافرون، أو الهبوط على الكوكب دون إذن، بدّت قواعد المركز، التي تنثر الأضواء الحمراء والخضراء، أكثر تَفاخُراً من البقية، وكان الكوكب بأقماره الأربعة الكبيرة، والتي يُعدُّ أحدها ضعف حجم الأقمار الأخرى، يُشكّل مشهداً مذهلاً.

وسأل بقلق، قائلاً: «مراقبو السماء سيسمحون لأطفالنا بالمرور، أليس كذلك؟ هل أنت متأكّد من ذلك بنسبة مائة في المائة؟ هل ستخاف في اللحظة الأخيرة؟».

«نحن أصدقاء منذ قرون، أرجوك صدّقني في هذا الأمر، لن تكون هناك مشاكل، لديّ الأشخاص الذين أثق بهم أكثر من غيرهم، في

مناوبة اليوم، إنهم يعرفون أنني أوثق كل الرشاوى التي ندفعها، إذا قاموا ببيعنا، فسوف يحترقون بنفس القدر الذي سوف نحترق به نحن، وسيستغرق الأمر بضع ثوانٍ فقط حتى يتم إغلاق شبكات الطاقة، من أجل مرور الأطفال، وسيقولون إنه كان هناك عطل تقني، مثل هذه الانقطاعات اللحظية للتيار الكهربائي تكون دائماً، ليس من السهل توفير الطاقة للعديد من القواعد الفضائية».

«حسناً، وهذا لن يلفت الانتباه؟ ألن يسأل أحد عن هذا الانقطاع؟».

ابتسم تومرا ضمنياً.

وقال: «عندما وُضعت هذه الخطة قبل ستة أشهر، طلبتُ تغيير وظيفتي، وطلبْتُ إقالتي من الخدمة الفعلية، وتولَّيتُ وظيفة إشرافيةً، وبعد كل هذا الوقت، قلت إنني بحاجة إلى تجديد، وقد تفهّموا ذلك، والأشخاص الذين سيشفرون على هذا الحدث هم الآن تحت إمرتي، لن يكون من الصعب التسترُ عليه».

كان تومرا القائد البارز في سلاح الجو في مافرون، قد خطّط بدقة لكل التفاصيل، وبالنظر إلى أن خطأ واحداً قد يرتكبه سيؤدي إلى إعدامهم جميعاً، فلن يكون من الخطأ القول إنهم الآن في معركة حياة أو موت.

كان يعرف هيك منذ قرون، وكان أقدم أصدقائه، بعد الحياة هذه الفترة الطويلة، أصبحت كل الصداقات عادية بمرور الوقت؛ قد يرتكب المرء خطأ من شأنه أن يؤدي قلب الآخر عاجلاً أم آجلاً، لكن علاقته بهيك لم تفسد قط، لقد دعّمَا بعضهما البعض في كل معاناة واجهاها، في بعض الأحيان كان يعتقد أنهما يتشاركان نصفين مختلفين من المخ، قبل خمسمائة وثلاثة وثمانين عاماً، بكى على كتفه لأن المرأة التي أحبّها ذابت أمام عينيه بسبب فيروس كانت قد أصيبت به، وقبل

ثلاثة وعشرين عامًا، عندما رُزِقًا بطفل تمَّ إنجابه بالمخالفة للقانون، بناءً على إصرار زوجته الجديدة، لم يشارك هذا السَّرُّ الكبير مع أحدٍ سوى هيك، وبعد بضع سنوات، عندما أراد هيك اتِّباع نفس المسار، ساعده في العثور على طبيب مناسب جعلهم ينجبون سرًّا، الآن في هذا اليوم الصعب عندما يضطُّرون إلى إبعاد أطفالهم بعيدًا عنهم، كانا يجدان القوة من بعضهما البعض.

أخذ ذراع صديقه، وسحبه إلى الآباء والأمهات الآخرين الذين كانوا ينتظرون عند مدخل المنشأة، ووقفوا جميعًا في الظلام حتى لا يراهم أحد من الخارج، وكانت عرباتهم الطائرة متوقَّفة في المجمع الذي أمامه، بشكلٍ مُعقَّد، هؤلاء الأشخاص، الذين يشاركونهم الآن نفس القدر، دخلوا حياتهم منذ ستة أشهر فقط، لقد وجدوهم بفضل الطبيب موريت 4923، الذي ساعد في ولادة أطفالهم.

عندما علم تومرا بالخطوات المميَّنة المخطَّط اتُّخاذها فيما يتعلَّق بالأطفال الممنوعين، في الاجتماعات التي عُقِدَت في المستويات العليا في الدولة، كان يأمل في البداية في استخدام نفوذه لتأمين امتياز له، ولصديقه هيك، ولكن عندما تمَّ إعدام اثنين من كبار رجال الدولة واحدًا تلو الآخر بسبب نفس الجريمة، فقد أدرك أن الحكومة لن تُغضَّ الطرف عن أي شخص بشأن هذا الموضوع، وأمضى شهرًا في التفكير، ووضع خطة مفصَّلة لإنقاذ نفسه وأطفاله، ولكن كان هناك الكثير من الناس الذين لا بُدَّ من رشوتهم، وتطلَّب بناء مكوك جديد سرًّا ميزانيَّة ضخمة، ولحُسن الحظ، كان الدكتور موريت يعرف العديد من الأشخاص الأقوياء والأثرياء الذين لديهم أطفال تمَّ إنجابهم بالمخالفة للقانون، ولم يكن من الصعب جمعهم معًا وجعلهم جزءًا من هذا العمل، كانوا جميعًا يتوقون إلى إنجاب طفل، ولكن عندما بدأت قوات الدولة في مطاردة الأطفال الذين تمَّ إنجابهم بالمخالفة



للقانون، لم يجرؤ أيُّ منهم على المخاطرة بحياتهم الأبدية من أجل ذلك.

الآباء والأمهات الذين نفوا أبناءهم إلى كوكب آخر، كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض في صمت، بخجل غير مُعلن، كما لو أنهم يشاركون في جريمة كبرى، ولم يستطع البعض أن يرفعوا أعينهم عن المكان الذي توقَّف فيه المكوك قبل قليل، وكان هناك مَنْ بَدَأَ مرتبِّكًا ونادماً، كما لو كانوا قد أدركوا للتَّوَّ أن هذا القرار لا رجوع فيه، ودقَّنت امرأة شقراء طويلة الشَّعر رأسها في كتف زوجها، وانخرطت في البكاء.

ترك هيك ذراع تومرا، واستدار لينظر إلى السماء للمرة الأخيرة، وتمتم بهدوء، كما لو كانت ابنته تسمعه، مُحاولاً كبت الشعور المتزايد بالتمرُّد داخله.

«حظاً سعيداً يا باز... كوني سعيدة هناك... أتمنَّى أن تكوني سعيدة هناك يا عزيزتي... أحبك كثيراً».

## 19

كانت الفتاة الصغيرة تنتظر خلف الحجر الذي لجأت إليه، وقد تأفّفت بقدر ما تستطيع، وذراعاها ملفوفان حول رُكبتَيْها، وهي تبكي، كانت ترتجف كما لو كانت على وشك التجمّد، لكن في الواقع كان جسدها الرقيق مشتعلًا، وسيطر الخوف على جسدها بالكامل، ولم تستطع تجميع أفكارها، أو أن تتنبأ بما يجب فعله، هل تستمر في الاختباء أم تهرب دون إضاعة الوقت؟ هل يمكن أن تجد ملاذًا آمنًا تلجأ إليه في هذه الأرض الأجنبية؟ وكانت تشعر بمطارديهم يقتربون على الرغم من أنها لم تستطع سماع أصوات أقدامهم، معترفين بأنهم لن يستسلموا حتى يضعوا أيديهم عليها، كان الأمر كما لو كانت تسمع أنفاسهم في مؤخرة رقبتها، وتشم رائحتهم المقرّزة، ولكن ربما كان مجرد خداع بصري، حيث كانت رائحة المكان كله مثل بالوعة، أكثر ما أخافها هو الغموض الذي حوصرت فيه.

كان هناك انفجار في إحدى فوهات البركان القريبة، عمود قرمزي من الحمم البركانية يرتفع في السماء، وصلت درجة حرارته إلى مخابأ الفتاة، عندما نظرت الفتاة في هذا الاتجاه، رأأت مخلوقات ضخمة بأربعة أجنحة، ومناقير طويلة تحلق على ارتفاع حوالي مائة متر فوقها، تُرى مَنْ سيكون موته على يد هذه الطيور المخيفة، أو الوحوش البشرية التي كانت وراءها؟ سَمِعَت صوت دويٍّ يوقف شَعر الرأس، وكان يقترب جدًّا، كان ذلك هو صوتهم بلا شك، قفزت على قدميها وهي مرعوبة، وحاولت الركض بصعوبة شديدة، عبر الأرض الشبيهة بالطين.

لقد بذلت قصارى جهدها حتى لا تنظر إلى الخلف، لكنها لم تستطيع منع الفضول الذي ملأ كيائها كله، وأدارت رأسها للخلف، واتسعت عيناها كما لو كانت في طريقها للخروج من أماكنها، من رُعب المنظر الذي شاهدته، كان هناك الآلاف منهم، وقد تبعوها جميعًا، وكانوا يشبهون البشر من بعيد، ولكنها كانت تعلم مدى جنونهم، وجِدَّة أسنانهم الدموية وعطشهم للجسد الطازج؛ لأنها رأأت وجوههم عن قُرب.

وفقدت توازنها فجأة، وسقطت على وجهها في الوحل الذي تفوح منه رائحة البراز، وكلما حاولت النهوض، كلما غطأها الطين من كل النواحي، وسحبها إلى الداخل أكثر، ووصلت الرائحة إلى مستوى لا يطاق، وكانت مضطرة إلى أن تتنفس، لاحظها أحد الطيور الضخمة، ذات الأجنحة الأربعة التي كانت تحوم فوق رأسها، وانقضَّ فوقها بسرعة، وعندما فتح منقاره الطويل، رأأت الفتاة المئات من الأنياب تقترب منها، فصرخت في يأس ورعب.

قال إيفا: «استيقظي يا باز، استيقظي الآن، استيقظي من فضلك!».

كانت باز تتلوّى في المكان الذي كانت تجلس فيه، كما لو كانت تتعرّض للتعذيب، وبالكاد تفرق بين شفيتها التي بدّت مثل الكرز الناضج، وتوسّلت إليه، قائلة: «ساعدي...»، دون أن تستطيع أن تعرف مَنْ يتصل بها، وعلى الرغم من أنها ظلّت ساكنة لفترة طويلة، إلا أنها بدّت مُتعبَةً ومُرَهقة، كما لو كانت تجري لساعات.

قال إيفا، وهو يرفع صوته: «أنتِ تحلمين فقط!»، وهزّها مرة أخرى، «أنتِ بأمان وأنا معك، هيا، افتحي عينيك الآن، واستيقظي!». فتحت باز عينيها بصعوبة، ورأت الصبي الذي كان ينظر إليها بقلق، لم تكن هناك حيوانات مُجنّحة وأنياب، أو رائحة مُقرّزة، كانت عيون الفتى الخالية من العيوب في لون زُرقة البحر. وسألت قائلة: «إيفا... أين أنا؟ هل ذهبت المخلوقات؟».

أجابها قائلاً: «لا توجد مخلوقات! يبدو أنكِ رأيتِ كابوسًا مرة أخرى، نحن في المكوك، كل شيء على ما يرام». حدّثت باز نفسها بصوتٍ باكِ، قائلة: «رأيتُ العالم... كان مُرعبًا»، وقامت بتحريك ذراعيها، اللّتين كانتا مُخدّرتين من الوقوف دون حراك. وقالت: «لا أريد الذهاب إلى هناك، إنه يخيفني كثيرًا، إنه جحيم حقيقي...».

ضحك الشاب، قائلاً: «لا أعتقد أنه مكان سيئ»، على عكس بؤس الفتاة، كان صوته مَرِحًا ومتحمّسًا.

«بالله عليكِ اهدئي... أعرف الكثير عن العالم، سأخبركِ إذا أردتِ، لا يوجد شيء تخافين منه هناك، عودي إلى رُشدكِ، أنا في انتظاركِ في قمرة القيادة، إنه منظر رائع بالخارج، لم أكن أريد أن يفوتكِ؛ لذلك أيقظتكِ، ثم يمكنكِ العودة إلى مقعدكِ مرة أخرى، إذا كنتِ ترغبين في ذلك».

وضعت باز رأسها بين يديها، وانتظرت بعض الوقت لتعود إلى رشدها، وعرضت للهواء وعاء الماء الموجود بجانب كرسيها، وبلّكت أصابعها، وفرّكت عينيها، طار الوعاء في الهواء، فوضعتة في مكانه بعناية، وعندما سمعت نقرة خفيفة، نظرت في اتجاه الصوت، وبعد فترة وجيزة، غلّف الضجيجُ المكثوكُ بأكمله، وحتى لا تتيّس أجساد الأطفال في حالة النوم الطويل بسبب الخمول، ولا تفقد مفاصلهم وظيفتها؛ تمّ تحويل المقاعد تلقائيًا إلى وضع التدليك، وعندما شعرت أن مقعدها بدأ يهتز، قامت بفكّ أحزمة الأمان للمقاعد التي لم تكن قد تمّ ربطها بالكامل، على عجل، ووصلت إلى مقصورة الطيّار، وهي في حالة نصف طائرة، ونصف متشبّثة، في بيئة خالية من الجاذبية.

قال إيفا دون أن يدير رأسه: «إذن أتيت أخيرًا، أنا سعيد لأنك لم تدّعي هذا المنظر يفوتك، يجب أن نبدأ الرحيل مرةً أخرى بسرعة، لا يمكننا البقاء في نفس المكان لفترة طويلة، دعينا نستمتع بذلك طالما لدينا الوقت».

عندما نظرت الفتاة إلى المشهد الذي كان الشاب يشاهده برهبة، اتّسعت عيناها من الدهشة، لم يكن إيفا يبالغ، لقد كان أكثر مشهد غير عادي شاهده في حياته، وكان قد تلقّى دروسًا لا حصر لها حول الكون من مُدرّسين افتراضيين، وكان يعلم أن الشيء الذي كان في مواجهته هو مجرّة، لقد رأى العديد من الصور الرائعة للمجرات، لكن النظر من قُربٍ إلى هذا الحدّ الحقيقي كانت تجربةً مختلفة تمامًا.

داخل الفراغ الشديد السواد، كانت هناك ملايين من الكور الضوئية، كبيرها وصغيرها، وهذه الكرات التي خمّن أنها نجوم وكواكب، كانت كلها بيضاء، ولم يستطع التكهّن عن سبب اللون الأزرق والأحمر الشبيه بالغيوم الهائلة المحيطة بها، كانت مجموعات

الألوان الشَّبيهة بالغيوم في حركة مستمرة، وبينما كانت تضيق في أحد طرفيها، فقد كانت تتَّسع في الجانب الآخر، وتتشابك وتنكسر وتنضمُّ مُجدِّدًا، وبينما كان اللون الأزرق يزداد قتامة في مكان ما، كان شاحبًا في مكان آخر، مع وجود آلاف من درجات اللون الأحمر بينهما، مَنْ يدري هذا المشهد الملوَّن يقع على بُعدِ كمِّ سنة ضوئية، بدا قريبًا جدًّا بحيث يمكنه لمسه إذا مدَّ يده في تلك اللحظة السحرية، وعلى الرغم من هذا الخداع البصري، إلَّا أنه كان بإمكانه التنبُّؤ بحجم المجرَّة، وفي مواجهة هذه العظَّمة، أصبح وجودهم والمكان الصغير الذي احتلُّوه في الكون بلا معنى.

قالت، دون أن تكون قادرة على رفع عينيها عن المشهد مثل إيفا: «إنه جميل... كالحلم...».

مازحها الشابُّ، قائلاً: «حتى لو لم تكن مثل أحلامك التي رأيتها!»، نظرت الفتاة إليه مليًّا، وعندما قطَّبت جبينها بسبب النُّكته، رفع يديه في الهواء.

وقال: «حسنًا، حسنًا، لا تغضبي الآن، أردتُ فقط أن أجعلك تضحكين قليلًا».

قالت: «لم يكن الأمر مُضحكًا! كان الكابوس الذي رأيته مُرعبًا حقًّا يا إيفا، كاد أن يكسر قلبي، لا أعرف كيف سأنام مرة أخرى».

قال الشاب وهو يدير كرسيَّه نحو الفتاة: «عليك أن تفعلي ذلك، لدينا ما يكفي من الطعام والشراب فقط إذا نمنا معظم الوقت في الطريق، بصراحة، الأمر نفسه ينطبق حتى على الأكسجين».

فقالت: «إذن لماذا نحن مستيقظون الآن؟ والأطفال الآخرون ما زالوا نائمين...».

أجابها، قائلاً: «أنا مضطّرٌّ إلى ذلك، يجب على شخص ما أن يستيقظ كل شهر للتحقق من أن كل شيء على ما يرام في المكوك، هذه أدوات تقنية، ويمكن أن تتعطّل، ويمكننا أن نصطدم بنيزك، ونحرف عن الطريق، ويمكن أن تنشأ جميع أنواع المشاكل التي لا يمكن تصوّرها، تمّ ضبط توقيت كرسّيّ، ممّا يسمح لي بالاستيقاظ في الأوقات المناسبة، لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته في المرة السابقة؛ لذلك لم أُمسك، لكن عندما رأيت هذا المنظر الرائع أمامي، أردتُ مشاركته مع شخص ما، أنتِ صديقتي الوحيدة على هذا المكوك، يا باز، أنا لا أعرف الأطفال الآخرين على الإطلاق».

قالت الفتاة بصدق: «أنا سعيدة لأنك أيقظتني»، ونظرت بامتنانٍ إلى عيون الصبي الزرقاء الجميلة.

وأضافت قائلة: «ليس فقط لأنني أستطيع رؤية المجرّة... ولأنني أستطيع التخلّص من هذا الكابوس... من الآن فصاعدًا، في كل مرة تستيقظ فيها، أوقظني أيضًا، حسنًا؟ أعتقد أن البقاء مستيقظة لبضع ساعات مرّةً واحدة في الشهر، لا يستنزف مواردنا، إذا كنت محبوسة في تلك الكوابيس لأشهر، فسوف أصاب بالجنون».

ابتسم إيفا، قائلاً: «لا، شخصان اثنان لا يُعدّان مشكلة»، كان البقاء وحيدًا في الفراغ اللا متناهي خانقًا؛ لذلك كان مسرورًا بعرض الفتاة.

قال بمرح: «ومع ذلك، يجب أن نجد حلًّا لكوابيسك حول الأرض! ستنامين عاجلاً أو آجلاً، أريدك أن تسترخي، لن نذهب إلى أي مكان مخيف إلى هذا الحد، لماذا أنتِ قلقة جدًّا؟».

فقالت الفتاة: «أليس هذا أنت؟ هل كل هذا يبدو وكأنه لعبة بالنسبة لك؟ نحن نتّجه إلى كوكب جديد تمامًا، ربما بعيدًا عن الحضارة، مكان مليء بالمخاطر... مَنْ يدري ما هي الكائنات المربعة التي تعيش هناك».

مازح إيفا الفتاة، قائلاً: «إن قوة خيالك متطورة للغاية، نعم، من المحتمل أن نرى حيوانات مثيرة للإعجاب على الأرض، ولكن ليس بقدر ما في مافرون، إذا أتيت إلى الحضارة... فأنتِ على حَقٍّ، وفقاً لمافرون، إنه كوكب متخلف جداً، ولا يستطيع شعبه القيام بالعديد من الأشياء التي يمكننا القيام بها، على سبيل المثال، لا يمكنهم التخاطب ذهنيًا، ولا يمكنهم تحريك الأشياء دون لمسها، ومعظمهم قبيحون بشكل فاضح، ولا يبدوون مثاليين مثلنا، لكن سيكون من الظلم الكبير أن نقول إنهم وحوش رهيبة، إنه نوعٌ بَشَرِيٌّ غير مكتمل النمو، هذا كل شيء».

سألت باز بإعجاب، قائلة: «كيف تعرف معلومات كثيرة عن العالم هكذا؟»، نظرًا لأن والديهما كانا أصدقاء مُقَرَّبَيْن، فقد أتيحت لها الفرصة للقاء إيفا عدَّة مرات على مرَّ السنين، وكان كل منهما رُفقاء اللعب الوحيدين لبعضهما البعض، ولكنهما لم يتحدثا عن ذلك مطلقًا، كان يحسدها على ثقتها بنفسها، وتمنى أن يكون واثقًا من نفسه إلى هذا الحد.

قال: «والدي قائد في سلاح الجو، كما تعلمين، وكان يدير وحدة التفتيش لبعض الوقت، لكن مهمَّته السابقة كانت استكشاف الفضاء، إنه واحد من أكثر الأشخاص معرفةً بالعالم، وكان إرسالنا إلى هناك هي فكرته، وعلمَّني كل ما يعرفه لأهتم بكِ هناك، بعد كل شيء، أنا الأكبر بينكم، فأنا أعتبر أخوكِ الأكبر!».

ضحكت باز ضحكة بلهاء، ولم تسمح لإيفا بالنظر إليها مثل الأخ الأكبر من خلال حركاته الصيانية وابتهاجه، وكانت تعرف ما معنى أن يكون لديك أخ أكبر، فقط من خلال ما رآته في الأفلام التي شاهدها، ومع ذلك، فقد راق لها وجود شخص يعتني بها.



تمتَمَت، قائلة: «لا أستطيع أن أتخيّل أناسًا مثلنا يعيشون هناك، كيف يمكن أن تحدث مثل هذه المصادفة؟».

ورفَعَت رأسها، ونظرت مرة أخرى إلى منظر المجرّة الرائع أمامها، وتضاءلت الغيوم الزرقاء، وأصبح لون السحب الحمراء المتوسّعة أكثر قتامةً، كان الأمر كما لو أن حريقًا هائلًا اندلع في الفراغ اللا متناهي من الفضاء، كان هناك فقط ملايين الكواكب، كبيرها وصغيرها، على مَقربة منها.

أخذها إيفا من ذراعها، ووضعها برفق في المقعد المجاور له.

وبدأ يشرح بقدر ما يعرف، قائلاً: «لم يكن الأمر منطقيًا بالنسبة لي في البداية أيضًا... لم أصدّق أن هناك أشخاصًا يشبهوننا، حتى مع وجود آثار من ثقافتنا، في مثل هذا المكان البعيد عن مافرون، لكن والدي أخبرني أننا أرسلنا العديد من أقمار المراقبة إلى هناك على مَرَّ العصور، وأخفينا هذه الأقمار في النيازك والمذنبات، كُنّا نراقب سِرًّا، شعوب العالم، وتطوّرهم التاريخي والحضارات التي أسسوها، من بعيد، يبدو أن أبناء تلك العوالم لا يشبهوننا في المظهر فقط، فهم يُنشِئون مُدُنًا تشبه مُدُننا السابقة منذ قرون، وتطوّراتهم التكنولوجية تتقدّم بالتوازي مع تاريخنا، ربما سيصلون إلى التطوير الحالي لمافرون بعد وقت طويل، لكنهم يسرون في هذا الاتجاه، كان كبار رجال دولتنا وقادتنا مقتنعين بأن هذا لا يمكن أن يكون مصادفة؛ ولهذا السبب قاموا بإجراء بحث عن الأحداث التي ظَلَّت مَخْفِيَّةً في تاريخنا، واتّضح أننا لسنا أول مَنْ انتقل من مافرون إلى الأرض، يا باز... منذ آلاف السنين، قام آخرون بمثل هذه الرحلة، وأسّس أسلافنا الحضارة الموجودة على الأرض».

صاحت باز بدهشة، قائلةً: «هل هذه مَرَحَة! إذن سِرٌّ مثل هذا مَخْفِيٌّ عن كل أهالي مافرون؟».

قال: «يمكن أن يُقال هكذا، يبدو أن هناك أسباب وجيهة لذلك، في نهاية الحرب التي اندلعت منذ آلاف السنين، تمّ نفي المهزومين إلى الأرض بشكل جماعي، وفُقد الكثير منهم في أعماق الفضاء، ولكن البعض تمكّن من الوصول إلى هذا الكوكب الجديد، لقد مسح المنتصرون عقول وذاكرات كل المنفيين حتى لا يعود الأعداء الذين طردوهم من مافرون، وكان عليهم أن يبدووا كل شيء في العالم من الصّفر مثل الأطفال، دون تذكّر أي تقنية أو موهبة... لكن بطريقة ما تمكّنوا من البقاء والتكاثر، واكتشفوا المهارات التي تمّ قمعها في أعماق عقولهم، تدريجيًا...».

نظّرت باز إلى الشاب مذهولة من القصة التي سمعتها، وشعرت براحة طفيفة، لقد راق لها ما تعلّموه، وكان ممّا أثلج صدرها قليلًا معرفة أن أقاربها البعيدين يعيشون هناك، ومع ذلك، فإن هذا لم يغيّر حقيقة أن الأرض كانت كوكبًا غريبًا، وخطيرًا بالنسبة لهم، لقد استمعت إلى كل جزء من المعلومات التي أخبرها بها إيفا، عن المكان الذي ذهبوا إليه في ذلك اليوم، كما لو كان ذلك هو معنى الحياة، وقامت بتدوين ذلك في ذهنها، وتساءلت إلى أي مدى كان ذلك حقيقيًا، وهل كان ذلك من خيال الشاب، ولكنها لم ترغب في أن تسأل.

في محطّتهم التالية، كان هناك كوكب ضخم يحترق هذه المرة، وكان يهتزُّ بسبب الانفجارات، كما لو كان على وشك الانهيار، لقد كانوا بعيدين جدًّا لدرجة أنهم لم ينجذبوا إلى الجاذبية الأرضية للكوكب، ولم يشعروا بالحرارة، لكن مجرد مشاهدته جعلهم يشعرون بالرعب. أحيانًا يجدون أنفسهم في ظلمة وصمت لا نهاية لهما، حيث يسود الشعور بالعدم في كيانهم كله، لكن في معظم الأوقات، شهدوا جميع أنواع معجزات الكون معًا، وشاهدوا بإعجاب النجوم الساطعة، والمجرات الملوّنة، والثقوب السوداء الضخمة، والمذنبات.

في كل مرة تستيقظ فيها باز، كانت سعيدةً برؤية عيون إيفا الزرقاء الجميلة على بُعد بوصات قليلة فوق وجهه، ربما كان لدى الملايين من الأشخاص في مافرون نفس العيون، لكن نظرات الصبي كانت لها عمق وسحر خاص بها، لقد منحها الثقة في أنه مستعدٌّ لتحمل المسؤولية، وحمايتها من الأشخاص الموجودين حولها، وأنه سيكون سعيدًا بذلك.

عندما فتحت عينيها للمرة الحادية عشرة، علمت أنهما يقتربان من نهاية الطريق، وعندما وصلت إلى قمرة القيادة، وهي في حالة نصف طائرة، ونصف متشبّثة بالجدران، كانت مفتونةً بالمشهد الرائع المنعكس على السطح الزجاجي الشفاف لدرع الطاقة، لم يكن سبب ذلك أن هذا الكوكب -الذي يُعدُّ الجزء الأكبر منه أزرق اللون- كان أكثر جمالاً وإبهاراً من أي شيء آخر شاهده، بل كان السبب هو موافقتها على أن يكون هذا المكان هو منزلها الجديد، والذي يُذكرها بمافرون.

أمسكت بيد إيفا، الذي لم يستطع أن يرفع عينيه عن ذلك المكان كما فعلت هي، وتمتّت بحماس، قائلة:  
«الأرض... أليس كذلك؟ لقد وصلنا أخيراً...».

قال الشاب: «نعم، هذه هي الأرض»، مستمتعاً بدفع ونعومة الأصابع في راحة يده، وأدار رأسه، ونظر بلُطفٍ إلى الفتاة الصغيرة، مبتسماً برقّة.

«سنكون سعداء هنا، يا باز، أعتقد ذلك، سأحميك من كل شيء، ومن الجميع، صدّقيني، هلاً فعلت ذلك؟ لن أتركك أبداً».

ضغطت باز بقوة على يد الصبي، وابتسمت، ومنعها قلبها المفعم بالقلق من الاستجابة بلُطفٍ، لكنها أرادت بشدّة أن تُصدّقه.

بعد مرور عام على مغادرة باز194 لوالديها، والكوكب، وكل شيء تعرفه، وكل شخص تعرفه- رأى القبطان العثماني سليمان باشا، الذي كان يتقدّم عبر البحر بغليونه الرائع المسمّى شاهميران، والموجود على الكوكب الذي يطلق عليه اسم الأرض، ضوءًا ساطعًا في السماء، ففتح منظاره الأسطواني، ونظر في هذا الاتجاه بفضول، حيث كان هناك جسمٌ كبير يشبه الرمح، بقُضبان أرجوانية وحمراء وبيضاء على ظهره، يسقط بسرعة في الماء، كان يعتقد أن هذه قد تكون لعبة جديدة لأهل جنوة أو البندقية، وسيكون من المفيد تَوْخّي الحذر، ولكن إذا كان هذا الاختراع الكافر آلة حرب كما كان يعتقد، فإنه من الغريب ألا يحدث شيءٌ في النقطة التي كان يستهدفها.

غرق الرمح العملاق في البحر بأقصى سرعة، تاركًا وراءه آثارًا ملوثة، وبعد بضع دقائق طفا على السطح مثل حوت ميت، وبقي هكذا، كان الماء يتدفّق من خلال الشقوق الموجودة في نوافذه، وسرعان ما سيكون في قاع البحر، في تلك اللحظة، انفجرت إحدى النوافذ، وتناثرت قطعُ منها في الخارج، وخرَجَت منها فتاة صغيرة ترتدي فستانًا أسود ضيقًا، لا يمكن رؤية وجهها بالضبط، ولكن حتى بقدر ما تمّ رؤيته، كان لديها قوام غير عادي، وجمال لا تشوبه شائبة، فنظر حوله بلا حول ولا قوة، إلى الآلة الغريبة التي كانت تغرق في الماء، ولم يستطع أن يعرف ماذا يفعل، لم تكن تشبه جنديًا من جنوة أو البندقية على الإطلاق.

كان سليمان باشا مفتونًا بجمال الفتاة، فأنزل المنظار، ووضع يده على مقبض اليطقان الموجود في وشاحه، واستدعى مساعده، وأمره بإدارة السفينة على الفور في هذا الاتجاه، لم يتجاهل ملء المدافع، وطلب منهم الاستعداد لحرب مُحتمَلة، على أقل تقدير، كان يجب أن يعرفوا ماذا يحدث، وإذا كان الكُفّار لديهم خطّة شيطانية ضد الأراضي العثمانية، لكان عليهم أن يعرفوا ذلك قبل أي شخص آخر.

وبينما كانت شاهميران تملأ أشرعتها بالرياح، وتُغيّر اتجاهها، كانت باز 194 تنظر إلى هذه المركبة العائمة الغريبة، التي تراها لأول مرة في حياتها، بعيون مذهولة، وبسبب مشكلة درع الطاقة، فقد تحطّم الزجاج الأمامي بمجرد وصوله إلى البحر، وأصيب إيفا بجروح خطيرة من جراء قطع الزجاج المتناثرة في كل مكان، وأمّا الآخرون فلم يتمكنوا من فكّ أحزمة مقاعدهم عندما تعطل نظام الحزام الأوتوماتيكي أثناء الاصطدام، وعَلِقُوا بالداخل، وكانوا سوف يخنقون بعد بضع دقائق، ولكن تعطل أحزمة المقاعد الخاصة بهم، وعدم إغلاقها بشكل صحيح أنقذ حياتهم، لكن المكوك كان يغرق أكثر فأكثر كل ثانية، وكان من المستحيل بالنسبة للموجودين عليه أن يسبحوا مرتدين سترات الحماية الثقيلة، كانت تعاني من ألم شديد بسبب ما حدث للأطفال الآخرين، وخاصة وجه إيفا الممزّق، وجسده الدامي، الذي لم يَخْتَفِ من أمام عينيها، لكنها لم تستطع أن تفكّر في الأمر أكثر من ذلك، بعد الآن، كان من أهم واجباتها حماية الحياة الأبدية التي منحها الله لها مثل كل شعب مافرون، لم يستطع إيفا الوفاء بوعد، حيث تركها وحيدة على هذا الكوكب المخيف منذ اليوم الأول، وعليها الآن أن تدافع عن نفسها، كان عليها أن تجد طريقة للبقاء بأي ثمن، وقامت بتقييم الخيارات، محاولة عدم سماع بكاء الأطفال، وأصوات إيفا الذي يطلب المساعدة.

كانت تحدّق بعيون مترددة في المركبة العائمة التي تقترب، وعليها أشخاص يرتدون ملابس غريبة، وكلهم من الذكور بقدر ما تستطيع رؤيته، لقد بدوا قبيحين للغاية، ولم يكن يخطر ببالها أن وجهًا بشريًا يمكن أن يكون مشوّهاً، وغير متناسب هكذا، فاعتقدت أن هؤلاء الغرباء كانوا فرصتها الوحيدة، وخلعت ملابسها الواقية الثقيلة، وألقت بنفسها في الماء، وبدأت تسبح في هذا الاتجاه بكل قوتها، كان البحر باردًا لدرجة أنها اعتقدت أنها ستتجمّد، لكن كان عليها أن تتحمّله،

كان إيفا قد أخبرها ذات مَرَّة، أنه يعتقد أنه بإمكانهم التحكُّم في عقول أولئك الذين يعيشون على هذا الكوكب، والذي سيكون موطنهم الجديد، وأن بإمكانهم غرس فكرة أنهم بحاجة لحمايتهم، في أذهان الأشخاص الذين يتصدَّون لهم، كان أملها الوحيد أنه سيكون على حق.

في الوقت نفسه، على بُعد يومين من مكان وجودهم، كانت هناك عاصفة فريدة تشتدُّ لحظة بلحظة، وقد حدثت بسبب تأثير درع طاقة المكوك على الغلاف الجوي للأرض، وكانت الموجات المتصاعدة تبتلع الغليونات والقوادس القريبة، والرياح التي لا تُقاوم، والأمواج العاتية كانت تتقدَّم بأقصى سرعة صوب شاهميران.



## 20

بينما كانت عائشة تسير مع بختيار في الغابة، شعرت بطفلها الصغير الذي اقترب ميعاد ولادته، يتحرك، وركلها في بطنها، كان هناك كائن بداخلها استمدَّ قوة حياته منها، وكان يتنفس معها، وسيكون هذا جزءاً منها لبقية حياتها، عندما تلد، كانت ستعيش القلق والمخاوف التي مرّت بها في الماضي، وسترى كل شيء في العالم لأول مرة كما لو كانت قد جاءت من كوكب آخر، وسوف تدهش، وتصنع اكتشافاً جديداً كل يوم، وسوف تُعلِّمه مباحج الحياة، ومخاطرها، والصواب والخطأ، وستكون دائماً مُرشدَه في رحلة حياته المليئة بالمفاجآت، لقد كان شعوراً رائعاً، وعلى الرغم من أنها لم ترَ أو تلد هذا الطفل الصغير بعد، إلا أنها شعرت بأن رابطة قوية جداً قد نشأت بينهما لن تنقطع أبداً، كان يفوق عقلها إمكانية أن تتخلّى الأم عن الطفل الذي كانت تحمله منذ شهور، وكلما فكَّرت في الأمر كان يؤلمها أكثر أن والديها قاما بنفيها إلى كوكب آخر حتى لا تكون حياتهما الأبدية في خطر.



كونك خالدةً يلوّث أرواح البشر، وعندما كانت الأبدية هي ما سيضيع، وليست حياة قصيرة، فقد تخلّى معظم الناس عن كل قيمهم من أجل البقاء على قيد الحياة، ألم يكن بإمكانها إنقاذ طفل أو اثنين من الأطفال الذين كانوا ينتظرون الغرق، وهم عاجزون، في تلك اللحظات التي سبقت غمرهم بالمياه عندما تحطّم المكوك الذي هبطوا عليه في البحر؟ ألم تكن تستطيع أن تجرب ذلك على الأقل؟ لم تفكر في الأمر في ذلك اليوم، حيث كان محفوراً في ذهنها أن حماية حياتها وأبديتها كانت أهم قيمة أساسية من حيث أتت، وكلما عاشت بين البشر الفانين، وكلما أحبّتهم أكثر، كلما كان الكوكب الذي وُلِدَت فيه أكثر قُبْحًا في نظرها، والمولويّون أصدقاؤها الأعزاء، الذين خاطروا بالموت بدلاً من خيانتها، والحارس حسني، الذي خاطر بحياته بسبب حُبّه لها، وخليل إيفي ورجاله، الذين حملوا أرواحهم على كفوفهم لوضع حد لاستبداد حاكم السنجق، والفتى بختيار الذي يسير بجانبها- كانوا جميعاً أناساً جميلي الوجوه... وقد عمل العلماء في كوكبها على أن يكون البشر لديهم وجوه خالية من العيوب، وأن تستمر الوجوه إلى الأبد، ولكنهم طوال هذا الوقت لم يتمكّنوا من منع الروح البشرية من التعفّن.

كلّما فكّرت في هذا، بدأ ثَقَلُ مُرْهَقُ يتشكّل في ذهنها، وشعرت بضغطٍ بين حاجبيها، وشَدُّ خَدَّها الأيمن مثل جلد الطبل، وارتعشت إحدى عينيها، ثم ارتجفت كلاهما، وسال العَرَقُ الشديد البارد على صدغها، لقد كان هذا شعوراً غريباً جداً، ولم تستطع فهم ما كانت تمرُّ به، كان الأمر كما لو أن كل طاقتها قد استنزفت من جسدها، لم تستطع المشي أكثر من ذلك، وتجمّدت مكانها، وارتجف جناحا أنفها بشكل لا إرادي، وتسارع تنفّسها، وارتفعت حشجة لا يمكن السيطرة عليها من حلقها، وانقبضت اليد التي تمسك بأصابع بختيار الصغيرة، كما لو كان شخص ما يضغط على طرف حاجبه الأيسر بمسمار حاد،

وتغلغل رأسه ببطء في جسدها، كانت تتألم، ووضعت يدها الحرة على وجهها، لكن لم يكن هناك مسمار أو أي شيء آخر يمسك به، لم يسبق لها أن عانت من مثل هذا الألم من قبل لا على الكوكب الذي وُلِدَتْ فيه، ولا على الأرض.

وسرعان ما اختفى الشعور بالمسمار، وحلَّ محلُّه ألمٌ يساوي ألم سكين يحفر ما بين عينيها، كانت اليد الخفية التي تحمل السكين قاسية، تُمزّق جسدها بكل قوتها، ولم تتوقَّف للحظة، صرخت، وسقطت على ركبتيها، وبدأت تلکم ثدييها، وتخدش خديها، كانت على استعداد للموت لإنهاء هذا التعذيب الرهيب، كان الأمر كما لو أن الطفل البريء بالداخل كان يشعر، بل ويشاركها الألم، ويكافح بجسده الصغير، ويركلها في بطنها، في تلك اللحظة، أصيبت بالذعر من أجل طفلها، أكثر من نفسها، ولم تستطع تحمُّل حدوث أي شيء له، وصرخت بيأس: «كفى! ليساعدني الله! ليساعدني الله!».

في تلك اللحظة عانقها بختيار بشدة، وصرخ في أذنها بكل قوته.

«هذه الأشياء ليست حقيقية! أنت لا تواجهين هذا الآن! انظري إليَّ يا حبيبتي، فقط، انظري إليَّ!».

صوت الذَّكر الكامل الذي يتردَّد في أذنها لم يكن صوتَ بختيار، لقد كان ناضجًا وقويًّا جدًّا بحيث لا ينتمي لطفل، لقد كان صوتًا مألوفًا، لكن عائشة لم تستطع تحديد هويته، لم يَخَفْ الألم، لكن على الأقل لم يَعدْ يزداد، لقد تأوَّهت، قائلة: «ليوقف شخصٌ ما هذا السكين، أرجوك ليخرجه أحدٌ من عيني...».

صاح الصوت مرَّةً أخرى، قائلاً: «أعطيني انتباهك الكامل، يا حبي! ليس عليك أن تعاني من هذا الألم، فقط معاناي تنتقل إليك، أنتِ لست مريضةً، أنا المريض! افتحي عينيك، وانظري إليَّ، وتدَّكري ما مرَّرتِ به!».

أدارت عائشة رأسها بصعوبة، ونظرت إلى الشخص الذي كان يعانق كتفها، لم يَعُدْ بختیار هو الذي بجانبها، لم يكن وسيماً، لكنه كان رجلاً في الثلاثينيات من عمره، بلامح قوية، وعيون مطمئنة، مألوفة لديها، رغم أنها لا تتذكر اسمه، كان ينظر إليها برأفة وحب، وكان هناك أيضاً ندم وقلق في عينيه في نفس الوقت، وكلما يختفي الدفء في عيني الرجل، ينمو في قلبها، وكلما يتردد صوته في ذهنها، كان الألم الشديد بين حاجبيها يَقلُّ، اختفت الطعنات الخيالية للسكاكين، وانحسر ألمها إلى درجة مسمار مضغوط في وجهها.

سألها الرجل، قائلاً: «هل عَرَفْتَنِي؟»، بينما كانت الفتاة تنظر إليه بعيون مندهشة، «هل يُمكنُكَ تَذَكُّر اسمي؟ هل تتذكرين كمال؟ هل يجب أن أناديكِ باسم نيشه أم عائشة؟ أي اسم تفضلين؟».

تمتت عائشة وهي تحاول جمع أفكارها «كمال...»، وعندما أدركت بُعد اللحظة عن الواقع، هداً الصداق تدريجياً، واختفى أخيراً تماماً، ووقفت هناك لبضع ثوان، وكانت تتنَفَّس بصعوبة، وتمسح العرق الذي غطَّى وجهها بكفَّيها، لن تريد أبداً أن تعاني من مثل هذا العذاب مرة أخرى، ثم تحرَّرت من ذراعَي الشاب، وابتعدت، ووقَّفت، ونظرت إليه باهتمام، قائلة:

«كمال... هل هذا أنت حقاً؟ ما الذي يجري هنا؟ أين نحن؟».

قال كمال: «نحن في ذكرياتك يا نيشه، في ذكرياتك وأحلامك، في الواقع، لقد اختلطت بعض ذكرياتي مع بعض ذكرياتك أيضاً، يُهَيِّمِن الصداق العنقودي على عقلي الباطن، وعندما اتَّحدت عقولنا، تسَلَّل هذا المرض الرهيب إلى ذكرياتك أيضاً، لقد اختلط بالأحداث الموجودة في ماضيك عن غير قصد، ونأى بها عن الأحوال التي عاصرتها في الحقيقة، لقد كانت جزءاً من ذكرياتكِ أيضاً... ومع ذلك، فإن كل ما مررنا به معاً، يُعَدُّ انعكاساً لما مَرَرْتَ به، إلى حَدِّ كبير».

تذكّرت الفتاة كل شيء لحظة أن خاطبها كمال باسم نيشه، لقد تذكّرت كل ما حدث، انفجار الباب أثناء الدردشة معه، في أحد المنازل السريّة لحركة المساواة في اسطنبول، وبعد ذلك أظلم العالم كله... نصف مستيقظة، ونصف فاقدة للوعي، ونقلها في سيارة «بر جويّة» ضخمة، بين ذراعَي «إيه آر» روبوت الأمن... فاقدة الوعي تمامًا بعد الحقن في ذراعيها... كل هذا حدث بعد أن طلب كمال لقاءً للتحدّث معها، وقامت بإحكام قبضتيها، في محاولة لاحتواء غضبها.

قالت نيشه: «لقد أبلغتني! هل قُمتَ ببيع حركة المساواة في اسطنبول؟ هل تعمل لصالح جمهورية المدينة؟ لا أستطيع أن أصدّق ذلك... أنا حقًا لا أستطيع أن أصدّق ذلك... لقد وثّقتُ بك من كل قلبي! لماذا أنت في عقلي يا كمال، ماذا تفعل بي؟».

هزّ كمال رأسه، قائلاً: «لا أبدًا! لن أخونك أبدًا، يا نيشه، أنا أحبك أكثر من أي شخص! لقد قمتُ بتخديري قبل إحضاري إلى ذلك المنزل السري، أتذكّرين؟ لم أكن أعرف حتى أين كنّا، لقد وقّعتُ في شركٍ، لقد خدعوني، أنت تعرفين مرضي، كنتُ أتألم كثيرًا، هؤلاء الأوغاد استغلّوا ضعفي... لقد وثّقتُ بهم على أمل أن يتمكنوا من علاجي، أردتُ أن أثق بهم، لقد اتّبعتُني عندما كنتُ قادمًا لمقابلتك، وبهذه الطريقة عرفوا مكانك... إذا كنتُ قد فهمت نواياهم، لما اقتربتُ منهم أبدًا».

«حسنًا، ولكن ماذا يريدون مني؟ هل يريدون معرفة مخابئي قادة حركة المساواة في اسطنبول؟ لن أخبرهم بذلك أبدًا!..».

أومأت الفتاة الصغيرة برأسها كما لو أنها فهمت فجأة ما يجري.

وقالت: «أوه، بالطبع... إنهم يعرفون أيضًا أنني لن أتجنّس، لهذا السبب وضعوك في ذهني كجاسوس، من أجل البحث عن المعلومات في ذكرياتي! لقد تحمّلوا المشاق من أجل لا شيء! يُغيّر قادة حركة

المساواة في اسطنبول الأماكِنَ باستمرار، في حالة القبض على أحدنا يومًا ما، لا أحد منّا يعرف أماكن اختباء الآخرين، ذكرياتي عديمة الفائدة لهم».

تنهّد كمال بعمق، قائلاً: «لا يا عزيزتي، مشكلتهم ليست حركة المساواة، ما يريدونه منك هو شيء آخر، إنهم يسعون وراء سرٍّ أكبر بكثير، هم يعرفون مَنْ أنتِ، وأَنْكِ خالدة، وأَنْكِ لا تشيخين أبدًا، وستبقين في هذا العصر إلى الأبد، إنهم يحاولون فهم كيف يكون ذلك ممكنًا، أخبرْتُكِ عن السيدة جول، المرأة الغنية التي كلَّفَتني بهذه المهمة، إنها تعمل لصالح أهم رجال الأعمال وأصحاب الشركات في جمهورية اسطنبول وجمهوريات المدن الأخرى، وتنتج طرق علاج جديدة، وعقاقير مضادة للشيخوخة لا يعرف الجمهور حتى بوجودها، لكنهم لم يتمكّنوا من إيقاف الوقت للبشر تمامًا، ولم يتمكّنوا حتى من الاقتراب من ذلك، امرأة أتت إليهم قبل عدّة أشهر، وأخبرتهم أن زوجها يعاني من مرض غريب، وأنه كان يتقدّم في العمر ببطء شديد، وأن ذلك أخافها، وفي الاختبارات التي أجروها على الرجل، أدركوا أن هذا كان صحيحًا، لكنهم لم يتمكّنوا من العثور على مصدر هذه الميزة غير العادية، ولم يعرفوا أين يبحثون».

تنهّد كمال بعمق، ولم يستطع التنبؤ بردّ فعل المرأة التي أحبّها لما سيقوله بعد ذلك، لكن من المؤكّد أنها كانت سوف تتضايق.

وأضاف قائلاً: «خلال الاختبارات، دخلوا أيضًا في عقل الرّجل وعلموا أنه ورث هذه الصفة من والدته، لقد تتبّعوا نَسَبَكَ ووصلوا إليك، هي من نَسَلِكَ يا نيشه... ربما تكون من نسل طفلٍ أو حفيد فقَدته، لا أستطيع أن أعرف، عندما مات الرجل الذي استخدموه كفار التجارب، قتلوا زوجته، التي قالت إنه ستقاضيهم، وقتلوا طفله، الذي شهد كل شيء، وأحرقوا جميع الجُثث حتى لا تُفهم الاختبارات التي

أجروها، وعندما علموا أنَّكِ تحت حماية حركة المساواة في اسطنبول، ولكِ علاقة بي، وضعوا خطةً جديدةً».

انخفض صوت كمال، وضعف، كان الأمر كما لو كان يستعيد الأحداث التي وصفها، وشعر بألم شديد بسببها.

وقال: «عندما أحضرونا إلى هنا، أيقظوني أولاً، لقد شرحوا كل هذا، وقالوا إنهم سيطبقون نفس الإجراءات عليكِ، وأن الاختبارات التي سيجرونها ستقتلك أيضاً على الأرجح، ويجب أن يعرفوا مكان البحث؛ حتى يتمكنوا من نسخ هذه الميزة دون إلحاق الأذى بكِ، أخبروني أن اخترق عقلك، وأن أجمع معلومات من ذكرياتك، إذا كنت أرغب في إنقاذ حياتك، إنهم يريدون معرفة ما إذا كنتِ خالدة منذ ولادتك، وهل تعرّضتِ لمادة كيميائية، هل أنتِ نتاج تجربة، هل تستخدمين دواءً خاصاً، ليس لديهم فكرة أنك من كوكب آخر!».

تمت عائشة، قائلة: «هل هي سلاتي؟»، واندفعت عيناها نحو الأشجار الخيالية البعيدة، وكأنها تنظر إلى شخص هناك لا يستطيع كمال رؤيته، كانت تشعر ببركلات طفل في بطنها لم يُعد هناك، كان هناك ألم في بطنها، تومض في عقلها الصور المذهولة للرجل والمرأة والطفل، الذين كانت أجسادهم محترقة تماماً، والتي أخبرها كمال عنها.

وقالت: «واحد من دمي، روعي... يا لها من فظائع... لم أعرفه هو وعائلته، لو كنتُ أعرفه، لكنّك عرفتُ ما حدث لهم، لقد أنجبتُ العديد من الأطفال، وأبناؤهم وبناتهم في حياتي منذ ما يقرب من ألف عام... كانت اللحظات التي حملتُ فيها أطفالي بين ذراعي للمرة الأولى أفضل لحظات حياتي، ولم يمنحني أيُّ شيء آخر تلك السعادة، أظُلُّ على اتصال بمعظمهم، وأحميهم بقدر ما أستطيع، ولكن كان هناك أيضاً مَنْ انفصل عني، كانوا يرون أن الصفات الخارقة التي ورثوها

تُعَدُّ نوعًا من اللعنة، ومرضًا سيئًا، لم يكن أيُّ منهم خالِدًا مثلي، ومع ذلك فهم يتقدّمون في العمر بشكل أبطأ بكثير من الأشخاص العاديين، وبعضهم يعيش مئات السنين، غالبًا ما يضطّرون إلى ترك أحبائهم وبدء حياة جديدة بهوية مختلفة حتى لا يَتِمَّ الكشف عن أسرارهم، كان من الصعب على البعض أن يعيش مثل هذه الحياة، لقد ألقوا باللوم عليّ، بسبب هذا العبء الذي ألقيته على أكتافهم... لا بُدَّ أنه من نسل أحد الأشخاص الذين فقدت أثرهم».

هزَّ كمال رأسه، قائلاً: «أنا آسف للغاية»، وأراد أن يمدَّ يده إلى نيشه ويعانقها ليخفّف عنها، لكنه كبّح جماح نفسه، وبعد صمت قصير وحزين تابع قصته، قائلاً:

«لم أصدّق ما قالته السيدة جول منذ البداية، لقد وجدته هذيانًا، أن لديك صفات خارقة، وأنتِ لا تكبرين على الإطلاق، بدا لي وكأنه قصة خيالية، أنا أعرف نيشه، وقلت لها إن ما تقوله كان سخيفًا، لم يكن لديّ أي خيار، وفعلتُ ما طلبوه مني، لم أستطع تحمّل إيدائهم لكِ، الآن أعرف مَنْ أنتِ، وماذا يمكنك أن تفعلين، وجين آريتان، أحيانًا كنتُ سليمان باشا، وأحيانًا الحارس حسني، وأحيانًا كنتُ أراك من خلال عيون أصدقائك المولويين، وأحيانًا بختيار الصغير... وسافرتُ معكِ في تلك المركبة الفضائية، وأصبحتُ إيفا، وشاهدتُ النجوم بجوارك، إذا استمعتُ إلى قصتك فقط، فربما لن أصدّقها، لكنني عشتُ معكِ كل ثانية! لقد عوّضتُ ما كان ينقص في ذكرياتكِ بما قرأته وشاهدته عن تلك الفترة، وعندما رأيت الصداق العنقودي يختلط بذكرياتكِ، ويصل إليك أخيرًا، لم أستطع المضيّ قُدّمًا، ولم أستطع التوقّف عن فعل أي شيء لأنني شاهدتكِ تعانين، لقد علمتُ بالفعل ما أحتاج إلى معرفته!».

بَكَتْ عائشة بخوف، قائلة: «لا يمكنك إخبارهم بهذا!»، يجب علينا حماية هذا السرّ منهم! كان هناك سبب لكوني عشتُ مع منظمات سرية طوال حياتي... من عصابة خليل إيفي إلى حركة المساواة، كنتُ دائماً جزءاً من المجتمعات السرية في كل فترة من التاريخ، في البداية كان الأمر أكثر لحماية نفسي، لكنني أصبحتُ أكافح من أجل أحلام أخرى لفترة طويلة! لجعل العالم أكثر ملائمة للعيش، ولمنع تكرار الأخطاء التي كانت موجودة من حيث أتيتُ، هنا! لقد ساعدتهم بقوتي، وأصبحوا حلفاء لي في هذه الحرب التي كان عليّ خوضها، محاولة إنقاذ هذا الكوكب تجعلني أتحمل الأبدية!

ألم ترَ من أين أتيتُ يا كمال مُتَنَكِّراً بزيّ بختيار؟ ألم تشهد الوحدة واليأس هناك بألم عينيك؟ تعرّفتُ على جمال ورائحة وسعادة الطفل عندما أتيتُ إلى هنا فقط، هل تريد عالماً لا يوجد فيه ابتسامة طفل، ولا تذوق هذه السعادة؟ عالماً لا يشيخ فيه أحد، ويوجد فيه نفس الأشخاص إلى الأبد؟ من أجل حماية حياتهم الأبدية، لم يتمرد أحد على أي قسوة... وفقدت كل المشاعر معناها بمرور الوقت... هل يمكنك أن تتغاضى عن حدوث هذه الأشياء؟ يا له من نظام استبداديّ نعيش فيه الآن، هل يمكنك تحمّل فكرة أن هذا لن يتغير أبداً؟ على مرّ التاريخ، رأيتُ فظائع عظيمة، لقد شاهدتُ القويّ يضطهد الضعيف بوحشية، إبان الثورة الفرنسية حفرتُ الخنادق مع الناس في باريس، وكنتُ في صفوف القوى القومية في حرب الاستقلال، وجاء اليوم الذي أنقذتُ فيه مئات السوريين من المذبحة، كل أولئك الذين ارتكبوا هذه الفظائع هُزموا بمرور الوقت، والأجيال الجديدة صحّحت أخطاءهم، وطهّرت العالم من الكراهية، حتى تلوّث مرة أخرى، إذا تمّ إصلاح العالم كما هو اليوم، وإذا أصبح الظالمون اليوم خالدين، فلن يكون هناك أمل للبشرية».

هزّت عائشة رأسها بقوة، وقالت:



«لا أستطيع فعلَ هذا، إذا كانوا سيقتلونني إذا لم أفعل، فقد عشتُ بالفعل لفترة طويلة، لا ترضى بهذا أيضًا يا كمال، لا تُخبرهم بسرِّي، لقد وقعتُ حقًّا في حب عددٍ قليل جدًا من الأشخاص على مرَّ القرون، أنتَ واحدٌ منهم... لقد أخرجتك من حركة المساواة في اسطنبول لأن مشاعرنا تجاه بعضنا البعض كانت تؤذي كفاحي، وكانت تجعلني ضعيفة، لكن في داخلي كنتُ أحبُّكَ دائمًا، اشتقتُ إليك عندما كنتُ بعيدًا، الآن لا تجعلني أخسر المعركة التي خُضْتُها طوال حياتي!».

سقط كمال على ركبتيه في حالة من اليأس، لم يكن لديه خيار سوى قبول ما سيحدث، بعد كلمات المرأة التي أحبتها، ولم يخبرها أن السيدة جول وعدَّت ليس فقط بإنقاذ حياة نيشه مقابل هذه الأسرار، بل إنها ستجري أيضًا عملية جراحية لإنقاذه من الصداق العنقودي، وعلى الرغم من أنه سيتحمَّل ألمًا غير مسبوق لبقية حياته، إلا أنه لم يستطع أن يخذل نيشه، كانت الشابةُ مُحِقَّةً فيما قالت، لم يستطع فعل ذلك للعالم، كان بإمكانه أن يتحمَّل كل أنواع المعاناة، لكنه لا يستطيع أن يتعايش مع الكراهية تجاه الشخص الذي سيراه عندما ينظر في المرأة.

قال بحزم: «حسنًا، فليكن كما قُلْتِ... أنا دائمًا بجانبك، وفي هذه الحالة اسمحي لي أن أبقى في ذهنك حتى اللحظة الأخيرة، مهما كانت الاختبارات التي سيُجرونها لك، فلنتعرَّض لها معًا، سوف يضرُّونك، وسوف يؤذونك، من الصعب أن تجدي شخصًا في هذا العالم يعرف الألم مثلي، واعتاد عليه مثلي، إذا كنتُ بجانبك، فسأساعدك على التحمُّل حتى آخر لحظة، ما سأخسره هو فقط عُمرُ فانٍ، معظمه مليء بالمعاناة... فهل أنتِ مستعدة لتفقدَي الأبدية؟».

ابْتَسَمَتْ عائشة بامتنان، قائلة: «لقد كنتُ مُستعدَّةً لهذا منذ فترة طويلة»، ومشّت بجانب كمال، وأخذت يديه بين يديها، وقالت: «أنت الشخص الوحيد الذي أريد قضاء لحظاتي الأخيرة معه، وكنتُ دائماً كذلك».

لم يصدّق كمال ما سمعه، لكنه كان يرغب في تصديقه، بشدّة، ونظر إليها بكثير من المشاعر المختلفة، التي تتصارع مع بعضها البعض، وقال:

«اعتقدتُ أنكِ كنتِ في حالة حب مع أحد قادة المساواة في اسطنبول، هذا ما قلّته لي... وأردتِ مني أن نفرق...».

تنهَّدت عائشة، وعيناها تتألّقان بالحب، قائلة: «كنتُ بحاجة إلى عُذرٍ لإبعادك عني، لكنني سعيدة لأنك معي الآن، في ذلك اليوم لم يكن لديّ الشجاعة لكشف أسراري لك، واعتقدتُ أنه إذا عرفت الحقيقة عني، فسوف تخاف مني، ولن تبقى معي، كان هناك حتى بعض أطفال الذين لم يتمكّنوا من حملها، لكن الآن أنت تعرف، وما زلت معي... لم أعد خائفة».

وذهبت، وقبّلت شفتي كمال قبلةً طويلة، في هذه اللحظة عندما انتهى كفاحها الذي دام قرونًا، منحها ذلك اطمئنانًا لكي تستطيع أن تُعبّر عمّا بداخلها بحرّيّة.

بعد بضع ثوانٍ، اهتزّت الأرض كما لو كان هناك زلزال، ومالت الأشجار حتى كادت أن تلمس الأرض، وارتفعت مرة أخرى، وتحوّلت الغيوم إلى اللون الأحمر، وأصبحت السماء ضبابيّة، وثارت ضوضاء كبيرة في المكان حولهما، كما لو كان جَبَلٌ يتساقط، وفقد كمال وعائشة توازنهما، وسقطا على الأرض، وعانق كل منهما الآخر بقوة حتى لا يتمّ إلقاؤهما في أماكن مختلفة.

كانت الهزة الثانية قوية بمقدار ضعف الهزة الأولى على الأقل، وعندما هدأت هذه المرة، لم يَعد هناك المزيد من الأشجار حولهما، لم يكونا في غابة، كانا على متن مكوك على شكل قلم كان يغرق في البحر، وكانت الأمواج تلحق أقدامهما، وكانا يشعرون بالبرد القارس للمياه، كان المكوك يغرق في القاع لحظة بلحظة، وكانت شاهميران، التي انتشرت أشرعتها من بعيد، تقترب، وهيمانالي سليمان باشا يقف في مقدمة السفينة الرائعة، وينظر إليهما بمنظاره.

أخذتهم الهزة الثالثة إلى اللحظة التي انفصلت فيها باز194 عن والدها، وشعرت عائشة بألم عميق في قلبها، وهي تراقب شبابها يبكي بلا حول ولا قوة، ويهرب إلى المكوك، واستعادت المخاوف والحزن اللذين ملأ قلبها في ذلك اليوم، لقد أرادت الفتاة أن تلتفت، وتلقي نظرة أخيرة على والدها، لتحصل على لحظة أخرى لا تُنسى في الحياة، وصرخت بكل قوتها لتفعل ذلك، ولكن الفتاة لم تُدر رأسها، كان الباب مُغلَقًا خلفها.

بعد الهزّة الرابعة، وجَدَا نفسيهما في الغابة، في حالة ضجيج، كان خليل إيفي ورجاله يتقاتلون مع الفرسان المحيطين بهم، وكانت السيوف تضرب الدروع، والمسدسات تنفجر بصوت عالٍ، والصيحات تُلقى، وكانت أشلاء الجسم المملطّخة بالدماء تتطاير في الهواء، وأخطأت رصاصة هدفها، ومَرَّت عبر كمال مثل شبح، واستقرّت في الشجرة الموجودة خلفه، وفحص كمال معدته، ولم يشعر بأي ألم.

وحدثت الهزّة الخامسة عندما أقلع المكوك الذي عادا إليه، وعندما هدأت الأمور، هذه المرة، فتحا أعينهما على ملاءات بيضاء، داخل قفص زجاجي على شكل قُبّة، كانا مستلقين على أَسِرّة تشبه المحفّات، ويرتديان عباءات المستشفى البيضاء مثل أغطية الأسرة، وكانا حافييّ القدمين، وكأنهما على وشك أن يخضعا لعملية جراحية، تمّ

توصيل الأسلاك الصفراء والسوداء التي تخرج من الأجهزة الإلكترونية  
الموضوعة على جباههم، بجهاز كمبيوتر كبير موجود بين أسرّتهم،  
وفوق القُبّة، علّقت كاميرا ضخمة، وتمّ توجيه عدستها إليهما.

سَمَعَ دوي انفجار، واهتزّت القبة الزجاجية مرة أخرى، وفُتِح ثَقْبٌ  
كبير في أحد جوانب القُبّة، وتناثرت قطع الزجاج في كل الاتجاهات،  
دخل روبوت إليه آر 18 أولاً بنظراته الحادة، وكان قد حفر وجه إنسان  
على وجهه، وبالنظر إلى شظايا الزجاج الموجودة عليه، وإلى قبضته  
المشدودة، كان هو الذي ثقب الجدار، ثم ظهرت أوقيانوس، بشكل  
مختلف كثيراً عن مظهرها المعتاد، مرتديّة زِيٍّ بدلة تمويه يشبه الزي  
الموحد، وقناع غاز يهتزّ حول رقبتها، وكان هناك تعبير قَلِقٌ على  
وجهها، وأخذت نفساً عميقاً عندما رأت أن كمال والمرأة التي بجانبه،  
اللذين كانا يحاولان النهوض من حيث كانا مستلقيين، في حيرة،  
ويحاولان تفكيك الأجهزة الإلكترونية الموجودة في رأسيهما، بخير.

وقالت وهي تضع يديها على خصرها، «ألم أخبرك يا سيد كمال،  
لا يمكنك العيش بدوني!»، وهزّت رأسها من الأمام والخلف بشكلٍ  
ساخر.

«هذه المرة، لن تذهب إلى الجانب الآخر بمُفَرِّدِكَ! لا أعرف مَنْ  
هذه الفتاة الجميلة، لكنّ كليكما مَدينٌ لي بحياته، لا تقلق، سأمنحك  
خصماً جماعياً على هذا! لكن إجباري على مغادرة بيتي الجميل  
سيكون مُكَلِّفاً!».



## 21

توقّف كمال ووضع رأسه في يديه، بينما كان يمسح العلامات المعدنية على وجهه بقطعة قماش مُبلّلة، وأغمض عينيه، وفرك صدغيه بأطراف أصابعه، بلطفٍ، لم يكن قد تجاوز بُعد الرحلة التي قام بها في ذهن نيشه، وإرهاق التحوّل من شخصية لأخرى، لقد كان شيئاً مُرهقاً أن يعيش تجربة الحب العاطفي لسليمان باشا، وعدم اكتمال الحارس حسني، والمفاجأة الطفولية لبختيار، والعديد من التجارب المختلفة واحدة تلو الأخرى، أمام عينيه، بدّت الأشرطة التي هبّت عليها الرياح في سفينة عثمانية متشابكة مع سفينة فضاء أنيقة تقلع من كوكب آخر، وصدمه بشكل كبير ماضي المرأة التي أعطاهها قلبه، وما علمه عن الكون، من ناحية تمّ سحّقه بسبب ثقل الأسرار التي شهدها، ومن ناحية أخرى كان في أقصى درجات السعادة بابتهاج معرفة أن نيشه أحبّته، بعد سنواتٍ من الشوق، نظرة الشابة إليه بحُبٍّ وهي تستعد لمواجهة الموت، تغلّبت على كل شيء آخر، وجعلته

ينسى كل المعاناة، وأصبحت الحقيقة الوحيدة في الكون، وبعد بضع دقائق، تلاشى عقله تدريجياً، وتمكّن من التركيز على الوقت والمكان الذي كان فيه.

كانت الأماكن التي أدخلوا فيها الأسلاك في جبهته وأصداغه حمراء ومتورّمة، وكان يشعر بآلام خفيفة، لم يكن معه سوى أوقيانوس ومراد، قبل أن يفيق من الإغماء، قفزت نيشه من السرير بغضب، وخرجت من القُبّة، لكنها في البداية قبّلتها طويلاً على شفّيته، وقالت إنها ستعود وتنتظر هنا، وعندما تذكّر اللحظات الأخيرة التي عاشوها في الكون الافتراضي المولود من ذكرياتهما، نما الغضب بداخله، لقد كان أن يفقد المرأة التي كان يحبها، وشاهدها تموت تحت التعذيب أمام عينيه، حتى لقد كان التفكير في ذلك أمراً لا يطاق.

التفت إلى الفتاة التي تقف بجانبه بامتنان، وسألها، قائلاً: «كيف جيئتِ إلى هنا؟ بحقّ الله كيف وجدتيّنا؟».

ابتسمت أوقيانوس قائلة: «لم يكن الأمر سهلاً»، ورفعت ذراعها الروبوتية، وأشارت إلى مقاتلي حركة المساواة في اسطنبول الذين يقفون في حراسة بعيدة، «لقد اهتمّوا هم بالجزء الصعب، عندما فحصت الإبرة التي تركتها لي، لاحظت وجود روبوتات دقيقة في السائل الموجود بالداخل، كانت صغيرة جداً لدرجة أن خبير الذكاء الاصطناعي العادي يمكنه أن يغفل عنها بسهولة، لقد كان كل منها عملاً فنيّاً، لكنك تعلم، أنا أعرف الروبوتات أفضل من البشر! في البداية، اعتقدتُ أن سرّ الدواء هو هؤلاء الأوغاد، وقلتُ لا بُدَّ أنهم يمنعون الألم، لكن ما رأيك فيّ عندما قمتُ بملاحظة سلوكهم؟ يتمّ تنشيط هؤلاء المتشرّدين الصغار بواسطة دم الإنسان، ويرسلون إشارات إلى أماكن مُعيّنة! وإذا قلتُ ذلك بلُغةٍ واضحة! فأنت تحقن نفسك بجهاز مراقبة، مع الدواء».

تجهّم كمال، قائلاً: «السيدة جول...». كان قلبه مليئًا بالاستياء.

«كانت تعلم أنني سأدمن هذه الإبر، لقد استخدمت ياسي، الحقيبة... هذا يعني أنها كانت قادرة على رؤية مكاني، عندما تجمّعت هذه الأشياء المزعجة في دمي، لقد فتّشني مُسلّحو حركة المساواة في اسطنبول بالأجهزة التي تكشف عن المرسلات، فكيف لم يلاحظوا ذلك؟».

جلّست أوقيانوس بجانب الرجل، ووضعت يدها على كتفه، ونظرت إلى الكمبيوتر الذي كان كمال وينشه متّصلين به في وقت سابق بفضول واهتمام، لقد كانت أعجوبة تكنولوجية كاملة، كانت ترغب في أن تفتحها وتفحصها قبل أن تغادر هذا المكان، كانت هذه المنشأة بمثابة مُتَنَزّه ترفيهي لأوقيانوس، ولكن مع وجود الكثير من الأشخاص الذين يتجوّلون حولها، شعرت بمزيد من الاطمئنان داخل القُبّة، في الأيام القليلة الماضية، تعاملت مع غرباء أكثر ممّا التقت بهم في حياتها، ولم تُعد قادرة على تحمّل المزيد.

وقالت: «السيدة جول هذه امرأة مثل الجن! فهذه الروبوتات التي تتجوّل في دمك لا يمكن اكتشافها بالأجهزة التي نعرفها، إنها تتحرّك باستمرار، ولا ترسل إشارات باستمرار، وتغلق نفسها مؤقتًا عندما يكتشف جهاز الإرسال إشارة جهاز الاتصال، نحن نتحدث عن ذكاء اصطناعي ماهر مُبرمج للعب الغُمِيضة هنا! بالطبع، كانت صديقتك الذكية سريعة في شَمّ رائحة فخّ في هذا! بعد الاختطاف، قمّت بنقل الخبر إلى بعض الناس في المدينة، ممّن يدينون لي بالمال، وبفضل مُهرّبٍ يمارس الأعمال التجارية في جميع أنحاء اسطنبول، اتّصلت بحركة المساواة في اسطنبول، وأخبرتهم عن هذه الروبوتات الدقيقة، وهم وجدوا طريقة لالتقاط الإشارات المنبعثة من اللعنات المنتشرة في دمك، لسنوات، تمكّنوا من الاختباء من جميع الجواسيس



التقنيين، ورجال شرطة الذكاء الاصطناعي في جمهورية المدينة، ولديهم خبراء تقنيون رائعون».

ضحك كمال، قائلاً: «لا يوجد أفضل منك... أنا لا أصدق ذلك».

قالت أوقيانوس: «لا أريد أن أفسد خيالاتك، يا عزيزي، لكن هناك أفضل مني، هؤلاء الرجال كانوا يقاتلون دولة بأكملها لسنوات، إنهم لا يعملون في مستودع بمؤخرة مكسورة مثلي!».

هزَّ كمال رأسه، قائلاً: «أنتِ دائماً رقم واحد بالنسبة لي... من جميع النواحي!».

يمكنه أن يتخيل المِحن التي تحمَلَتْها أوقيانوس، التي لا تحب التحدُّث إلى الغرباء عادة، ولا تغادر منزلها أبداً، للعثور عليه، لا بُدَّ أن التحدُّث باستمرار إلى شخص ما وإخباره بمتاعبها، كان بالنسبة لديها أصعب من شَنْ هجوم مسلح على هذا المركز، وأراد أن يعانق الفتاة بقوة، لكنه كبَح جماح نفسه، مدرِّكاً أنه كان يتحوَّل إلى سمكة خرجت من الماء في مثل هذه الإيماءات العاطفية.

وعندما لاحظ أن إيه آر 18 كان يصغي باهتمام لهما، التفت إلى الروبوت وابتسم، قائلاً:

«لا يوجد غيره، أنت أروع الروبوتات! عندما أعود إلى المنزل، سأشتري لك أفضل زيتٍ آليٍّ عالي الجودة كهدية، ومع ذلك أنا مدين بحياتي لكليكما!».

ردُّ مراد بإيماءة متواضعة لهذه الجُمْل، والتي افترض نظام التشغيل أنها نوع من الشُّكر له، ثم رفع ذراعه الفولاذية المقوَّاة، ووضع يده على صدره، ونطق بالكلمة التي سجَلَتْها أوقيانوس في ذاكرته الشهر الماضي.

«شكراً».

قالت أوقيانوس: «هرعنا إليك بعد تحديد موقعك، بصراحة، لقد جاؤوا في الواقع من أجل نيشه، لم يهتموا بك كثيرًا؛ لهذا السبب تابعتهم مع مراد، لقد ألححت عليهم من أجل هذا، ووافقوا أخيرًا، كان يجب على شخص ما أن ينقذك أيضًا!».

قال الشاب بصدق: «ديوني لك تتزايد، إذا لم تصلي في الوقت المحدد، ربما لم نكن لنخرج من هنا أحياء، لم يكن لدى السيدة جول خططٌ جيّدة جدًا لنا...».

غمزت أوقيانوس، قائلة: «سأضيف ذلك إلى حسابها»، ثم تحولّ التعبير الساخر الموجود على وجهها إلى جدّيّة، وانخفض صوتها، وأصبح هادئًا.

وقالت: «اعتقدت أنني قد فقدتك حقًا هذه المرة، يا كمال، كان ذلك صعبًا جدًا بالنسبة لي، لقد اعتقدت أنه لم يتبقَّ أحد في العالم، يمكنني التحدّث إليه دون أن يتضايق قلبي، كأنني عشت تلك النار التي فقدت فيها عائلتي، مرّة أخرى، لم أكن أعرف ماذا أفعل عندما رأيته مُستلقيًا داخل القُبّة الزجاجية بلا حراك، قبل قليل، كنتُ خائفة جدًا».

مدّ الشاب يده، وداعب شعر أوقيانوس برقّة، هشاشة الفتاة التي قضت طفولتها بأكملها بعيدًا عن الناس، بين أربعة جدران، تحوّلت إلى وجعٍ في قلب كمال، تمامًا مثل كل مرة أدرك فيها ذلك.

وقال بصوتٍ مطمئن: «لا تقلقي، انتهى الأمر، أنا معك، وسأبقى معك».

نظر إلى الكاميرا المعلقة من أعلى القُبّة، وعلى الرغم من أنه كان يعلم أنه لم يكن الشخص الذي يشاهد اللقطات التي صوّرها الآن، إلا أنه كان من غير المريح أن يواجههم.

وسأل، وهو في حالة قلقٍ متزايد: «عندما هاجمت حركة المساواة هذا المكان، ألم يتدخل جنود جمهورية مدينة اسطنبول؟ لماذا لم نهرب بعد؟ إنها مسألة وقت فقط قبل أن يأتوا، ويمسكوا بنا...».

سألت أوقيانوس، وهي عابسة، قائلة: «أنت لا تعرف أين نحن، أليس كذلك؟».

أجابها قائلاً: «لا، بصراحة لا أعرف، كنتُ في نوم عميق عندما أحضروني إلى هنا».

فقالت: «أره يا مراد، دَع السَّيد كمال يفهم لماذا لا تمثِّل جمهورية مدينة اسطنبول مشكلة هنا».

أخذ إيه آر 18 خطوتين للأمام ببطء، ومدَّ ذراعه، وخفض الشاشة بالقرب من مرفقه، وقام بتوصيل كاميرا الطائرة بدون طيار، والتي استمرت في المراقبة في السماء، وعكس الصورة على الشاشة.

لم يستطع كمال معرفة ما كان ينظر إليه في البداية، لم يكن هناك سوى سحابة حمراء من الغبار على الشاشة بحجم حفنة صغيرة، ثم لاحظ المبنى الذي يشبه المستودع تحت السحابة، بصعوبة بالغة، لم تكن هناك مبانٍ أو مركبات أخرى في المنطقة المجاورة، يمكن رؤية السيارات «البر جوية» الخاصة بحركة المساواة في اسطنبول، الموضوعة على الأرض فقط، وكان المسلَّحون الذين ساروا بجانب المروحيات يرتدون بدلات واقية، وأقنعة أكسجين من الرأس إلى القدمين، كانت الصورة المشوَّشة تظهر وتختفي.

وقال محاولاً فهم ما يجري: «ما الذي أبحث عنه الآن؟».

وأوضحت أوقيانوس، قائلة: «هذه هي المنطقة الأكثر تضرراً من المفاعل النووي الذي به ثقبٌ في المؤخرة»، وقامت بعمل بالون كبير من اللبان الذي وضعته للتو في فمها، وفجَّرته بصوت عالٍ، وتحول

شعرُها، الذي كان نصفه أشقر، ونصفه أخضر، إلى اللون الأرجواني فجأة.

«أي عاقل لا يقترب من هذه المنطقة إلا إذا كان متعطشًا للموت، السيدة جول في ذروة المرض النفسي، والمنشأة التي بنتها لصحة الناس هي في أكثر الأماكن ضررًا بالصحة...».

«لم تكن المرأة تبالي عندما قالت إنني أهتم بالخصوصية».

كانت أوقيانوس تبصق على الأرض، كما لو أنها تريد مطاردة الشيطان، وكانت متجهمة.

«الطابق العلوي هو مستودع مهجور مُغطى فقط بالنفايات المشعة، ربما لم تكن جمهورية المدينة على علم بوجود مثل هذه المنشأة هنا، الخونة خافوا على أنفسهم، لم يأتوا إلى هنا، يجب ألا تسمح السيدة جول لأي شخص أن يدخل إلى مكانها إطلاقًا، بخلاف رجال الأعمال الأثرياء؛ حتى لا تصدر الدولة اختراعاتها، كانت المرأة المجنونة تؤمن المنشأة برجالها وروبوتاتها».

سأل كمال بفضول، قائلاً: «هل السيدة جول على قيد الحياة؟»، لم يكن متأكدًا من الإجابة التي يريد الحصول عليها، كان هناك حُرَّاسُ شخصيون مُدَرَّعون مُلقين، وهم فاقدون للوعي، وروبوتات الأمن كانت مُحطمة، والجدران مُلطخة بالدماء، ونوافذ المكاتب تحطمت، لكن لم يكن هناك أحد يعرفه.

ردَّت الفتاة، وهي تهزُّ كتفها بطريقة آلية، وهي متذمِّرة، قائلة: «مع الأسف، نعم، تبين أن رجال حركة المساواة في اسطنبول رقيقو القلب. بعد أن جعلوا الحُرَّاس يصابون بالإغماء، لم يلمسوا بقيَّة الموظفين والأطباء والسيدة جول الشهيرة، على حدِّ علمي، فإنهم يستجوبون الآن نيشه صديقتك، إنها امرأة صارمة جدًّا! بمجرد أن

فصلوا الكابلات عن رأسها، قفزت على قدميها بغضب، وقبل أن تستردَّ وعيَّك، كانت المرأة تتحكَّم في كل شيء».

في تلك اللحظة، ظهرت صورة ثلاثية الأبعاد يبلغ طولها أربعة أشخاص في منتصف المنشأة، حيث كان المسلحون يوجهون مسدسات الطاقة الخاصة بهم بشكل لا إرادي في هذا الاتجاه، وعندما أدركوا أنها ليست أكثر من صورة إعلانية ثلاثية الأبعاد إعلانية، اطمأنوا.

ظهرت الصورة المجسَّمة لرجُلٍ وسيم وامرأة جميلة، يرتديان ملابس أنيقة للغاية كما لو كانا ذاهبين إلى ملهى ليلي اجتماعي، كان لباس المرأة الذي يصل إلى الكاحل، وربطة عنق الرجل بنفس درجة اللون الأحمر الغامق، وكانت أعينهما تتألق، وكأنهما يعيشان أسعد لحظة في حياتهما، كان كلاهما يقول جملة، ويترك الآخر يتحدث.

«ألا تريد أن تعيش إلى الأبد؟ هل التقدُّم في السنَّ أمرٌ لا مفرَّ منه؟ هل كل خبرات الحياة القيمة التي تراكمت لديك يجب أن تضيع بموتك؟ ألا تحب أن تعرف أحفاد أولادك، والأجيال القادمة؟ فكَّر في ذلك! كم سيكون رائعًا أن نرى كيف سيكون شكل العالم بعد 1000 عام! لكن ألا يغلب عليك الفضول وتتساءل ماذا سيحدث بعد 10000 سنة؟ تعمل ألباس للخدمات الصحية ليلاً ونهارًا لمساعدتك على تحقيق هذا الحلم، وأكثر من ذلك بكثير، نرحِّب بتبرعاتكم لمشروع جلجامش، دعونا نوحِّد قوانا لقتل الموت!».

اختفت الصورة المجسَّمة فجأة كما جاءت، ربما كان يعمل في ساعات معينة، بهدف رفع الروح المعنوية وتحفيز الباحثين الموجودين في المنشأة، ووفقًا لحديثه عن التبرُّعات والدعم، فقد ناشد العملاء الأثرياء الذين يزورون المنشأة.

تذمَّرت أوقيانوس وهي غاضبة، وقالت: «لا يكفي أن يكون لديك كل ما يريده هؤلاء الأوغاد. الحيوانات تريد الخلود أيضًا».

وبعد التفكير لفترة، زَمْتُ شفيتها، قائلة:

«ومع ذلك، لأَكُنْ صادقة، أودُّ أن أرى ما سيحدث في هذا العالم بعد عشرات الآلاف من السنين من الآن، لا يوجد شيء مُغَرِّ في ذلك... أعني، إذا كان بإمكان الجميع، القيام بذلك، وليس فقط لكي يصبحون أثرياء...».

مدَّ كمال يده، وأمسك بكتفها، وقال بحنان: «رأيتُ بعض الخيارات المستقبلية، وبالنظر إلى ما سوف نتخلَّى عنه للحياة الأبدية، فإنه بالتأكيد لا يستحق كل هذا العناء، تأكّدي من أن نكون بشرًا زائلين أفضل بكثير لنا نحن البشر».

هزَّت أوقيانوس كتفها، قائلة: «إذا كنتَ تقول ذلك أيها الرئيس»، وغَمَزَتْ بتعبيرٍ مَرِح، وقالت: «في الواقع، إنني لم أستطع مواكبة هذا العالم خلال عشرة آلاف سنة!».

وبعد أن نظرت حولها في صمت لبعض الوقت، سألت بصوت منخفض، عندما رأت أنه لا أحد قادم، قائلة:

«إذن ماذا حدث بينك وبين تلك المشهورة نيشه؟ ماذا حدث عندما اندمجت عقولكما؟ لم أتعرفَ عليها عندما رأيتهما لأول مرة، لكن عندما أخبرتني، أدركتُ كل شيء، لقد كانت حقًّا امرأة رائعة، ويجب ألا أتعجَّب أنها كانت تجعل صديقي يشغف حُبًّا بها هكذا!».

ابتسم كمال بهدوء، ولم يستطع إخبار أي شخص بالحقيقة حول نيشه، ولم يكن باستطاعته أن يقول كلمة واحدة حتى لأفضل صديق له، يجب أن يظلَّ كوكب مافرون وجين آريتان سرًّا إلى الأبد، كان عليه أن يفعل ذلك من أجل سلامة المرأة التي يحبها، وسلامة العالم أيضًا.

وقال بهدوء: «إنها قصة طويلة، ربما سأخبركِ بها يومًا ما، لكن ليس الآن... أنا مُتعبٌ جدًّا الآن، أعتقد أننا حللنا المشاكل الموجودة

بيننا، بطريقة ما، وبعد ذلك، لم يمنعنا شيء من التواجد معًا، ربما سأكون سعيدًا في النهاية أيضًا... هل تعلمين، إنني كلما فكّرتُ في أن نيشه تحبني أيضًا، يفقد حتى الصداق العنقودي أهميّته بالنسبة لي، لقد تحمّلتُ هذا الألم لسنوات، وسوف أتحمّله مرةً أخرى... لقد حصلتُ على المرأة التي أحببتها، وعُدْتُ إلى حركة المساواة، ولديّ صديقة رائعة مثلك، أنا رجل محظوظ حقًا».

بينما كانت أوقيانوس وكمال يتسلمان بحبٍّ لبعضهما البعض، كان مراد يحدّق غائبًا في النقطة التي كانت تظهر فيها الصورة المجسّمة للإعلان، وتختفى، كان يشعر بانزعاج غير معروف في نظام التشغيل، إذا كان الخلود مهمًّا كما يقول الإعلان، لكان هو محظوظًا من هذه الناحية، وكما استبدلت أوقيانوس أجزائه المتعطّلة، وسمحت له بمواصلة الحياة مع هيئة جديدة تمامًا، بعد أن وجدته في سلّة مهملات، حيث قامت بتجديد أجزائه القديمة تمامًا، وجعلته يستمر في الوجود إلى أجلٍ غير مُسمّى، ويمكنه أن يعيش لآلاف السنين، حتى في شكله الحالي، ولكنه يُفضّل لحظة، حيث يتذوّق الدفء والحب في أعين أوقيانوس وكمال، وهما ينظران إلى بعضهما البعض، على الأبدية، كانت مفارقةً يصعب فهمها، أن بعض الناس لا يستطيعون الاكتفاء بما لديهم، في حين كان هناك الكثير من الألوان في حياتهم، أنهى هذا الاستجواب عندما أدرك أن الحرارة قد اشتدّت في نظام التشغيل، وأن هذا من شأنه أن يشكّل خطرًا على برامجه، في بعض الأحيان، يكون عدم السؤال عن الأشياء، هو السبيل الوحيد لتحمل الحياة.

وبينما كانت نيشه تسير بسرعة في الممر البارد للمركز الصحي، تمّت لو لم يفت الأوان، على يمينها ويسارها كان حراس الأمن الفاقدون للوعي، ومقاتلو حركة المساواة في اسطنبول الجرحى، وقد امتلأت الجدران بالثقوب، وتحطمت نوافذ العديد من الغرف أو تشققت، والروبوتات المحطمة في عينيها تصدمها من وقت لآخر، وكانت هناك معركة شرسة، وبدأ أن حراس المركز لم يستسلموا بسهولة، احتمالية أن السيدة جول تعرّضت للضرب الشديد لدرجة أنها لم تتمكّن من التحدّث في هذا الاضطراب، قد أرعبتها، كان أحد أفراد حركة المساواة في اسطنبول قد هاجم منزلها، وقتل رجالها العديد من أعضاء التنظيم، وربما أراد المسلّحون إغراقها في ملقعة من الماء، كان عليها أن تلحق بها قبل أن يمسه أي شخص، كان عليها أن تعلم ما تعرفه، وصولاً إلى أدق التفاصيل، بينما لا يزال هناك وقت، مع من شاركت سرّها، وأي إنسان أخبرته عن وجودها المفاجئ، وإذا لزم الأمر، كان



عليها أن تُزَقِّهم بالزردية، كان عليها أن تفعل ذلك حتى لا تنام خائفة كل ليلة، وحتى لا يشعر كل مَنْ يعرفها بأنها تعرف حقيقته.

عند النقطة التي انقسم فيها الممرُّ، قابَلَتْها واحدة من المسلَّحات طويلة القامة، كانت تعرفها جيِّدًا، اسمها تسنيم، أسلافها هاجروا إلى اسطنبول من الهند منذ أجيال، وتعرَّض شقيقها للاغتصاب من قِبَل أحد أثرياء المدينة عندما كان يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا فقط، وعندما قام أعضاء فاسدون من القضاء بالتسرُّ على الحادث، انضمَّت إلى حركة المساواة في اسطنبول لمحاربة هذا النظام القذر، حتى عند الشروع في مثل هذه العملية، لم تتجاهل وضع النقطة الحمراء على جبهتها، وهو تقليدٌ شعبيٌّ، وعادةً كانت ترتدي «ساري» أخضر اللون مع ثُورة أرجوانية وبلوزة صفراء، مع شالٍ مُتدلٍّ على كتفها، وهي بهذا الزِّيِّ المحلي تشير إلى أنها تشعر بالفخر بأصلها، لكنها الآن ترتدي درعًا معدنيًا رقيقًا مقاومًا لمسدسات الطاقة، ونظرًا لأنها لا تستطيع التحدُّث باللغة التركية جيدًا، فقد وضعت مترجمًا من طراز نابوكو تحت شفيتها، سترجم هذا الجهاز على الفور كل ما قُلْتَه إلى اللغة التي تريدها، ويُقلِّد صوتك بنجاح كبير، والجهاز الذي بحجم الزر الذي تضعه في أذنك سيفعل الشيء نفسه مع ما سمعته، وعلى الرغم من أن نبرة الاتصال كانت ميكانيكيَّةً بعض الشيء، إلا أنه يمكنك التواصل بسهولة مع أي شخص لا تعرف لغته.

عند رؤية نيشه، أنزلت مسدس الطاقة، وابتسمت باحترام، قائلة:

«لحسن الحظ أنك بخير يا نيشه... نحن قَلِقون جدًّا عليك، قامت المنظمة بأكملها بالتمرد عندما سمعوا باختفائك، وإذا قلتُ إن المدينة قد اهتزَّت، فهذا صحيح...».

وعندما لاحظت آثار الأسلاك والكدمات الجديدة على وجهها، عبست، واضطرب صوتها، قائلة:

«أمل ألا يكونوا قد آذوكِ، إذا أسأؤوا إليكِ، سأحاسب كل الأوغاد هنا!».«

أومات نيشه برأسها، قائلة: «أنا بخير، تسنيم، شكرًا لك، لقد وصلت في الوقت المحدد، ولم يتمكّنوا من لمسي، أنا أبحث عن هذه السيدة المقرّزة المُسمّاة السيدة جول، ولديّ أسئلة سوف أطرحها عليها، قال الأصدقاء الذين قابلتهم للتو إنها احتُجِزَت في حجرة دراسة في نهاية هذا الممر، الممر ينقسم إلى قسمين، في أي اتجاه يجب أن أذهب؟».

قالت تسنيم ضمناً: «هناك شخص آخر أقترح عليكِ التحدّث إليه قبل تلك المرأة المجنونة». وأشارت بفوهة بندقيتها، إلى غرفة على بُعد أمتار قليلة.

«تحفّظنا على المدير الإداري للمنشأة، إنه مرعوب ومُسْتَعْدٌ لقول ما تطلبينه، السيدة جول مجنونة تمامًا، حتى لو عدّبنّاها، فلن يكون من السهل أخذ الكلمات من فمها، يبدو الأمر كما لو أنها هي التي أسرّتنا، وليس نحن، إنها تنظر إلينا جميعًا بازدراء، إذا كان هذا الرجل صعبًا بعض الشيء، فأنا متأكّدة من أنه سيخبرك بما يعرفه، إنه يعتقد أننا سفّاحون متعطّشون للدماء، ويصدّق ما تقوله الحكومة عنّا، دون تفكير، لم نخبره بالحقيقة حتى يتمكّن من الغناء مثل العنديل، ولم نقُل حتى إنّنا كُنّا نستخدم مسدسات الصعق، لقد كذبنا عليه قائلين أننا قتلنا كل من كان موجودًا، وأعتقد أنه يعرف كل الخزائن الدوّارة هنا، وباستخدام هذه المعلومات، ربما يمكنك جعل تلك المرأة المجنونة تتحدّث بسهولة أكبر».

وجَدَت نيشه هذا الاقتراح معقولًا، وبعد التفكير لبعض الوقت، قالت: «حسنًا إذن، دعونا نستجوبه أولًا، دعونا نرى ما سيقوله مديرنا الموقّر، هل تستطيعين أن تُريني الطريق؟».

قالت تسنيم بالصوت الآلي لآلة الترجمة: «تفضلي أولاً»، وقادت الشابة إلى الممرّ الموجود على اليمين، وفتحت باب غرفة زجاجها مكسور، وسمحت لها بالدخول.

بدأت الغرفة وكأن قبلة قد أُسْقِطَتْ عليها، وكانت الخزائن مقلوبة، والملفات والأوراق مُبَعَثَةٌ في كل الاتجاهات، تمّ رمي طاولة وثلاثة كراسي، ربما كانت قد وُضِعَتْ معًا من قبل، في زوايا مختلفة، وكانت الأرضية مُغطّاة بالزجاج المكسور، وشظايا أنابيب الاختبار، وسط هذا الارتباك، كان هناك رجل في منتصف العمر، مربوطٌ بإحكام على كرسي، ومنكمش في مكانه من الخوف، وهو يبكي مثل الأطفال.

ذهل الرجل عندما لاحظ دخول الناس، واستقرّت على وجهه نظرة رعب، كان الذعر ينمو في عينيه، وهو ينظر إلى نيشه، و بمجرد أن رآها قال إنه يعرفها، ولم يستطع النظر طويلًا، وأبعد عينيه، وقال: «لم أفعل ذلك... لم أخطئك... أقسم بالقرآن! من فضلك لا تؤذيني، استخدموني! أقسم بالله، لم أعرف شيئًا...».

قالت نيشه وهي تمشي نحو الرجل: «اهدا، لن يؤذيك أحد، ليس لدينا ضغينة ضدّك، إذا تعاونت بالطبع».

ثم التفتت إلى تسنيم، وسألت، قائلة: «ما هو اسم الرجل المحترم؟».

«كان مكتوبًا على شارة اسمهُ رضا بلطجي».

«شكرًا، الآن اتركينا وشأننا من فضلك، أريد التحدث إلى الرجل على انفراد، سأتصل بك إذا احتجت إليك».

أومأت تسنيم برأسها دون احتجاج، وغادرت الغرفة بسرعة.

قالت نيشه بصوت أكثر غلظة: «انظر إليّ يا رضا... ارفع رأسك تلك، أريدك أن تنظر إلى وجهي».

حدّق مدير المنشأة في وجهها بعينين دامعتين، كان الأمر كما لو كان يتوسّل إليها بعينه.

وتأوّه، قائلاً: «لم أكن أعرف حقاً... أنا أدير الشؤون الإدارية فقط، هنا، السيدة جول تقرّر كلّ شيء، لو علمتُ بخطتها... عليها اللعنة، لم أكن لأقف هنا للحظة، لقد اعتزّضتُ عليهم وهم يربطونك بتلك الآلة اللعينة، وقلّتُ لهم لا تكونوا قاسين، لكنهم لم يستمعوا إليّ، والله لم يستمعوا».

قالت نيشه: «كنتُ هنا وكنتُ تدير هذا المكان، نحن في عاصفة إشعاعية، تحت مستودع مهجور، في مكان مخفيّ حتى عن الحكومة، أمّ يمكنك أن تعرف نوع القذارة تلوّثت بها، لكن لا تقلق، أنا لا أهتمّ، ليس لديّ وقت لأضيّعه معك، أنا فقط أريد أن أعرف الخطّط بالنسبة لي، ماذا قالت لك السيدة جول عندما أحضرتني إلى هنا؟».

أجابها قائلاً: «لم أكن أعلم أنّك من حركة المساواة في اسطنبول، أقسم بالقرآن، لم أكن أعرف، لو كنتُ أعرف، لكنّك قد هربتُ من هنا منذ مدة، أنتِ لا تعرفين السيدة جول، لا يمكنك تركها بسهولة! اعتقدتُ أننا كنا نعمل في هذا الجحيم حتى لا يسرق منافسون اختراعاتنا، لم تسمح لي بالمغادرة بعد أن علمتُ بالخزائن الدوّارة هنا، ومع ذلك، إذا علمتُ أنك تقاتلين مع حركة المساواة في اسطنبول، لكنّك قد هربتُ، تلك المرأة مجنونة! نحن هنا نبحث عن طرق لإبقاء الناس على قيد الحياة إلى الأبد، ويدفع عملاؤنا الكثير من المال مقابل ذلك، قالوا لي إن لديك مرضاً غير عاديّ، وتتقدّم بك السنّ بشكلٍ أبطأ بكثير من الآخرين، لقد أحضروا شاباً بهذه الطريقة إلى هنا من قبل، وقد أجروا عليه التجارب أيضاً، ولم يقولوا إنه تمّ إحضارك بالقوة وأنك مخطوفة، والله لم يقولوا ذلك! لقد كنتِ نائمةً بالفعل عندما وصلت، ولم أشكّ في ذلك أيضاً».

استطاعت نيشه أن تقرأ من وجه الرجل أنه يقول الحقيقة، ربما لم تشارك السيدة جول ما تعرفه عنها مع أي شخص آخر، لا بُدَّ أنها أرادت الاحتفاظ بهذا السر الثمين لنفسها.

وقالت بهدوء: «أنا أصدِّقُك، ومع ذلك، هذا لا يعفيك... إن إخفاءكم الاكتشافات الموجودة هنا عن الناس تُعدُّ جريمة ضد الإنسانية، لكنني لن أعاقبك، أنت بَيِّدٌ عاديٌّ، أنت لا تستحقُّ العناء، رجالي يتفقدون كل ركن من أركان المنشأة الآن، وهم يُدمِّرون كل أعمالك السَّامة، وسنكشف عن المفيد منها، يمكن للأدوية التي اكتشفتموها أن تُخَفِّف آلام الكثير من الناس، لديَّ سؤال أخير أطرحه عليك، بصفتك المدير الإداري، هل يوجد مكانٌ سرِّيٌّ في هذه المنشأة لا يستطيع رجالي رؤيته للوهلة الأولى؟ إذا قلت لا، فلن أصِرَّ، ولكن إذا وجدنا ذلك بأنفسنا، فسأعود ولن أكون لطيفة هذه المرة».

سكت رضا لفترة، وبالنظر إلى عيونه التي كان ينظر بها بعيداً، فقد كان مُتردِّداً فيما إذا كان سيحدث أم لا، التخاطب ذهنيًّا مع الأشخاص الذين علقوا بهذه الطريقة ولا يعرفون ماذا يفعلون، غالبًا ما يكون له تأثير نوم مغناطيسي، كانت نيشه ستستخدم قوتها غير العادية، لتردّد صدى ما في ذهن رضا، ولكنها كانت بحاجة إلى الاعتراف الكامل، تكلم الرجل من تلقاء نفسه، وقال:

«في غرفة الأرشيف رقم 142، اضغطي على مفتاح الإضاءة على الحائط أربع مرَّات متتالية، ثم انتظري لمدة عشر ثوان، واضغطي عليه ثلاث مرَّات، وبعد عشر ثوانٍ مرَّتين أخريين، سيتم فتح إحدى البلاطات على الأرض، يوجد أدناها غرفة السيدة جول الخاصة، هذا هو المكان السري الوحيد الذي أعرفه، أقسم بالله».

قالت نيشه: «لقد اتَّخَذَت القرار الصحيح، وحافظت على رباطة جأشك، سأتركك وحدك الآن، فَكَّرَ مَلِيًّا فيما قُمتَ به، وما عليك

القيام به، إذا أُخْبِرَتْ شخصًا واحدًا عني وعن حركة المساواة في اسطنبول، وما حدث هنا، فسنجدك حتى لو دخلت في جحر الفأر، أنصحك أن تنسى ما هو هنا، والآن».

طأطأ رضا رأسه، وبدأ يبيكي بصمت.

ذهبت نيشه بمفردها إلى الغرفة السرية التي وصفها مدير المنشأة، وأرادت أن تراها قبل الآخرين؛ لأنها لا تعرف ما الذي ستجده هناك، على الرغم مما قاله كمال بلطجي، لم تستطع تجاهل احتمال أن السيدة جول ربما حصلت على بعض المعلومات عنها، وعن كوكب مافرون، كان من الممكن أن تخدع المرأة الجميع في هذا الأمر، كما فعلت في أمور أخرى، وعندما لاحظت أن الأضواء لم تكن مُضاءً في الأسفل، ورفعت يدها، وفكّت مصباح البطارية النووية من السقف دون لمس، فسقطت البراغي المفكوكة على الأرض، وارتدت عدة مرات، نزلت السلم، ونفخت المصباح أمامها على بُعد أمتار قليلة.

إن وصف المكان السري للسيدة جول بغرفة لن يكون كافيًا لوصفه، كان أكثر من مستودع ضخم، وكلما كانت تتجول في الداخل، في ضوء المصباح الذي يطير أمامها، كان تندهش لكل اكتشاف، تم اصطاف عدد لا يحصى من الأقفاص الزجاجية، وأحواض الأسماك في هذا المستودع، الذي يحتوي على جميع أنواع الحيوانات، والتي شاهدت البعض منها لأول مرة في حياتها، من يدري من أي أجزاء من العالم تم إحضارها إلى هنا، والمقابل من الأموال التي تم دفعها لهم، تم توصيل الأسلاك الملونة البارزة من أجساد الحيوانات بأجهزة كمبيوتر مُصغرة، وآلات غريبة، لم تستطع حتى تخمينها، ويقوم بعضهم بانتظام، بتقطير السوائل الملونة من أنابيب الاختبار في مياهها، كانوا على قيد الحياة، لكنهم إمّا مُخدّرون أو سُمِّموا الحياة، ولم يتحركوا إلا للتنفّس، أولئك الذين كانت لديهم عيون، كانوا ينظرون بيأس وحزن،

وبدا أن البعض يعاني من آلام بسبب الأسلاك العالقة في أجسادهم، وكان هناك أيضًا من أصيبوا بنوبة ارتعاش.

وفوق الأقفاص وأحواض السمك كانت توجد شاشات صغيرة تحتوي على معلومات توضيحية، وعندما لمست أكثر ما جذب اهتمامها بطرف إصبعها، قام صوتٌ ذكوريٌّ قويٌّ بالتعريف باختصار بالملخوق الموجود بداخله، وتمَّ عرض نفس المعلومات على الشاشات باللغتين التركية والإنجليزية.

**قنديل البحر الخالد:** إنها الأنواع الحية الوحيدة في العالم التي يمكن تعريفها بأنها خالدة، عندما يتحوّل قنديل البحر، الذي يبلغ قطره 5 مم فقط، إلى سلية مخاطية عندما يصل إلى نهاية عمره أو لا يستوفي الشروط التي يمكن أن تستمرَّ في حياته، ويتحوّل إلى قنديل البحر مرة أخرى عند حدوث الظروف المناسبة، وإذا لم تتعرّض لتأثير خارجي، فيمكنها مواصلة حياتها في دورة مستمرة إلى أجل غير مسمى.

**إسفنج القطب الجنوبي:** هذا النوع من الإسفنج، الذي يعيش في قاع المحيط، يشبه النبات في المظهر، يختارون منطقة آمنة لأنفسهم، ويستقرّون هناك، ويقضون حياتهم كلها تقريبًا دون أن يتحرّكوا، تمّت إعادة مثال على هذا النوع الحي إلى الحياة في بيئة معملية بعد تجميدها لمدة 1500 عام.

**مرجان الدماغ الصخرية:** هو حيوان بحري يعيش في شكل مستعمرة، عندما يجتمع المئات منهم معًا، يكون مظهرهم مشابهًا للمُخّ البشري، لقد شوهد في الماضي خاصة في منطقة البحر الكاريبي، وخليج المكسيك، هذا المرجان، الذي يُعدُّ أحد أشهر المخلوقات طويلة العمر، يعيش لأكثر من 200 عام.

**سلحفاة جالاباجوس:** هذه السلاحف العملاقة، التي شوهدت فقط في بعض الجُزُر في التاريخ، يمكن أن يصل وزنها إلى 400 كيلوجرام،

ويمكن أن تحمل إنسانًا متوسط الحجم، وتتراوح أطول فترات الحياة لديها بين 150 و190 عامًا، وفقًا لمصادر مختلفة.

لا بُدَّ أن السيدة جول كانت تأمل في أنها إذا تمكَّنت من كشف أسرار المخلوقات طويلة العمر، يمكنها تطبيق ذلك على البشر أيضًا، ومن خلال التجارب التي أجرتها على الشاب الذي من نسلها، وعليها، وضعتهم مكان حيوانات غير عادية، وتذكَّرت أن چين آرياتان، الذي يمنع شيخوخة شعبها على الكوكب الذي أتت منه، نتج من حيوانٍ عمره مليون عام اكتُشف في أعماق البحار، ربما كانت السيدة جول مجنونة، لكنها كانت تسير في الاتجاه الصحيح بأبحاثها، وكان هذا هو الجزء المخيف، إذا تمكَّنت من الحصول على چين آرياتان من نفسها، فمن الممكن أن تصنع چينًا مشابهًا بمُرَكَّبٍ مُكوِّن من هذه الحيوانات، كانوا على شفا كارثة.

كان يأس وآهات الحيوانات التي تعاني في أقفاص وأحواض مائية قد أثر فيها، وكان غضبها يتصاعد ضد هذه المرأة التي سحقت الجميع بسبب شغفها.

وعندما صعدت إلى الطابق العلوي مرة أخرى، أجرت اتصالًا لاسلكيًا بتسنيم لاستدعائها إلى الغرفة السرية، وأمرتهم بإنقاذ ما في وسعهم من الحيوانات، ووضع حدًّا لمعاناة البقية، لم تستطع أن تنسى نظرات سلحفاة جالاباجوس التي كانت تتوسَّل إليها تقريبًا، حان الوقت الآن للتعرفُ على السيدة جول الشهيرة.

عندما دخلت نيشه الغرفة حيث كانت المرأة محتجزة، وجَدَت مكانًا مشابهًا للبيئة حيث استجوبت مدير المنشأة، كل شيء هنا أيضًا إمَّا مقلوب أو مبعثر أو محطَّم، سقطت المجلدات على الأرض، وكانت الأرض مُغطاةً بالأوراق والملقَّات، لكن المرأة الجالسة في وسط الفوضى بدت مختلفة تمامًا عن ذلك الرجل العجوز، وعلى الرغم من أن



ملابسها كانت مهترئة، وتعرّضت للضرب، ووجود كدمة على طرف شفتها من قبضة لكمّةٍ لَكَمَها لها أحدهم، لم يستطع أن يمنع نفسه، مَنْ يدري من هو، إلا أنه كان على وجهها تعبير فخور وراضٍ.

عندما رأت المرأة نيشه، ابتسمت بطريقة متعدّدة المعاني، وأومات لها برأسها تعبيراً عن التحية، ولمعت عيناها كما لو كانت تمر بلحظة سعيدة، وقالت:

«لقد أتيت أخيراً... أخيراً... كنتُ في انتظارك أيضاً، إنه لشيءٌ جيّد أن أراك في حالة جيدة».

قالت نيشه، وهي تقف أمامها، وتعقد ذراعيها: «مُدْهِش»، وتابعت بنبرة ساخرة، قائلة: «وكأن ما فعلتِه حتى الآن لم يكن في صالحِي».

قالت جول: «ربما لن تصدّقيني، لكنني لم أرغب أبداً في أن تتأدّي، أنتِ مُميّزة وقيّمة للغاية... وإلا فلماذا أضع كمال في ذهنك للوصول إلى أسراركَ، والتعامل مع مثل هذه الأمور الجذّابة؟ كان يمكنني البدء في إجراء التجارب عليكِ لحظة وصولك إلى هنا، أنتِ... أنتِ لغز كامل بالنسبة لي، أريد أن أكون قادرة على حلّكِ لأفهمكِ، لا تَرَي هذا الشغف كثيراً بالنسبة لعالمية سيّدة، إذا كان بإمكانني حلّ لغزكِ يمكنني أن أهدي الإنسانية الخلود الذي سعت إليه منذ جُلجامش<sup>(1)</sup>، لا يزال بإمكاننا القيام بذلك إذا سَمَحْتَ لي، ألا تريد أن يعيش جميع أحبّائكِ مثلكِ إلى الأبد؟».

قالت نيشه بإيجاز: «لا... إن ثمن الحياة الأبدية باهظٌ للغاية، قِلّة من الناس يمكنهم تحمّل هذا العبء دون الانهيار».

---

(1) جُلجامش: هو ملك تاريخي لدولة الوركاء السومرية، وبطل مهمٌ في ميثولوجيا بلاد الرافدين القديمة والشخصيّة الرئيسيّة في ملحمة جُلجامش. (المترجم)

«أنتِ يمكنكِ تحملها رغم ذلك؟»

قالت: «لأنني مضطّرة، حتى إنني أستطيع أن أتحمّل من خلال رمي نفسي من خطرٍ إلى آخر... لم أنضمّ إلى حركة المساواة في اسطنبول فقط لتحسين اسطنبول، إن حركة المساواة سوف تكون سببًا في قتلي عاجلاً أم آجلاً، وأنا أعلم ذلك، وهذا يهدّد العواصف بداخلي، إذا لم يكن الأمر يتعلّق بحركة المساواة في اسطنبول، فرمّا كنتُ سأبحث عن طرقٍ مختلفة للوصول إلى الموت...».

وأخذت نفّسًا عميقًا، ونظّرت في عيني السيدة جول، التي فحّصتها مثل حيوان تجارب، وسألت، قائلة:

«علاوة على ذلك، ليس الأمر كما لو كنتِ تريدين فرصة العيش إلى الأبد للبشرية جمعاء، كنتِ تريدينه فقط للأثرياء، مثل كل الاختراعات الأخرى... هل هذا كذب؟ أي دواء خرج من هذه المنشأة، وانتهى به المطاف إلى شخص آخر غير الأثرياء؟ الناس العاديّون في نظركِ مثل الحيوانات التي يمكنكِ التجربة عليها كما يحلو لك، ماذا يعني كمال بالنسبة لكِ؟ تلك الإبر التي أعطيتَها إيّاها... الأمل الذي أعطيتَ له حول أنها يمكنها أن تُخفّف من آلامه... وماذا عن ذلك الشاب وعائلته الذين قُمتِ بإجراء تجارب عليهم قبلي؟ لقد تسبّبت في موتهم هنا بشكل مُؤلِم فقط لأنهم من سُلّاتي، لقد قتلتِ زوجته وطفله حتى لا يقوموا بالإبلاغ عنكِ، لا أرى أمامي عالِمةً، بل قاتلة يمكنها سحق أي شخص لكسب المزيد».

نظّرت السيدة جول إلى نيشه بعيون رقيقة، وكان هناك شفقة تقريبًا في تلك العيون، بدا الأمر كما لو أنها لم تكن مقيّدة على كرسي، ويتمّ استجوابها، وحياتها في خطر، وقالت:

«كسب المزيد... تعتقدين حقًا أن هذا هو السبب، أليس كذلك؟ أحاول أن أوقف الشيخوخة، لأن الأغنياء سيدفعون مبالغ طائلة من

أجل ذلك، وسأضيف الثروة إلى ثروتي، هل تعتقدان أن هذا ما كنتُ أقوله؟ كم أنتِ مُخطئة... نعم، أنا أعمل فقط من أجل الأغنياء، لأنه يتعيّن على شخص ما تمويل الأبحاث التي أقوم بها هنا، هذه الأجهزة، والأطباء، ليست مجانية، لكن ما الهدف من كسب المزيد، عندما أعلم أنني سأموت عاجلاً أم آجلاً؟ النجاح، المال، الأملاك، العقارات، هذه كلها أشياء تفقد معناها في مواجهة الموت، أنا حقاً أريد فقط أن أكون قادرة على الاستمرار في العيش، كان هذا هو شغفي الوحيد طوال حياتي، كم تظنّين عمري؟».

قال نيشه بتردد: «خمسون، ربما خمسة وخمسون».

قالت السيدة جول، بابتسامة تنتشر على وجهها: «عمري بالضبط مائة واثنان وسبعون عاماً... لقد قمتُ بتطبيق جميع الأدوية التي اكتشفناها في هذه المنشأة على نفسي، قبل أي شخص آخر، وأعدتُ بناء أجزاء جسدي عدّة مرّات، باستثناء مخي، وبعض الأعضاء الحيوية، فقد مرّ كل شيء في جسدي بعمليات لا حصر لها، لقد نسيْتُ عدد عمليات التجميل في وجهي، لكن الآن وصلتُ إلى الحد الأقصى، المزيد غير مُمكن، أشعر بالإرهاق، ولكن إذا تمكّنتُ من حلّ سرِّك يمكنني الاستمرار في العيش، أنتِ على حقٍّ، لم أقلق أبداً بشأن الإنسانية أو أي شيء، لماذا يجب علي أن أقلق؟ كيف يختلف هذا الحشد الزاحف بلا هدف في شوارع اسطنبول، عن سربٍ من الحشرات؟ ماذا ستخسر هذه المدينة إذا مات خمسون بالمائة الآن؟ على العكس من ذلك، فإنها تأخذ استراحة! أنا أتفهّم أنّك تخفين هذا السرّ عن الجمهور، لكن يُرجى مشاركته معي، أنا فقط يجب أن أعرفه! وفي هذه الحالة سأكون تحت تصرفك بكل ثروتي، وسأفعل ما تريدان...».

أثناء الاستماع إلى المرأة، فكّرت نيشه في الجراحة التجميلية الوحيدة التي خضعت لها في حياتها، والتي كانت منذ ما يقرب من

ألف عام، والآن عندما لم تَعُد بحاجة إلى رجال لحمايتها، وأصبحت قوية بما يكفي للاعتناء بنفسها، أُجريت لها عملية جراحية، للتخلص من جمالها التام، والساحر، وأصبحت عادية بعض الشيء، وبينما كان الجميع يخضعون لعملية جراحية للتجميل، فعلت هي العكس، لقد تذكّرت كم كان ذلك مؤلمًا، كلما فكّرت فيما فعلته السيدة جول بجسدها من أجل أن تعيش لفترة أطول، كانت مندهشة من شغفها، لقد كان هذا جشعًا مريضًا.

قالت، وهي تكبت مشاعرها: «لا أريد منك شيئًا لنفسي، ولكن من أجل صديق لي، هل يمكنك حقًا إجراء الجراحة التي أخبرتك كمال عنها؟ هل يمكنك حقًا القضاء على الصداع العنقودي بشكل دائم؟ في هذه الحالة ربما يكون لديك فرصة للمساومة، أنا أشعر بالاشمئزاز منك، ومن عقلك، ومع ذلك، إذا تمكّنت من تخليص الرجل الذي أحبه من آلامه، فسوف أساعدك على إطالة عمرك».

هزّت السيدة جول رأسها على الجانبين، واتّسعت عيناها بدهشة، بدا أنها وجدت هذا الطلب غير مُجدٍ للغاية، وقالت:

«هل هو كمال؟ إنه شخصٌ عاديٌّ جدًّا... ما الذي يهم؟ بالطبع لا يمكنني فعل ذلك، لا يوجد حلٌّ للصداع العنقودي، وإذا كان هناك، فإننا لم نعثر عليه، ولم نبحث عنه حتى... لقد أخبرته بذلك فقط، حتى يفعل ما أريد، قِلَّة من الناس في العالم يعانون من هذه الآلام، ولا أحد منهم مُهم، دَعِك من كمال هذا، ما هو النجاح الذي حقّقه حتى الآن؟ هل قام باختراعٍ علميٍّ؟ لقد قمْتُ بعشرات الاختراعات! هل أسّس شركة، وكم عدد الأشخاص الذين أطعمهم، وهل أبدع عملاً فنيًّا، وهل حقّق نجاحًا سياسيًا، وكم عدد الأشخاص في اسطنبول الذين يعرفون اسمه؟ ما الفرق إذا عاش أو مات؟ هل يعاني من ألمٍ وجوديٍّ مثلي، أم ذاق ألم الإبداع مثل كبار الفنانين؟ ماذا حدث له، إنه

يتألم فقط! لقد كنتِ في هذا العالم منذ مئات السنين، فأنتِ الشخص الوحيد الذي شهد التاريخ، أنتِ وأنا مُميّزون، يمكننا أن نعيش معًا إلى الأبد، يمكننا أن نفعل أشياء عظيمة، لماذا تهتمّين بالآلام العادية للناس العاديين؟».

سَقَطَت سَكِينٌ في قلب نيشه، الآلام العادية للناس العاديين... وكرّرت في نفسها، لا بُدَّ وأن المرأة التي أمامها، لم تكن قد أحبّت أي شخص بكل إخلاص في حياتها، لم تكن تعلم أنه عندما تحب شخصًا ما، أيًا كان، يصبح مركز العالم بالنسبة لك، وأنه مُميّز عن كل شخص وكل شيء، ظهر المولويّون أمام عينيها، الذين كانوا يؤدّون رقصة السّماع، وتنانيرهم تتحرّك، ولم يتذكّر أحدُ أسماءهم، لم يكونوا مشهورين، ولا أثرياء، لكنهم لم يكونوا عاديّين بالنسبة لها، لا عندما يعيشون، ولا عندما يموتون...

في وقتٍ آخر، وفي مكان آخر، بدأت فتاة صغيرة تؤدّي رقصة السّماع بهدوء، وفي خشوع، على حافة مجرى مُتدفّق، كان طرف ثوبها الأبيض يشبه البحر العاصف، وكانت الأصوات الودّية للفتيان البواسل تأتي من بعيد، كانوا يغنّون الأغاني الشعبية معًا، لم يكن هناك أثر للخوف في أصواتهم العالية، كما لو كانوا يحاولون الإعلان للأحجار والجبال، أنهم أحرار، شعرت الفتاة الصغيرة ببرودة الريح على جلدها، وسُجرت باللمحة الجميلة التي عاشتها، وعندما استدارت، انطلق كل ما كان على الأرض، وطار، وبدأ يدور حولها، شكّلت الأوراق والأغصان والحجارة الصغيرة حولها هالة ملوّنة، كان الأمر كما لو كان الكون يحاول أن يتعلّم معها.

كانت تتوقّع مثل هذه الإجابة من السيدة جول، لكنها كانت تأمل أن تكون مخطئة، من المؤلّم أن تعتقد أنها ستضطر إلى إخبار الرجل الذي أحبّته أن ألمه لن يختفي أبدًا، وأدّى أمل المرأة الكاذب،

والاستهانة بها إلى تأجيج غضبها، وازداد غضبها عندما كانت تفكر فيما فعلته من قبل، والأبرياء الذين قتلتهم، ومشى نحوها بخطوات هادئة، ومدّت يدها ووضعتها على جبهتها، قائلة:

«الآلام العادية للناس العاديين...».

شعرت السيدة جول فجأة بضغط بين عينيها، كان غامضاً في البداية، ولكن مع مرور الثواني، زادت شدته، كان الأمر كما لو أن مسماراً حاداً يتم ضغطه على جبهتها، كان هذا شعور غير مريح، لم تشعر بشيء مثله من قبل، وتشنّج خذاها، وانتشرت قشعريرة في جسدها، وفي الوقت نفسه اندلع حريق بداخلها، وتصبّبت عرقاً من رقبتها، وكانت تعاني من العديد من المشاعر المختلفة معاً.

كان المسمار الحاد يستدق طرفه بين عينيها تدريجياً، وبدأ يخترق جسدها، كانت تعلم أنه مجرد وهم؛ فكل ما كانت تراه هو يد نيشه التي وضعتها على جبينها، ولا توجد مسامير أو أي شيء آخر في رأسها، ولكن الألم الذي شعرت به كان حقيقياً تماماً، وبدأت تتأوه، ثم تطلق صرخات خفيفة، وأرادت أن تتوسّل للشابة أن تتوقّف، ولكنها لم تستطع فعل ذلك، وكان لسانها ملتويّاً في فمها، ولم تكن قادرة على الكلام.

عندما تحرّك المسمار داخل رأسها ذهاباً وإياباً، اختفى تماماً تعبير الفخر الذي ظلّ عالقاً على وجهها لساعات، وبدأت في البكاء مثل طفل، وكان الكرسي الذي كانت مقيدةً به يهتزّ مع جسدها كله، وكانت تركل، وتضرب الأرض بقدميها بكل قوتها، وفي نهاية المطاف، وصل الارتعاش إلى درجة أنها انقلبت إلى الوراء، وابتعدت يد نيشه عن جبهتها، لكن الألم لم ينتهِ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

كان الألم الذي شعرت به الآن مساوياً لألم سكين كان ينغرز في جبهتها باستمرار، كانت تقفز مع الكرسي، يميناً ويساراً، وتُصدر أصواتاً مثل حيوان يُنَحَّر، ويريد أن يموت.

وعلى الرغم من كل محاولاتها من أجل العيش لفترة أطول قليلاً، وجميع الأشخاص الذين جرّحت مشاعرهم، وقتلتهم، كانت الآن تصلي من كل قلبها، حتى يقتلها شخصٌ ما، ويضع حداً لهذه المعاناة.

لم يقتلها أحد، بعد أن شاهدتها، وهي تكافح بلا مبالاة لفترة من الوقت، غادرت نيشه الغرفة، تاركة السيدة جول وحدها في أحزانها، وبعد ساعات، عندما جاء مقاتلو حركة المساواة في اسطنبول لأخذها إلى زنزانتها، حيث ستقضي بها بقية حياتها، وجدوا السيدة جول على الأرض، وهي تحدّق في الفضاء بوجهٍ خالٍ من التعبيرات، ولم تتحدّث مرةً أخرى بعد ذلك اليوم، وكلما أرادت الكلام، كانت تصمت خوفاً، مع ألمٍ وهميٍّ بدأ في وسط جبهتها.

بعد ثمانية أشهر، عندما انهار جسدها، الذي تحمّل لفترة طويلة، وسرعان ما استنفد بعد توقّف أدويتها، لم يكن لديها طموح في العيش لفترة أطول.

## 23

كانت آخر حديقة مدينة في اسطنبول مُحاطةً من كل النواحي بـ «161» ذي الأسلحة الثقيلة، وهي أحدث طراز من روبوتات سِلْسِلَة «إيه آر»، جنبًا إلى جنب مع كتيبتين من الجنود، وقفوا يَقْظِين ضِدَّ أي عمل لحركة المساواة، أو رَدَّ فِعْلِ المعارضين من بين الأهالي، وتمَّ اقتلاع ثمانين بالمائة من الأشجار في الحديقة، ولم يتبقَّ سوى عشرة أشجار بلوط رائعة، تنهَّدت «هنده» نائب مدير تخطيط المدينة المسؤول عن الإشراف على العملية، تنهَّدًا شديدًا، مُحاولَةً إخفاء الحزن على وجهها، عندما تحرَّكت آلات الاقتلاع تجاههم، وقامت بتمييز الأشجار الأخيرة على خريطة المنتزه، التي غطَّت شاشة الكمبيوتر الورقي بطرف إصبعها، وضغطت على زر الحذف.

قال الصوت الميكانيكي الهادئ للكمبيوتر: «يتمُّ مَسْحُ أشجار البلوط...»، تلاشت الأشجار واختفت من الشاشة.



مع تزايد همهمة الحشد، قام العقيد، مُقَطَّب الجبين، قائد الجنود برفع مُكَبِّر الصوت المعلّق على خوذته إلى فمه، وخاطب الحشد بصوت جهير لمغني أوبرا:

«أهل اسطنبول الأعزاء! سيتم الانتهاء من أعمال التحسين في الحديقة في غضون بضعة دقائق، وسيعاد فتح الطريق لخدمتكم، نرجو منكم الصبر، ستوفّر ثلاثة مَوْلِدات أكسجين ماركّة «هارو» التي يتمّ وَضْعُها بدلاً من الثلاثين شجرة التي تمّت إزالتها، وهي ستوفّر نفس الكمية من الهواء النقي، حيث تَشْغَلُ عُشر مساحة الأشجار، وسيتمّ إنشاء مستوطنة جديدة لأهلنا على الأرض الشاغرة، ولن يكون هناك تضيق على مسار المشي، والطريق السريع، أكرّر! لن يكون هناك أي قيود إطلاقاً على الطُرُق التي تستخدمونها! نرجو الإحاطة!».

كان هناك اضطراب طفيف في الحشد، حيث استفسر الكثيرون من الذين بجانبهم بأصوات منخفضة، لكي يتأكّدوا ممّا سمعوه، من بين الهمهمة، كانت عبارة أنهم لن يلمسوا الممشى هي الأكثر سماعاً، تلاشت الهمهمات، وبعد فترة بدأ سكان المدينة الفضوليون يتفرّقون، لم يتبقّ أحد في المكان، باستثناء أولئك الذين كانوا ينتظرون انتهاء العمل للوصول إلى الجانب الآخر من الشارع، وأولئك الذين شاهدوا ما يجري مثل مشهد سينمائي لأنهم لم يكن لديهم عمل أفضل.

عندما تمّ اقتلاع الأشجار الأخيرة ووضعها في الشاحنة «البر جوّية»، ضَغَطَتْ هنده على بعض المفاتيح على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، وجعلت عُمَلاً من الروبوتات يعملون على إغلاق الثقوب التي تم فتحها، وزرع وحدات «هارو»، وسرعان ما قامت الروبوتات بتسوية آخر حديقة في المدينة، لدرجة أن شكلها يوحي وكأنها كانت حقلاً فارغاً عبر التاريخ، وذلك من خلال العمل بسرعة كبيرة بنظام آلي،

وقامت بتثبيت مولّدات الأكسجين، والتي تتكوّن من كُرَاتٍ كبيرة رمادية تستريح على ثلاث أرجُل معدنيّة طويلة في المواقع المخطّط لها، وكان شعاع من الضوء الأزرق يحيط بالكُرَات التي تعمل بصفارة خفيفة تشبه صوت الصفيح، وعندما تأكّد الفنيّون من أنهم قد تفقّدوا وحدات «هارو» وأنتجوا الكمية المناسبة من الأكسجين، ضغطت هنده على جهاز الإرسال المرتبط بحزامها، وأبلغت جميع الموظفين أن العملية قد اكتملت بنجاح.

أقلعت الشاحنة «البرجوية» بمراوحها الأربع الضخمة، وابتعدت من أجل توصيل الأشجار إلى المصنع الذي يُنتج الأشياء المنزلية الفاخرة، حيث سيتم تقييمها كمواد خام، وسرعان ما ستحوّل كل واحدة منها إلى منتجات خشبية باهظة الثمن، تزيّن الشقق الأنيقة للأشخاص المهتمّين بالديكور في الطوابق العليا من الأبراج الضخمة، قام الجنود والروبوتات العسكرية بإخلاء المنطقة في وقت قصير بانضباط الجيش، واستغرق الأمر وقتًا أطول قليلاً حتى يتمكّن العاملون من الروبوتات والفنيّون من حزم أمتعتهم ومغادرة المكان.

سئم سُكّان المدينة الانتظار، وساروا بسرعة عبر الشارع عندما أزيلت الحواجز، ومحووا من ذاكرتهم بالفعل أن ثلاثين شجرة -بعضها عمرها قرون- قد كانت هنا منذ ساعة، كان بعضهم ينظرون إلى أجهزة إنتاج الأكسجين التي مرّوا بها، بفضول وإعجاب، وملؤوا رئاتهم بالهواء النقي الذي استنشقه في وجوههم، والتقطوا الصور بساعاتهم التليفزيونية.

نظرت هنده بذهول إلى الأراضي المستوية المفتوحة بين المباني غير المتناسقة، والكُرَات الأرضية الشاهقة ذات الأرجُل المعدنية، وبينما كانت تحاول اختراق الحشد للوصول إلى السيارة «البرجويّة» التابعة للشركة التي تنتظرها، لم تبتعد عن عينيها الأيام الجيدة التي قضتها

في هذه الحديقة عندما كانت طفلة، مع أنها حاولت إبعادها، اعتاد والدها أن يحضرها مع أخيها إلى هذا المكان كثيرًا، ويجلسهما في ظلال الأشجار، ويروي قصصًا ملوَّنةً لم تَرها من قبل في المدرسة أو على شاشات التلفاز، منذ قرون، اعتاد أن يقول إن هناك مثل هذه الحقائق وحتى البرك في أجزاء كثيرة من اسطنبول، حيث يعيش الناس بسعادة أكبر وسلام في تلك الأيام، ويمارسون نزعات ممتعة على طول الساحل، بل ويذهبون إلى الوديان الخصبة إذا شعروا بذلك، كان الأمر كما لو أنها سمعتها من والدها، لكن ما قَصَّوه بَدَا وكأنه قصة خرافية حلوة بالنسبة لهنده.

ذات يوم، بينما كانت هي وشقيقها يستمعان إلى هذه الحكايات كما لو كانا مفتونين، لاحظت أن أحد المسؤولين الذين قطعوا الأشجار في الحديقة كان يستمع إليهم، وهو ينظر إليهم شزرًا، وقد قُطِبَ جبينه، ورغم أنها كانت مستاءة من هذا الرجل ذي الأنف الكبير، إلا أنها لم تهتم به كثيرًا، ولم تكن بحاجة لإخبار والدها، وكانت تخشى أن تفتقد لذة الحكاية، وبعد أيام قليلة، بينما كانوا يستمتعون في ظلال الأشجار مرة أخرى، اقتحم رجال يرتدون الزي العسكري فجأة الحديقة، ورفعوا والدها عنوة، ولم تمنعهم صرخاتها ولا صرخات أخيها الأصغر وتوسلاتهم، وكان الموظف الذي سمع حديثهم في ذلك اليوم، معهم، ويشير إلى والدهما، وكان يقول أشياء لم تستطع فهمها في ذلك العمر، وكان يصرخ بأعلى صوته قائلاً إنه خائن، ومُفسِد.

ولأنهم فقدوا والدتهم أثناء ولادة هنده، أعطت الدولة الشقيقين لأسرٍ حاضنة مختلفة، ولم يَرَيَا بعضهما البعض وأباهما مرة أخرى، وفي المنزل الذي قضت فيه طفولتها، وفي المدارس التي كانت ترتادها، أخبروها أن والدها كاذب يُربِك الناس، ويحاول تعكير صفو المدينة، وأنه لم تكن هناك مدينة مثل تلك التي وصفها، وذلك النوع من القصص ممنوع وخطير، وهو يُسمَّم المجتمع. لسنواتٍ، كانت تبحث

بلا كَلِّ ولا مَلَلٍ عن أثر لاسطنبول، التي وصفها والدها، والوديان الخضراء المورقة حيث يتجول الناس بسرور، ولكن لم يكن في السَّجَلَات التاريخية ولا في الروايات والأفلام القديمة أيُّ مُؤشِّر على مكان مختلف من المدينة التي عاشوا فيها اليوم، كانت على استعداد لتصديقه إذا كان بإمكانه العثور على دليل واحد فقط، لكن جهودها لم تسفر عن نتائج، أخيراً، عندما جذب فضولها عن حياتها الماضية انتباه بعض المُعلِّمين في المدرسة، وتمَّ تحذيرها بشدَّة، تخلَّت عن بحثها؛ خوفاً من أن يأخذها الرجال الذين يرتدون الزي العسكري يوماً ما، مثل والدها.

لقد أبقت هذه الذكريات بعيداً عن ذهنها لسنوات، ربما كانت ستفعل ذلك حتى أنفاسها الأخيرة إذا لم تأتِ إلى الحديقة حيث فقدت عائلتها، كموظف، ولكن النظرة الأخيرة التي ألقاها عليها والدها أثناء اقتياده بعيداً عن أطفاله، والتعبير المؤلم الذي لا حول له ولا قوة على وجهه، لم يبعُدْ من أمام عينيها الآن، ليتها لم تفقد عائلتها بسبب كذبة... ليته لم يكن مُفسِداً أزعج الجمهور... وعلى الرغم من أنها لم تستطع مسامحته إطلاقاً، إلا أنه لم تستطع التوقُّف عن حُبِّه.

وبمجرد أن ركبته هنده، أقلعت السيارة «البرجوية» من طراز تويوتا على عَجَل، كما لو أنها توقَّفت لفترة طويلة على الأرض، وغطَّت سحابة الغبار التي رفعتها المراوح الحَيَّة من طرف إلى آخر، لم يرفع سُكَّانُ الحي أصواتهم لأن شعار «جمهورية المدينة» كان على السيارة، لكن كان من الممكن أن تقسم الشابة على أنهم سبُّوها.

ارتفعت تويوتا بسرعة، تاركة المبانى العامة في الأسفل، وكانت تُحلِّق شمالاً، وتتَّجه إلى البرج العملاق حيث كان يقع مكتب تخطيط المدينة الذي تعمل فيه هنده، كان هذا المبنى المكوَّن من ثلاثمائة وعشرين طابقاً، ونصفه السفلي مطلياً باللون الفضي والجزء العلوي

مَطْلِيّ باللون الأسود، أحد أكثر الأبراج حداثةً على الإطلاق، لقد كان تُحفةً فنيّةً يفخر بها المعماريّون في اسطنبول بأن يكونوا قدوة للعالم، ولكن بالنسبة لهنده، فقد كان سجنًا ضخمًا لا نهاية له، وكانت تحبّ دائماً الهبوط على الأرض، ووضع قدميها على الأرض؛ ولذلك اختارت هذه المهنة، بينما كان والداها بالتبني يريدان لها أن تصبح طبيبة، ومع ذلك، فإنها في الوقت الحالي كانت راضيةً عن العودة إلى زنزانتها المتهوّهة؛ حتى تبعد عن والدها، والذكريات المؤلمة.

وعندما اقتربوا من البرج العملاق تباطؤوا من أجل الأمان، عندما ظهر منطادُ إعلانٍ أمامهم، وأثناء مروره بجانبهم، وحدّقت هنده في عرض كَريم مكافحة الشيخوخة المعروض على الشاشة الضخمة أسفل المنطاد؛ لإلهاء عقلها، المرأة، التي بدّت رثّة الملابس قبل أن تأخذ الكريم في يدها، كان لونها باهتًا وكانت ترتدي زيًا عاديًا، وتغيّرت فجأة من رأسها إلى أخمص قدميها عندما دهنت الكَريم، وكانت تخرج، وشعرها مُصَفَّفٌ بشكلٍ جيد، مرتدية فستان سهرة أنيقًا، يضيف جمالًا إلى جمالها بمكياج مثالي، كانت ترى هذا الكريم في كل مكان مؤخرًا، وكانت الفتيات في المكتب يتحدثن عنه بإطراء، لقد خمّنت أنه باهظ الثمن، لكن يجب أن تُجرّبه في وقتٍ ما.

وفجأة تجمّدت الصورة على الشاشة، وأزّت لثوانٍ قليلة، ثم تغيّرت تمامًا، وفجأة، غطّى وادٍ أخضرٌ شاسعٌ عيونَ هنده، كانوا يطرون بسرعة فوق الوادي الذي تصطفُ على جانبيه الأشجار، وأحيانًا يخفضون ويقتربون من الجداول التي تخرُ أسفله، وقطعان الخيول التي تركض بحرية في الأسفل، كان الأمر أشبه بحكاية خرافية، لم تشاهد الشابة مثل هذا المشهد في الحياة الواقعية، أو في الأفلام، باستثناء القصص التي رواها والدها، ولم ترَ حتى صورة لها، فوضعت السماعات الموجودة في مقعدها على عجل، وأمرت السائق بالتوقّف، تجمّدت السيارة «البرجوية» في الجو أمام المنطاد الضخم.

كان الصوت الذي سمعته من خلال السماعه صوتًا هادئًا لامرأة،  
ويبعث على الطمأنينة، كان لها صوت شبه سريالي لا تشوبه شائبة:  
«أهل اسطنبول الأعزاء، لقد كانوا يخدعونكم منذ قرون، كانت  
اسطنبول ذات يوم خضراء وجميلة، وكان يمكنكم المشي بشكل مريح  
في الشوارع، والجلوس في ظلال الأشجار مع أحبائكم، وكان الناس  
يستطيعون أن يبحثوا ويتعلموا، ويناقشوا بحرية الأحداث التي وقعت  
في التاريخ، وأشكال الحكم المختلفة، وكان للأغنياء والفقراء حقوق  
تصويت متساوية، حتى في الظروف المختلفة، كانوا سيعيشون جميعًا  
معًا على الأرض، ربما لم تكن الحياة مثالية في ذلك الوقت أيضًا، كان  
لديهم بلا شك مشاكلهم الخاصة، لكن الشيء المؤكد هو أنها كانت  
مختلفة تمامًا عما هي عليه اليوم.

النظام الذي نعيش فيه ليس نظامًا لم يتغير عبر التاريخ، وكان  
موجودًا دائمًا، إنها لكذبة كبيرة، أن البشر قد عاشوا بنفس الطريقة  
منذ اليوم الذي وطأت أقدامهم العالم، وإذا كان ماضيًا مختلفًا، فقد  
يكون مستقبلنا مختلفًا أيضًا، لسنا محكومين بالقواعد والقوانين التي  
وُلدنا فيها!

هل تعلمون أن نفقات الصيانة لمدة عامين للأبراج الضخمة،  
يمكنها تنظيف المناطق المعرضة للإشعاع في اسطنبول، وتصبح خضراء  
وجميلة كما ترونها على الشاشة الآن؟ هل تعلمون أن العديد من  
الأدوية التي يمكن أن تعالج أمراضكم، يتم تقديمها فقط لمن يعيشون  
في الأبراج الضخمة، دون أن تعلموا بها؟

حسنًا، وماذا عنكم يا أصدقاءنا الأعزاء، الذين تعتقدون أنكم  
محظوظون في الأماكن المرتفعة؟ هل تعتقدون أن البقاء داخل أربعة  
جدران هو خياركم الوحيد لبقية حياتكم؟ لم يكن الأمر كذلك من  
قبل! هل تعلمون أن خمس الأشخاص الذين يعيشون في المدن

الضخمة يعانون من مرض عقلي واحد على الأقل قبل بلوغهم سنّ الأربعين؟ ما مدى احتمالية أن تجد الشخص الذي يمكن أن تقع في حبه فقط بين أولئك الذين يعيشون في نفس المبنى الذي تعيش فيه؟

كلنا نعيش في خداع كبير، وقد حان وقت الاستيقاظ! نريد التغيير! نحن نستحقّ حياة أكثر حرية وعدلاً وسعادة! وكلنا! ليس فقط أولئك الذين يعيشون على الأرض، ولكن أيضاً أولئك الذين يعيشون في الأبراج!

لسنا محكومين بالنظام المفروض علينا اليوم!

معاً يمكننا أن نصنع الأفضل!». .

اقتربت هذه من النافذة، وفمها مفتوح إلى آخره، ونظرت إلى الخارج، الآن كانت تلك اللقطات والكلمات منتشرة في جميع القنوات الإعلانية، انطلاقاً من حقيقة أن عدداً لا يُحصى من السيارات «البرّ جوئية» تتجمّع حول المناطيد الإعلانية في الهواء، وكأن الآلاف من الأشخاص الموجودين بالأسفل قد فُتِنُوا بالشاشات الترويجية التي تُغطّي جدران المباني، حركة المساواة... تمتت بذهول، مَنْ يمكن أن يكون سواها؟

لقد نظرت بإعجاب إلى الوادي الخصب المبهّر الذي يتدفّق عبر شاشة المنطاد، تبدو أغصان الأشجار حقيقيةً لدرجة أنها تستطيع لمسها، ورفعت صوتها بحماس أكبر، قائلة:

«والدي لم يكن يكذب... لم يخدعنا... ما قاله كان صحيحاً... كان صحيحاً...».

بعد ثوانٍ قليلة، تغيّر المشهد الموجود على المنطاد، وبدأ رجلٌ مبتهج يشرح كيف سيكون الطقس في الأيام المقبلة، يجب أن يكون مسؤولو

جمهورية المدينة قد استعادوا السيطرة على القنوات الإعلانية، كان بإمكانها أن تُخْمَن أن تلك الدقائق القليلة من البَثِّ المُقَرَّصَن ستؤدِّي إلى طرد ما لا يقل عن بضع عشرات من كبار المديرين التنفيذيين، وسجن بعضهم، وحتى إعدام بعضهم.

كانت السيارات «البرَّ جوِّيَّة» المتجمِّدة في الهواء تتحرَّك واحدة تلو الأخرى، وبدأت الحشود الموجودة على الأرض تتفرَّق ببطء، ربما في غضون ساعات قليلة، ستُصدِر السُّلطات بيانًا قاسيًا للغاية حول هذا البَثِّ المُقَرَّصَن، قائلة إن المسلحين حاولوا مرَّةً أخرى عملاً همجياً لزعزعة سلام المدينة، بدعوى أن لقطات الوديان الخضراء ليست حقيقية، ولكن تمَّ إنشاؤها بواسطة الكمبيوتر، ربما يدَّعون كذباً أن مبنى البث قد تعرَّض للهجوم، وأنه تمَّ قتل مسؤولين أبرياء، وعلى الأرجح سيصدِّقهم غالبية الجمهور، وقد يخشى الآخرون التفكير بخلاف ذلك، ويجبرون أنفسهم على تصديق ذلك، لكن بالتأكيد سوف يظهر بعض الشجعان من بينهم.

جلَّست هنده إلى الخلف، وطلبت من السائق أن يواصل السير على الطريق، وكانت هناك ابتسامة سعيدة على وجهها، حاولت عدم إظهارها أكثر من اللازم، ولأول مرَّة منذ سنوات، كان يمكنها أن تتذكَّر والدها، ليس بتعبيراته المؤلمة في اليوم الذي أخذوه فيه بعيداً، ولكن بوجهه المبتسم المشرق، وهو يروي تلك القصص الجميلة.

قالت في نفسها، أحبُّك يا أبي، وعيناها تدمعان، أحبُّك كثيراً...

بينما كانت المَرَكبة تحلِّق بين الأبراج الضخمة ذات الألوان المعدنية، والتي تخترق الغيوم، كانت تحلم بأن تحلِّق فوق الأشجار الخضراء، وتقوم بالدردشة مع الطيور، وكانت تشاهد الشمس وهي تتلألأ فوق بحرٍ صافٍ في الأفق، وتشعر بأنها حُرَّة، هل يمكن لحركة المساواة أن



تُغَيَّرُ اسطنبول حَقًّا، أَلَا يَزَالُ هُنَاكَ أَمَلٌ لِسُكَّانِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَمْ تَكُنْ مَهْتَمَّةً بِذَلِكَ كَثِيرًا، لَقَدْ غَيَّرُوا عَالَمَهَا كُلَّهُ.  
الآن لم تَعُدْ هِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَتْ مُوجُودَةً قَبْلَ بَضْعِ دَقَائِقٍ.  
يُمْكِنُهَا أَنْ تَحْلُمَ الْآنَ.

مكتبة  
[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

## نبذة عن الكاتب

باريش مستجابلي أوغلو، درس الهندسة المدنية في جامعة البوسفور، بين عامي 2002-2005، وكتب أول سلسلة من الأدب الخيالي في الأدب التركي، وهي تتكوّن من أربعة كتب، ونشر ثلاثة أعمال، هي: «خيال أجمل من الحقيقة»، و«التلميذ، و«دم الأخوين».

وفي عام 2011 كتب سلسلة «مملكة الشامان» المكوّنة من ثلاث روايات، وتُرجمت أعماله المختلفة إلى: البولندية والبلغارية والعربية والصربية والرومانية والصينية والهندية والألمانية والإنجليزية.

## نبذة عن المترجم

دكتور سمير عباس زهران حصل على الدكتوراة في اللغة التركية وآدابها عام 1994 من جامعة عين شمس، وقام بالتدريس في جامعات سوهاج وبني سويف وبنها وجامعة الإسكندرية وجامعة بيروت العربية، ويعمل حالياً أستاذًا غير مُتفرغ بجامعة عين شمس.

قام بترجمة ما يربو على 90 كتابًا، منها: روايات: كوة الحائط، ولمس السلطان، ومنظار إسطنبول، وأمي بلقيس، والساحرة العثمانية. وبعض الكتب التاريخية، مثل: المسيح الدجال، والمرأة العثمانية، والسلطين الأوائل، وحركات التمرّد والانقلابات في الدولة العثمانية، وانتقام طروادة. وكتاب أخطاء صادمة عند تربية أطفالنا، في مجال علم النفس، إضافة إلى مجموعات من أدب الأطفال. أعدّ مجموعةً من القواميس من التركية للعربية والعكس.

## الساحرة العثمانية

رواية خيال علمي، وتدور في ثلاثة أزمنة، منها:  
العصر العثماني، والعصر الحالي، والقرن  
القادم، كما تدور أحداثها في ثلاثة أجواء أيضًا:  
في البحر، والبر، والجو؛ حيث تبحر السفينة  
العثمانية "شاهميران". وتسير على الأرض،  
السيارة "البَرَّ جَوِّيَّة"، كما تطير في الجو. وكوكب  
"مافرون" حيث يعيش الناس هناك مئات بل  
آلاف السنين، وبعضهم لا يموت.

telegram @soramnqraa



مركز  
المكرهسة  
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات